عزيز نيسين

آلة سريعة العطب



((قصص))

ترجمة : عبد الوهاب مدني

الوطنية الجديدة

آلة سريعة العطب

* آلة سريعة العطب «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* ترجمة: عبد الوهاب مدني
* الطبعة الأولى ٢٠٠٢

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٢٢٢٠٥
هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ ـ ٤٤١٨١٧٢
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع
* موافقة وزارة الإعلام: **٧٢٦٨٠**

عزيز نيسين

آلة سريعة العطب

« قصص »

ترجمة: عبد الوهاب مدني

المؤلف: AZIZ NESIN

عنوان الكتاب بالتركية

NAZIK ALET

آلة سريعة العطب

إذا كنتم لا تريدون وجع الرأس عليكم أن تأخذوا درساً ممن لهم تجارب في هذه الحياة. فقد يصادف أن يذهب أحدكم إلى أنقرة في أحد الأيام وقد يسأل بعض الأصدقاء.

ـ هل تحتاجون إلى خدمة من أنقرة؟ عندئذ سيكون الرد أن يضع أحدهم طرداً في يدكم وهو يقول لكم.

ـ من فضلك أوصل هذا الطرد إلى المكان الفلاني في أنقرة.

إحذروا الوقوع بمثل هذا الفخ. لا تحملوا أي طرد يمكن أن يعطيه لكم أي إنسان. ولكي تأخذوا هذا الدرس يجب أن تستمعوا إلى ما جرى معي.

ولكن هناك مقدمة يجب أن أشرحها لكم أولاً. كنت قد عملت بعض المقالب الصغيرة مع بعض الأصدقاء الذين أعمل معهم في نفس الصحيفة. أحدهم كان مغرماً بالنساء كثيراً (هكذا كان يدَّعي). وكان لا يكف عن سرد قصصه ومغامراته الغرامية بمجرد أن يجد من يسمع له مثل هذه القصص. وكنا نعلم أن جميع قصصه غير حقيقية وهي من نسج الخيال. فقلت في نفسي لألعب معه هذا المقلب. وعلى ورق زهري اللون ولكلام مثل الدرر وبلسان إحدى الفتيات كتبت له رسالة حب وأودعتها البريد. وعلى أساس أن هذه الفتاة معجبة كثيراً بمقالاته التي ينشرها في الصحيفة وهي ترغب في التعرف عليه. وأنها ستنتظره الساعة الخامسة عشرة أمام محطة القطار في (السيركه جي) وهي تحمل بيدها حقيبة حمراء اللون.

استلم صديقنا الرسالة وجن من الفرح، ولبس أحلى ثياب وحلق ذقنه عدة مرات وذهب إلى المكان الموعود. وانتظر ساعتين ونصف بالتمام. أما نحن فقد كنا نتفرج عليه من إحدى المقاهي المقابلة لمكان الموعد.

بعد ذلك استلم رسالة ثانية من الفتاة تبدي فيها اعتذارها عن عدم المجيء لانشغالها بأمور مهمة جداً ظهرت لها فجأة. وقالت له في هذه الرسالة أنها ستنتظره الأربعاء القادم في محطة القطار الكائنة في محلة (باقركوي) في الساعة السادسة عشرة ولانشغالها أيضاً لم تأت الفتاة في الموعد المحدد واعتذرت ورجته أن يلتقيا في ميناء (باشا بهجة) ولم تأت إلى هناك أيضاً. وكتبت رسالة أخرى وطلبت منه أن يلتقيا في (لاونت). هذه الفتاة التي كتبت له جميع هذه الرسائل اتضح له أنها متزوجة. وهي لم تتمكن من مغافلة زوجها الغيور والحضور في المواعيد التي كانت تحددها. لذلك بدأت تختار في رسائلها أماكن لقاء نائية مثل (كاسيوس) (فلوريا) الجزر النائية، أوك ميداني...

استمرت هذه الحكاية نحو شهرين أو ثلاثة، وكان يمكن أن تستمر أكثر من ذلك لولا أن صديقنا الذي كان يستلم رسائل العشق من تلك الفتاة المجهولة قد تزوج وتخلص من التجوال في أحياء استانبول النائية.

الصديق الثاني عملت معه مقلباً على الشكل التالي. هذا الصديق كان قد كتب في الصحيفة مقالاً عنيفاً تهجم فيه على إدارة (الحصر). وبعد هذا المقال بثلاثة أيام أرسلت إدارة الحصر إلى هذا الصديق صندوقاً يحتوي على بعض المشروبات كالنبيذ والفودكا والعنبريد. الحقيقة أن صديقنا كان يعتقد أن الصندوق مرسلاً من قبل إدارة الحصر. وجاء إلينا بالصندوق ليرينا إياه وهو يختال تيهاً وعجباً. وفي المساء استقل إحدى سيارات الأجرة وذهب بالصندوق إلى البيت. وصاح على زوجته وحماته وأولاده وخاطبهم قائلاً.

ـ نحن عندما نكتب مقالاً ضد إنسان ما نستطيع أن ننهي فيه ذلك الإنسان. انظروا إدارة الحصر أرسلت لي هذا الصندوق المليء بالمشروبات ثمناً لسكوتي عن فضائحهم. أنا لا أقبل مثل هذه الهدايا وأنا لست من الناس الذين تسكتهم الهدايا. وغداً سأكتب مقالاً بحق هذه الإدارة أشد حدة من المقال السابق.

وكان المقال الثاني لصديقنا هو عبارة عن شكاية ضد تلك الإدارة من أن زجاجات العرق لا تفتح إلا بصعوبة فائقة بسبب غطاء الفلين المثبت على الزجاجات.

وبعد أن نفخ نفسه طويلاً أمام جميع من في البيت قال.

ـ افتحوا هذا الصندوق لنرى ما بداخله.

وفُتح الصندوق بهيجان شديد ولم يكن يحتوي سوى أربعين خيارة (مبزرة) ولم تضع الحماه هذه الفرصة أبداً. فأمسكت بأكبر خيارة وصاحت بوجه صهرها وهي تلوِّح بالخيارة.

ـ انظر كم أنت كاتب كبير.

من قام بمثل هذا العمل المنحط؟ طبعاً معروف...

الصديق الثالث عملت معه مقلباً صغيراً على هذا الشكل. هذا الصديق كان المدير الإداري للجريدة التي أعمل بها. وهو لا يقرأ سوى التعليمات المكتوبة في حافلات النقل الداخلي. حتى أن أحداً لم يشاهده يقرأ أي جريدة. لكنه كان يقرأ باب الحظ فقط. وكان هذا الباب من تحريري أنا. لكنه لم يكن يعلم ذلك. وكان أول شيء يقوم بعمله في الصباح هو أن يفتح الجريدة على صفحة الحظ ويقرأ حظه. وفي أحد الأيام كتبت في برج هذا الصديق ما يلي.

«ساعد أصدقاءك قدر المستطاع، إذا طلب أحدهم منك ديناً فلا ترده خائباً. لأن الله سيرزقك أكثر، كلما ساعدت أصدقاءك أكثر».

ذهبت إليه بعد الظهر وطلبت منه أن يقرضني مبلغ ثلاثمائة ليرة. هذا البخيل هو لم يقرأ برجه هذا اليوم لا يمكن أن يعطيني ولا حتى ثلاثمائة قرشاً.

- قال لي متى سترد هذا المبلغ؟

- فأجبته في الأسبوع القادم.

دفع الثلاثمائة ليرة فكتبت له في الأسبوع الثاني في برجه ما يلي:

«لا تضغط على صديقك الذي استدان منك، لأن أبواب الرزق ستفتح لك في هذه الأيام وستقبض مبلغاً كبيراً من المال. استمر في مساعدة الغير وإلا فإن أبواب الرزق ستسد في وجهك».

في ذلك اليوم طلبت من المدير الإداري مبلغ مائتي وخمسين ليرة كدين إضافي للمبلغ السابق. وهكذا أصبح مجموع المبالغ التي استدنتها منه ألفاً وستمائة ليرة. وفي أحد الأيام طلبت منه مبلغ مائتي ليرة وأنا معتمد على ما كتبته في برجه في ذلك اليوم. فبادرني بالشتائم والساب قائلاً.

- ولك: الله يلعن الحظ والأبراج... والرزق الذي سيأتيني بسببهم فتركته ووليت هارباً.

أما باقي الأصدقاء فقد عملت معهم بعض المداعبات الصغيرة، هؤلاء الأصدقاء اتفقوا جميعاً على تلقيني درساً لا أنساه أبداً.

كنت سأذهب إلى أنقرة لقضاء بعض الأعمال وحسب العادة ومن باب رفع العتب سألتهم.

- هل من خدمة أؤديها لكم وأنا في أنقرة؟ فقالوا

- بالطبع فلدينا طرد يجب إرساله إلى مكتبنا هناك... خذه معك بعد قليل احضروا طرداً ملفوفاً بشكل جيد ومربوطاً بالحبال. فكان ثقيلاً لا يمكن تحريكه من مكانه.

ـ قلت لهم ما هذا؟

ـ قالوا هذه قطع تبديل لآلة (تليفوكس إيتك)...

ـ فقلت لهم لماذا لا ترسلونها مع إحدى شركات النقل!...

ـ قالوا هل جننت مثل هذه الآلة لا تعطى لشركات النقل لأنها آلة سريعة العطب. فإذا وضعت على الأرض بعجلة أو لمسها أحد فإنها تنكسر لأنها آلة سريعة العطب.

ـ أعطوها للطرود البريدية!

ـ هل جننت. أمثل هذه الآلة ترسل بالبريد. هل تعلم أن قيمة هذه الآلة أربعمائة وخمسون ألف ليرة. وقد تكبدنا كثيراً من المشاق وفي ظل هذه الأزمة في أسعار القطع الأجنبي حتى حصلنا عليها. فإذا ضاعت في البريد لا يكفينا مليون ليرة لتعويض مثل هذه الآلة.

لن أدع المفاجأة حتى نهاية القصة. سأخبركم عنها الآن. فلقد كان داخل الطرد أربعة أحجار كبيرة. ولم يكن يخطر في بالي أبداً أن يكون الموضوع برمته مقلباً مدبراً ضدي.

ـ قالوا لي آمان انتبه جيداً. يجب أن تكون تحت نظرك دائماً. لا تسلمها لأي حمال فقد تصطدم في مكان ما فتتعطل. ولا يوجد هنا من يستطيع إصلاحها، آمان انتبه إنها سريعة العطب.

مسكت هذه الآلة الحساسة بيدي.

ـ قالوا لي انتبه لا تسلم الآلة لأي كان. اجتمع مع الأصدقاء في مكتب الجريدة في أنقرة... وافتح العلبة أمامهم، وسلمهم الآلة سالمة. ويستحسن أن تأخذ منهم وصل استلام.

ولكي تتمكنوا من فهم وضعي جيداً يجب أن تكونوا جاهلين مثلي بمحتوى هذا الطرد الذي فيه أربع كتل من الأحجار.

آمان يا ربي! كم هي مسألة صعبة. آلة بقيمة أربعمائة وخمسين ألف ليرة وآلة دقيقة وحساسة للغاية... إذا اصطدمت بأي شيء فسوف تتعطل ولا يوجد من يمكنه إصلاحها. ولا يمكن تعويضها بمليون ليرة. حقاً إن هذا الهمّ كبير.

كنت أرتعد خوفاً من أن ينقطع الحبل المربوط به الطرد. فحملت الطرد بين يدي آه كم كان ثقيلاً. حتى أن الحمال لا يستطيع حمله بسهولة. كنت احتضن الطرد واضعاً إياه فوق صدري وأنا أنحدر في نزلة (الباب العالي)... كم هو غريب أمر هؤلاء الناس إنهم لا يعرفون حتى كيف يسيرون. فهذا يزاحمني. وذاك يدفشني وآخر يضربني بعكسه وأنا ممسك بالطرد على صدري. كأنني ممسك بطفل ملفوفاً باللفة فصحت غاضباً.

- على مهلك يا أخي...
- فأجابني ماذا حدث. وإذا لم أمش على مهلي...
- فقلت يا أخي معي آلة. آلة سريعة العطب.
- دعنا من آلتك الآن...

لم يكن بيدي حيلة إذا شتمني هذا الرجل أو حتى إذا ضربني كفّين فأنا لا أستطيع أن أحرك يداي اللتان تحتضنان هذه الآلة الحساسة. لذا فمن الأحسن أن أتابع سيري صامتاً. مشيت متثاقلاً وأنا أنوء بحمل هذه الآلة حتى وصلت إلى محلة (سيركة جي) وهناك كان الهم أكبر حيث كان حوالي أربعين شخصاً يتدافعون أمام إحدى السيارات (السرفيس). خيمت على الآلة الحساسة كالنسر الذي يحمي فراخه وعندما هممت بالدخول إلى سيارة السرفيس دفعني أحدهم فرماني أرضاً وسبقني في الدخول إلى (السرفيس). تدحرجت على الأرض ولكنني كنت أدرك مسبقاً أن من يحمل مثل هذه الآلة الحساسة يجب أن يكون سريع البديهة والحركة. لذلك نسيت نفسي وفكرت في الآلة وبدلاً من انكفأ على وجهي.

ارتميت على ظهري وجثمت الآلة على صدري وحمدت ربي أن الآلة لم تصاب بأي أذى. أصابها أو لم يصبها لا أعلم. ألم يقل الأصدقاء أنها إذا اصطدمت بأي شيء فستتعطل!... ما العمل إذا تعطلت الآلة؟ وأنا أفكر في هذا الموضوع نهضت على مهل وقررت أن لا أستقل أي (أتوبيس) أو سيارة (سرفيس) فذهبت إلى سيارة (التاكسي) وقلت لأحدهم وأنا أتوسل له.

ـ أخي ليس من أجلي بل من أجل هذه الآلة السريعة العطب. إنني على استعداد أن أدفع لك ما تطلبه...

أنا أعلم أن أجرة (التاكسي) حتى منطقة (قره كوي) هي خمس عشرة ليرة. ولكن إذا طلب مني خمسين ليرة فسوف أعطيه. السيارة تسير وهي تهتز ذات اليمين وذات الشمال وقلبي يرتجف خوفاً من أن ينقطع أحد الأسلاك فنبهت السائق قائلاً:

ـ يا حضرة السائق أرجو أن تسير بهدوء.

كانت الآلة تهتز كثيراً لأن الطريق لم يكن مرصوفاً بشكل جيد. ولأن أحداً لم يفكر بأن شوارع استانبول هذه يمكن أن تمر عليها سيارة تحمل مثل هذه الآلة السريعة العطب.

وصلت مع الآلة إلى (قره كوي) وأنا على آخر رمق. إذ لم يعد لي طاقة على حملها فأعطيتها لأحد الحمالين. قبل أن أوصيه خيراً بها كان الحبل قد انقطع من يده ووقعت الآلة على الأرض. فدخلت في عراك مع هذا الحمال وأنا أقول في نفسي «لم يعد هناك أي خير ينتظر من هذه الآلة الحساسة». وأنا لا أستطيع أن أفي قيمتها لو عملت طول العمر. هذا علاوة على أنهم سيطردونني من العمل فيما إذا تعطلت هذه الآلة. آه كم أتمنى لو استطعت إيصال هذه الآلة سالمة لكنت ارتحت من هذا البلاء.

لا أحد غيري يستطيع أن يتصور العذاب الذي تحملته حتى وصلت

إلى الباخرة كان البحر مائجاً في ذلك اليوم وكان قلبي يقفز من مكانه كلما اهتز المركب وأنا أحتضن الآلة. كان الركاب يلاحظون الورطة التي أنا فيها ويسألونني باهتمام فأجيبهم؟

ـ أفندم آلة سريعة العطب لا يمكن أن تحصل عليها حتى إذا دفعت مبلغ خمسمائة ألف ليرة. وأنت تعلم في ظل هذه الأزمة في القطع النادر كم تعذبنا حتى حصلنا عليها. يعني إذا انقطع سلك في داخلها لا يوجد هنا من يستطيع إصلاحها.

كنت أكرر جميع ما تعلمته حول هذه الآلة وأفهمه للجميع ولكن كان يداخلني خوف من أن يقوم أحد بسرقتها إذا عرفوا كم كلّفت هذه الآلة.

وصلنا إلى محطة القطار في (حيدر باشا) فالتفت حولي الحمالون وهم يصيحون لنحمل لك هذا الطرد.

هل من المعقول أن أعطيها لحمال؟ احتضنتها بين ذراعي بقوة حتى أصبحت كأنها قطعة مني وركبت القطار.

تنفست الصعداء في عربات النوم. ولكن مع ذلك لم أستطع ترك الآلة والذهاب إلى أي مكان. فعندما كنت أذهب لعربة المطعم كنت أحتضن الآلة. حتى عندما كنت أذهب إلى المرحاض كانت الآلة لا تفارقني... العمى يضرب هذا القطار لقد اهتز بسرعة فانزلقت قدماي وسقطت مني الآلة فأصبحت أنا في طرف والآلة في طرف آخر.

ألم يقولوا في الأمثال (ألف حذر لا يمنع قدر). لا أعتقد بعد أن سقطت مني هذه الآلة الحساسة بقي فيها شيء حساس. فبدأت أكيل الشتائم لهذه الآلة ولمن أعطاني إياها كنت أرتعد خوفاً من سقوط هذه الآلة على الأرض فرجوت الرجل الذي يشاركني الغرفة برغبتي في النوم في السرير السفلي فسألني لماذا.

فبدأت كالعادة بشرح جميع الأمور التي تخص هذه الآلة السريعة العطب.

لم يبد الرجل أي اعتراض ولكنني لم أكن مرتاحاً لنظراته التي لم تفارق الآلة... وبالتالي فلم أستطع النوم حتى الصباح.

وصلت إلى أنقرة وبعد ألف صعوبة أوصلت الآلة إلى مكتب أنقرة وجمعت جميع الأصدقاء العاملين في المكتب وشرحت لهم تفاصيل هذه الآلة.

ـ قلت لهم سأفتح هذا الطرد الآن أمام أعينكم وسأقوم بتسليمكم هذه الآلة لأنني لا أريد أن أتحمل أي مسؤولية.

بادرني رئيس المكتب قائلاً:

ـ لقد هتفوا لنا البارحة ليلاً من مكتبنا في استانبول وقالوا إنهم أرسلوها خطأً إلى أنقرة بينما يجب أن ترسل إلى إزمير وعليك أن تعيدها ثانية.

ـ قلت لتبقى هنا حتى يوم عودتي إلى إستانبول.

ـ قالوا لا علاقة لنا بها أبداً. فقد تصاب بعطل... نحن غير مستعدين لإستلامها من المعروف أنك أتيت إلى أنقرة بمهمة عمل. وأنت لا تستطيع ترك مثل هذه الآلة في الفندق ولا تستطيع تسليمها للأمانات. قابلت خلال مهمتي هذه وزيرين وثلاثة مدراء عامين ومدير أحد المصارف. وكنت أحتضن هذه الآلة سريعة العطب في جميع تلك المقابلات وكان الجميع يسأل عن هذا الطرد وكنت أجيب الجميع.

ـ أنها آلة سريعة العطب. لا يمكن تعويضها بخمسمائة ألف ليرة. إذا انقطع سلك بداخلها... أنا أعرف كيف عدت ثانية بهذه الآلة إلى استانبول.

وعندما أوصلتها إلى الجريدة التف حولي جميع الأصدقاء وقالوا:

ـ افتح هذا الطرد لنرى فيما إذا كانت الآلة سليمة أم لا؟ فتحوا الطرد فكان فيه أربع أحجار كبيرة. واستلقى الرفاق على ظهورهم من الضحك. أما أنا فقد تسمرت عيناي على هذه الأحجار فأمسكت بإحداها وسرت باتجاههم تدافعوا وهربوا فرميت الحجر عليهم فأصاب زجاج الباب فكسره.

هذا ما جرى معي وليكن ذلك درساً لكم.

ـ إذا قالوا هذا الطرد... انتبهوا طرد فرد لا تأخذوه!...

* * *

العميل OX - 13

كان يعمل جاسوساً في بلدان عدة في الشرق الأوسط والشرق الأقصى وكان واحداً من أهم جواسيس بلاده. وقد قام بتوجيه عدة عمليات تخريبية حقق فيها نجاحات فائقة واحتل مركزاً مرموقاً في تاريخ الجاسوسية رغم أنه لا زال على قيد الحياة.

ورغم كبر سنه إلا أنه كان يبدو شاباً وكانت بلاده تأمل في الاستفادة من خبرة هذا الجاسوس المرموق فأرسلته إلى تركيا لإدارة بعض الأعمال المهمة.

كان الرمز السري لهذا الجاسوس هو OX - 13 ولكن التنظيم السري قد منحه اسماً مستعاراً هو (Richard Welling) ليستعمله في تركيا. كان من عادة هذا الجاسوس هي تعلم لغة البلاد التي يعمل بها. قبل أن يذهب إليها. لذلك فقد تعلم اللغة التركية قبل أن يأتي إلى تركيا. خاصة وأن لديه قابلية كبيرة في تعلم اللغات. وقد تقدمت لغته التركية بعد بضعة أشهر من إقامته في تركيا.

يقال أن أحسن طريقة لإتقان أي لغة أجنبية هو الزواج من امرأة لغتها الأصلية هي اللغة الأجنبية التي تود إتقانها. ولكي ينجح ريشارد فالينغ في مهمته السرية التي جاء من أجلها إلى تركيا وحتى لا يتمكن أحداً من تمييزه عن الأتراك كان يجب عليه أن يتزوج من امرأة تركية. وقد وجد ضالته في سيدة شابة فطلب يدها من أهلها وفيما كانت أمور الزواج تسير في طريقها المعتاد. أصر والد هذا الشابة على أن يعتنق ريشارد فالينغ الإسلام وإلا فإنه لن يزوجه ابنته.

لم يكن لدى ريشارد فالينغ أي فرق في أن يكون مسلماً أو يهودياً أو حتى بوذياً من المؤكد أن ريشارد كان يفكر بهذه الطريقة لجهله بالموضوع. صحيح أنه ليس من فرق بين الأديان بالنسبة للعميل OX - 13 ولكن الوضع يختلف في الإسلام بالنسبة للرجال. ولكي يصبح العميل OX - 13 مسلماً لابد أن يقطع من جسمه تلك القطعة التي يعتبرها الإسلام زيادة لا لزوم لها. ومن شدة حرص ريشارد فالينغ على عمله ذهب لإجراء هذه العملية الدينية. طبعاً لم تكن عملية الطهور عملية سهلة بالنسبة لرجل متقدم في السن مثل ريشارد فالينغ. هذا العميل البارز وضع نصب أعينه كل التضحيات وأجرى جميع المراسيم الدينية بما في ذلك تغيير اسمه من ريشارد فالينغ إلى رشاد والي. وهكذا خلق رشاد والي لنفسه جواً مريحاً للعمل الذي جاء من أجله.

هناك قلة من الأشخاص تغييرهم بعض الأحداث التي قد تمر بهم. فالسيد رشاد والي قد تغيرت نظرته فجأة تجاه حياته خاصة بعد أن أصبح مسلماً وعاش بين الأتراك وتزوج منهم وعرف كم أنهم أناس طيبون. هذا الجاسوس المميز بدأ يكره عمله. وعاهد نفسه بأن لا يقوم بأي عمل ضد هؤلاء الناس الطيبين.

هذا الجاسوس الذي تحجر قلبه طيلة أربعين سنة أمضاها في الجاسوسية لا أحداً يصدق أن قلبه سيرق فجأة! ولكن لكل قاعدة استثناء وهذا ما حدث للسيد رشاد والي الذي امتلأ قلبه بحب هؤلاء الناس الطيبون.

وفي أحد الأيام اتخذ قراراً بأن يذهب إلى إدارة الجاسوسية ليسلم نفسه بعد أن يوضح لهم هويته الحقيقية والمهمة السرية التي جاء من أجلها وبأنه سيتخلى نهائياً عن الجاسوسية. ويعيش بعدها في عش الزوجية السعيد مع زوجته الحبيبة وهؤلاء الناس الطيبون الذين أحبهم كثيراً.

وفي أحد الأيام ذهب بعد الظهر إلى إدارة الجاسوسية، وتجول في أرجاء المبنى وهو يضع نصب عينه كل الاحتمالات لأن المسؤولين في

الإدارة ستصيبهم الدهشة. وقد يقومون بإلقاء القبض عليه واستجوابه لمدة طويلة.

دخل إحدى الغرف في الطابق الأول بعد أن نقر على الباب. سأله الموظف الذي يجلس خلف الطاولة عن طلبه، وبدون أي مقدمات شرح رشاد والي الموضوع الذي جاء من أجله. والبلد الذي يعمل جاسوساً لحسابه.

كان اسم البلد الذي نطق به مهماً جداً لذلك الموظف لدرجة أنه لم يعر انتباهاً لكلمة جاسوس أبداً أو حتى أنه لم يسمعها أصلاً.

ولما لم يعد الموظف أية دهشة أمام رشاد والي. أعاد السيد رشاد على مسامعه مرة ثانية بأنه جاسوس لذلك البلد.

عندئذ قام الموظف من مكانه ومد يده مصافحاً العميل OX - 13 قائلاً له:

- إنني ممتن جداً للتعرف عليكم. أرجوكم أن تتفضلوا بالجلوس.

نعم نعم إن رشاد والي لا يخطئ أبداً بمعرفة هؤلاء الناس كم يبدو عليهم أنهم أناس طيبون. فهم يقابلون الجاسوس بوجه ضاحك ويرجونه بالتفضل بالجلوس. وإذا جلس يقدمون السيكارة، قالت رشاد والي:

- أنا معروف باسم العميل OX - 13 ولكن اسمي الحقيقي هو ريشارد فالينغ.

فقال له الموظف بعد أن عرفه على اسمه ووظيفته.

- هل لك طلب لدينا.

كان رشاد والي يظن أن الموظف ستبدو عليه الدهشة. ولكن رشاد هو الذي أصيب بالدهشة وقال في نفسه لعل الموظف لم يسمع ما قلت له فأعاد ثانية.

ـ أنا جاسوس... فأجابه الموظف:

ـ يا... جميل جداً... وبعد لحظة من التفكير. سأله هل تطلب منا عملاً.

ولم ينتظر جواب السيد رشاد والي فوضع الموظف يده بلطف على ظهر السيد رشاد والي وقال له:

ـ في هذه الحالة يجب أن تصعد إلى الطابق الثاني وتراجع الموظف في الغرفة رقم (٣٣٨).

ذهب رشاد والي إلى ذلك الموظف في الغرفة المذكورة. وأفهمه بأنه جاسوس فنظر الرجل إليه بجدية وقال له.

ـ ماذا... جاسوس؟ في أي مجال تقوم بعملك الجاسوسي. قال رشاد والي.

ـ في مجال التخريب وعلى الأرجح في أعمال التفجير.

ـ آسفين لا نستطيع أن نعطيك عملاً في هذا المجال. لأن (كادرنا) الوظيفي في هذا المجال كافٍ جداً حتى أنه أكثر من اللازم.

هذا الجاسوس الذي تعود طيلة السنين على برودة الأعصاب احتد وعلا صوته قائلاً:

ـ أقول لك بأنني جاسوس.

فأجابه الموظف بمنتهى البرود قائلاً:

ـ ممكن. ولكن ماذا تريد منا أن نعمل؟ هل تريد أن نقدم لك التماساً لأنك جاسوس.

ـ أقول لك بأنني عميل. ألا يوجد أحد هنا يهتم بذلك. أنا سأعطيكم جميع المخططات السرية فأجاب الموظف:

ـ ها... هذا موضوع آخر... من فضلك اصعد إلى الطابق الثالث

وراجع الموظف الذي في الغرفة الأخيرة التي على يمين الممر. فهو صاحب العلاقة بأعمال التفجير.

وذهب رشاد والي إلى الغرفة المذكورة وقال للموظف:

- سيدي أنا جاسوس.

وبدون أن يرفع الموظف رأسه على الأوراق التي أمامه سأله:

- من أرسلك إلى هنا.

- لقد أتيت من تلقاء نفسي.

فرفع الموظف رأسه وسأل السيد رشاد:

- يعني من أوصاك بالمجيء إليَّ؟

- الموظف الذي في الغرفة رقم ٣٣٨ وقال لي بأنك مسؤول عن أعمال التفجير.

- صحيح، ولكن أي نوع من أنواع التفجير.

- مثلاً تفجير الجسور في الهواء.

- هل قلت جسور؟

- نعم.

- لقد أرسلوك خطأ. صحيح أننا نعمل في التخريب ولكن ليس في تخريب الجسور.

- طيب لمن أراجع إذن.

ولكي يأخذ الموظف وقتاً كافياً للتفكير وضع قلمه بين أسنانه وبدأ يقضمه قائلاً.

- جسر... جسر... جسر... وبعد أن كررها عدة مرات قال اصعد الطابق الرابع واسأل عن الشخص المسؤول عن عمليات تخريب الجسور.

- وهل يعرفون ذلك؟

- طبعاً. اسأل أي شخص فسيدلك.

وقام الجاسوس المميز بمقابلة الموظف المسؤول عن عمليات تخريب الجسور وشرح له الأمر وقال له بأنه جاسوس وأنه أرسل إلى هنا من أجل عمليات تخريبية. ومن بعض هذه الأعمال تخريب الجسور. فسأله الموظف الذي كان يصغي لكل كلمة يقولها رشاد.

- جسور... كيف؟

فأجاب رشاد والي وهو يكاد ينفجر.

- الجسور المعروفة.

فأوضح الموظف قائلاً:

- يعني هل هي جسور خشبية، أم معدنية، أم بيتونية، أم حجرية. وهل هي جسور معلقة أم لها قواعد وهل هي جسور سكك حديدية؟... فالجسور كثيرة ونحن لدينا مكاتب لكل نوع من أنواع هذه الجسور.

فأجاب رشاد والي:

- هي جسور حديدية على الأرجح.

- ها... الآن فهمت. إذا كان الوضع كذلك فإن مجيئك لعندي خطأ وعليك أن تصعد إلى الغرفة رقم ٦٠١ في الطابق الخامس لتراجع الموظف الذي في ذلك الغرفة بعد أن تهديه تحياتي وهو سيقوم بإجراء اللازم.

صعد السيد رشاد والي أي ريشارد ويلينغ إلى الطابق الخامس وكله أمل. ودخل الغرفة المذكورة. وشرح كل شيء من البداية وبالتفصيل ثم سكت. وكان الموظف الكبر الذي أمامه صامتاً أيضاً ولعله كان يفكر بما يجب عمله. وفجأة وكمن تذكر شيئاً هاماً اتصل تلفونياً وقال.

- سيدي لقد حضر لعندي شخص يقول إنه جاسوس وإنه مختص

بأعمال التخريب وعلى الأرجح تفجير الجسور الحديدية! ما العمل؟... ماذا تأمرون؟...

وفيما كان رشاد والي يشعر بأن الأرض تميد من تحته وأنهم سيلقون عليه القبض ويضعونه رهن الاعتقال، والموظف (على رأسي سيدي) وأغلق سماعة الهاتف والتفت إلى السيد رشاد والي وقال له.

ـ الأفضل أن تصعد إلى الطابق السادس كما قال السيد المدير لتقابل السيد هاشم وقام السيد رشاد والي بما طلب منه وشرح للسيد هاشم كل شيء. فأجابه السيد هاشم.

ـ جسور حديدية؟... بماذا تفجرونها...؟

فصاح الجاسوس الذي صعدت الدماء إلى رأسه غاضباً وقال:

ـ بأي شيء كان... ماذا يهمك من هذا الأمر.

أجاب الموظف الكبير بنعومة فائقة.

ـ أرجو أن لا تحتد. لقد قلت لي بأنك جاسوس. وأنت تعلم أن من يغضب بسرعة لا يمكنه العمل في سلك الجاسوسيه. وأنا قد سألتك هذا السؤال لكي أسهل لك أمورك. لأن لدينا قسم مختص بالتفجير بالفتيل وقسم آخر مختص بالتفجير بالكهرباء.

فأجاب السيد رشاد والي بعد أن كادت روحه تخرج من أنفه.

ـ أنا أفجر بالفتيل وبالكهرباء... أنا جاسوس... جاسوس... جاسوس وهذا يكفي.

ـ لماذا لم تقل لي ذلك يا سيد. في هذه الحالة فقد دلوك علي خطأ من فضلك انزل إلى الطابق الأول وراجع الموظف الذي في الغرفة الثالثة على اليمين.

هبط رشاد والي إلى الطابق الأول ودخل الغرفة الثالثة على اليمين وفي

أمل أخير شرح مرة أخرى كل شيء، نظر إليه الموظف بوجه عابس وهو يهتم بارتداء معطفه بعد أن نظر إلى ساعته وقال له:

- حسن... جميل ولكن لماذا تأخرت كل هذا الوقت أيها السيد؟ الدوام على وشك الانتهاء والدائرة ستغلق أبوابها وموضوعكم مهم ويحتاج إلى وقت طويل.

فأجاب السيد رشاد والي بأنه أضاع وقته في الإدارة وهو يدخل من غرفة إلى أخرى.

فرد الموظف الذي كان صوته يعلو أكثر.

- افهم، أفهم... ولكن مهما كان الأمر ألم تكن تستطيع الحضور في الصباح الباكر.

وفيما حاول رشاد والي أن يبدأ الكلام قائلاً.

- ولكن

كان الموظف يشير بظهر كفه بالهواء باتجاه السيد رشاد والي وهو يقول:

- رجاءً عد غداً في الصباح الباكر.

ريشارد فالينغ المعروف باسم رشاد والي هذا الجاسوس المميز - العميل OX - 13 كان يسير في الشارع وهو غارق في تفكير عميق. مسكين هذا العميل OX - 13 لقد استمر في العمل بالجاسوسية بدون رغبته أبداً.

* * *

من أجل خمسة قروش

الجميع افتقد السيد روحي لأنه طعن قاطع التذاكر في مؤخرته. من أجل ليرة واحدة.

البعض كان يقول مندهشاً «كم هو إنسان متوحش أيعقل أن يسفك دم إنسان من أجل ليرة واحدة» والآخر يقول «مسكين قاطع التذاكر ماذا لو كان قد مات بهذه الطعنة». البعض الآخر كان يبصق على صورة السيد روحي التي نشرت بالصحف ولكن قليلون هم الذين كانوا يعرفون السبب الخفي للموضوع. هل كان قاطع التذاكر مذنباً أم لا؟ لكن مهما كان الأمر لا يمكن اعتبار أن هذه الجناية حدثت من أجل ليرة واحدة. إن الليرة هي السبب الظاهري لهذه الجناية.

أما إذا أردنا أن نعرف الدافع الحقيقي. فيجب علينا أن ندقق في جميع ما جرى مع السيد روحي في ذلك اليوم.

كان ذلك اليوم هو يوم السبت. حيث قبض السيد روحي راتبه الشهري. وقد تضايق جداً لأن الدراهم التي قبضها لا تكاد تفي بنصف ديونه. دخل المطبخ وكان أحد رؤوس الغاز موقداً والثاني مطفأً. فأرادت زوجته إيقاد الرأس الثاني للغاز فأشعلت عود ثقاب فانفجر غاضباً في وجه زوجته وهو يقول لها:

ـ كم أنت سرفه أيتها المرأة. فأنا بسببك «لا أستطيع أن أجيب الرأسين مع بعض». أنت تقومين بإشعال أعواد الثقاب كالأغنياء الذي يطلقون الرصاص في الهواء من أجل التسلية. ما هو الداعي لإشعال عود الثقاب في الوقت الذي توجد فيه نار مشتعلة الأوفر أن تقومي

بإشعال قطعة ورق من الرأس المشتعلة وتوقدي الرأس الثاني.

هاج وماج وتوترت أعصابه تماماً. دخل الغرفة فرأى ابنته وهي تقطع ورق من دفترها المدرسي فصاح بها قائلاً.

ـ لماذا قطعت هذه الورقة.

ـ لقد سقط عليها بعض نقاط الحبر.

انفجر غاضباً في وجه ابنته وهو يقول:

مهملين. مسرفين . ستقضون علي لا محالة.

وانهارت أعصابه كليةً عندما رأى ابنه يقص الخيط الذي حزم به البقال الأغراض التي جلبها ابنه فانفجر قائلاً:

ـ والله إنكم لا تعرفون قيمة أي شيء، ارموا كل ما يصل لأيديكم وسنرى ما ستكون عليه نهايتكم؟ كان عليك أن تحل هذا الخيط وتلفه وتحتفظ به أفضل من أن تسرع للبقال. لتشتري خيطاً بدراهمك عندما يلزمنا مثل هذا الخيط. هذا كله هدر في الأموال ومن الطبيعي أن الراتب الذي أقبضه لا يكفينا.

غضب كثيراً وخرج من البيت دون أن يتناول طعام الغداء. فصادف أحد أصدقائه وهذا الصديق أيضاً لم يكن قد تناول طعام الغداء. ذهب الصديقان إلى أحد المطاعم وتناولا طعاماً بقيمة ستة عشر ليرة. وقام الصديقان بآن واحد ليدفعا الحساب فقال السيد روحي.

ـ دعني ادفع الحساب أنا من أجل خاطري.

أجاب الصديق:

ـ لا يمكن أبداً.

ـ سأغضب كثيراً. بالله العظيم.

ـ لا يمكن أن أدعك تدفع. يا أخي هي مرة كل أربعين سنة... اتركني أنا الذي سيدفع الحساب.

وكاد الأمر أن يصل بينهما إلى حد الزعل. وأمام إصرار السيد روحي وبأنه هو الذي أوصى على الطعام. نادى على (الكرسون) وناوله قطعتين من فئة العشر ليرات، فأعاد (الكرسون) الباقي على طبق. وكان الباقي هو عبارة عن قطعة ورقية من فئة ليرتان ونصف وليرة ونصف قطع معدنية. احتار السيد روحي ماذا يترك (لكرسون) بقشيشاً؟ ليرتين ونصف كثيراً!... ليرة ونصف قليل!... وأخيراً مد يده إلى الطبق وأخذ قطعتين من فئة الخمس وعشرون قرشاً. وترك الباقي للكرسون الذي شكره كثيراً.

وخرج الصديقان من المطعم. ولكن روحي كان متضايقاً جداً وكان يحدث نفسه قائلاً:

«ولك يا حمار لماذا لم تتناول طعام الغداء في بيتك... طيب لم تأكل في البيت. اشتري قطعتين من الكعك. وأسكت بهما جوعك. الرجل كان سيطلب لك طعاماً. لماذا لم تدعه يطلب؟ ولماذا لم تدعه يدفع الحساب... وفوق ذلك أنت تطلب له الطعام... ولا تكتفي بنسبة العشرة بالمائة الذي أخذها الكرسون فتعطيه كل هذا البقشيش الكبير... ولك يا روحي الحمار أنت لا يمكن أن تصبح رجلاً».

كان متضايقاً جداً. وبعد أن افترق عن صديقه. التقى بصديق آخر فبادره هذا الصديق بالسؤال.

ـ إلى أين ذاهب يا سيد روحي؟

ـ والله خرجت من البيت بدون هدف... ولا أعرف لي وجهة...

ـ إذن لنذهب إلى (الأميركان) ونتنازل قدحاً من الشاي.

ـ لنذهب يا عزيزي.

ـ خذنا إلى الأميركان.

نزلوا من (التاكسي) الذي وقف أمام أحد المقاهي فأخرج كل منهم محفظة نقوده.

ـ لا لا . لا يمكن... والله لا يمكن.

ـ غير ممكن مستحيل... دعني أنا سادفع

ـ والله إذا دفعت فلن ترى وجهي أبداً.

ـ طيب ادفع أنت وسأكون عديم الأخلاق إذا تكلمت معك ثانية...

ولأن السيد روحي قد زاد في إصراره، وقع عليه دفع أجرة التاكسي فسأل السائق:

ـ كم المطلوب؟ فرد السائق.

ـ ما ترونه مناسباً.

واحتار ماذا يدفع فرأى أن من الأنسب أن يأخذ السائق ما يريده فناوله قطعة من فئة الخمسين ليرة. فأعاد له السائق مبلغ سبعة عشرة ليرة ونصف. فناول السيد روحي السائق خمسة ليرات كبقشيش.

دخلا المقهى وطلبا إبريقاً من الشاي ولكن السيد روحي كان يحدث نفسه قائلاً:

«ولك روحي... ولك روحي يا حمار... أنت لا يمكن أن تصبح رجلاً... ما شأنك أنت بـ (الأميركان)؟ ألم يكون من الأفضل أن تبقى في بيتك... طيب جئت (للأميركان) دع رفيقك يدفع أجرة التاكسي... طيب دفعت أنت ولك لماذا تترك السائق يغشك... ولك يا بهيم ألا تعرف أن السائق قد نصب عليك عندما لطش منك مبلغ سبعة وثلاثون ليرة ونصف. لماذا تعطيه خمسة ليرات أخرى؟ ولك يا روحي الحمار أنت لا يمكن أن تصبح رجلاً»

لقد تضايق جداً، وأحس بالشاي الذي شربه كأنه سم زعاف. وفي المساء عندما قاما لمغادرة المكان أخرج كل منهما محفظة نقوده.

ـ دع عنك أنت...

ـ لا لا... أنت دع عنك.

ـ إذا بتحب الله... دع عنك أنت.

ـ أبوس رجلك دعني أدفع.

ـ ليجعلني الله عبداً لك وأسيراً لك. دعني أدفع.

ولأن روحي زاد في إصراره وقع عليه دفع قيمة الشاي أيضاً وسأل الكرسون.

ـ كم الحساب يا بني؟

ـ سبع ليرات ونصف...

ـ وناوله عشر ليرات قائلاً.

ـ الباقي لك...

خرجوا من المقهى ولكن السيد روحي كان يحدث نفسه قائلاً.

«ولك يا روحي الحمار. ولك يا حيوان... دفعت سبع ليرات ونصف من أجل أن تشرب الشاي. أما كان من الأفضل أن تشرب هذا الزقوم في بيتك. حسناً شربت دع رفيقك يدفع الحساب... طيب دفعت الحساب. لمادا لم تأخذ الباقي؟... لك يا روحي الحمار، الكلاب يمكن أن تصبح رجالاً. أما أنت فلا يمكن».

ركبوا في التاكسي ومرة أخرى بدأ النقاش، أنت ستدفع للسائق، لا أنا سأدفع وتحت إصرار السيد روحي دفع أجرة التاكسي في العودة أيضاً وبعدها بدأ يحدث نفسه «ولك يا روحي الحمار».

افترق عن صديقه وهو متضايق جداً وفيما هو يسير باتجاه (غلطه

سراى) صادف صديقاً آخر. في الحقيقة لم يكن صديقاً لأنه لم يكن يتذكر اسمه. وهو ليس أكثر من معرفة. تبادلا السلام عدة مرات.

ـ أو أو... مرحباً...

ـ إلى أين ذاهب؟

ـ ليس لدي وجهة معينة.

ـ إذن تفضل لنتناول قدحين من البيرة.

ودخلا إلى الحانة وطلبا قدحين... أربعة... ستة.

ـ ناولنا يا بني قدحين آخرين وأضف لهم قليلاً من الفودكا وأحضر لنا سلطة النحاعات. وبعض الأكل الساخن وبعض السمك ولا تنسى المقبلات.

كان الحساب مائة وستون ليرة...

ـ إذا بتحب الله... دعني ادفع الحساب.

ـ والله لا يمكن...

ـ لا. لا أنت ضيفي.

ـ هل من المعقول يا عزيزي. أنا الذي عزمتك...

ـ يا أخي دعني أدفع هي مرة كل أربعون عاماً...

ودفع روحي مرة ثانية الحساب. بعد أن ناول الكرسون قطعة من فئة المائة ليرة وقطعتين من فئة الخمسين وقال للكرسون.

ـ دع الباقي من أجلك.

خرجا من الحانة حوالي منتصف الليل والسيد روحي يحدث نفسه قائلاً: «حمار. يا حمار ولك متى ستصبح رجلاً. ألم يكن من الأفضل أن تبقى في بيتك وتتناول الزقوم... طيب غلطت... دع الرجل يدفع

الحساب ولك يا روحي الحمار لا يوجد أحد في الدنيا يدفع مثل هذا المبلغ الكبير كبقشيش لكرسون».

وهكذا فارق صديقه وهو غاضب. استقل حافلة للذهاب إلى بيته ولكنه كان لا ينفك يحدث نفسه «ولك يا روحي الحمار... ولك روحي الحمار».

لقد أكل خازوقاً كبيراً هذا اليوم وهو مهما اقتصد في مصروفه فإنه لا يستطيع أن ينسى ألم هذا الخازوق بأقل من سنة. جاء قاطع التذاكر وبدأ يصيح.

ـ تذاكر ... تذاكر... لا تبقوا بدون تذاكر.

ناول روحي السائق قطعة معدنية من فئة الليرة... ويمكن أنها من فئة الخمسة والعشرون قرشاً. الحقيقة لم يكن يعرف السيد روحي ماذا أعطى لقاطع التذاكر بالضبط ولما دنت الحافلة من الموقف الذي سينزل فيه السيد روحي. قال لقاطع التذاكر

ـ أعطني باقي المبلغ.

ـ أي باقي؟ وأي مبلغ؟

ـ ما هو ألم أعطيك الآن قطعة من فئة الليرتين ونصف؟

ـ لا لا أبداً لقد أعطيتني ليرة واحدة فقط.

ـ انظر في عيني... ولك ألم تجد غيري تنصب عليه.

ـ سيدي رجاءً... أنت لم تدفع لي ليرتين ونصف.

ـ انظروا إلى هذا الرجل أيها الناس.

ـ سيدي والله...

ولم يتكلم الجابي كثيراً، ولكن روحي مد يده إلى جيبه وأخرج سكيناً صغيراً وبدون أن يبدو عليه أي اضطراب وكأنه كان يريد أن يبري قلم

رصاص. حتى أن أحداً من الركاب لم يكن يفهم ماذا يريد أن يفعل. ولكن السيد روحي بمجرد أن فتح السكين هجم على قاطع التذاكر وطعنه في فخذه.

هذه حكاية السيد روحي. الشخص الذي ارتكب جناية من أجل ليرة واحدة ونشر اسمه وصوره في الصحف.

* * *

الرجل المبروك

يا حسين آغا هذه أمور لا يمكن التأكد منها. ضربته ولم يصبح رجلاً شتمته أيضاً لم يصبح رجلاً. أرسل هذا (العكروت) إلى الجيش، وإذا رأيت أن الجيش لم يصنع منه رجلاً. زوِّج هذا (الكلب) وإذا لم يصبح رجلاً بعد زواجه إرفسه على قفاه واطرده من القرية... هذا هو الحل الأخير. فإذا (إنقلع) من قريته إلى قرية ثانية فإنه سيصبح رجلاً بالتأكيد. ألم يقل أباؤنا «لا كرامة لنبي في أرضه». وهذا صحيح فهل سمعت أن أحداً صار نبياً في قريته. حتى أن قبيلة نوح عليه السلام لم تعترف به كنبي وقالوا له لا نخاطبك بلقب نبي بل نخاطبك باسمك فقط (نوح). رغم أنه كان نبياً من أعظم الأنبياء.

لا يمكن يا حسين آغا. هذا لا ينفع معه الكلام. يجب أن تضربه بالعصا أولاً وإذا رأيت أن العصا لم تنفع معه. افعل كما قلت لك أرسل هذا (العكروت) إلى الجيش وهناك بعد أن يضربه العريف كم كف يصبح كـ (القملة المفروكة) وإذا وجدت أن الكفوف لم تنفع معه أيضاً زوِّج هذا (الواطي) لأن أحداً لا يستطيع كالمرأة من إصلاح أخلاق الرجل العاطلة. وإذا رأيت أن الزوجة أيضاً لم تستطع إصلاحه إرفسه على قفاه واطرده من القرية.

كان في قريتنا شخص يدعى مراد الخنزير. لا يوجد على سطح الأرض مثل هذا الإنسان اللعين. يعني إذا قارنت ابنك به. ترى ابنك معسولاً بماء الورد. هذا الرجل منذ أن كان في العاشرة من عمره. كان يسرق أمه وأخته. لقد ضيق علينا القرية رغم وسعها. وكان الجميع ينصحه يا مراد لا

تؤذي أحداً... لا تقم بالعمل الفلاني. ولكنه كان لا يأبه لأحد... كان يضرب أفعالاً للكلاب ويربط ذنب القطط بعلب الصفيح الفارغة. وكان يصب الماء في مداخن القرية. كان يقوم بأعمال لا تخطر على بال شيطان.

في أحد الأيام ذهبنا إلى صلاة الجمعة. كان جميع سكان القرية في الجامع ولم يكن الإمام قد حضر بَعدْ. وبعد برهة جاء الإمام. كان كل من ينظر في وجه الإمام لا يتمالك نفسه من الضحك فقد كان وجه الإمام مصبوغاً بألوان متعددة الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق. دخل الإمام المسجد وقال:

ـ السلام عليكم...

لم يجبه أحد بكلمة وعليكم السلام لأن الجميع كان يغرق في الضحك.

كان الإمام يضطجع تحت شجرة البلوط قرب النبع وقد أخذته غفوة ففاجأه مراد الخنزير ووضع هذه الأصبغة الملونة على وجه الشيخ ولما علمنا ذلك هجمنا على مراد وقلنا له لماذا فعلت هكذا بالشيخ قال:

«أردت أن أريكم أن الشيخ يذهب إلى الصلاة بدون وضوء» لأن الشيخ لو كان قد توضأ لكان غسل وجهه وعندئذٍ لا يبقى أي أثر للأصبغة. وهكذا اتضح لنا أن الشيخ قد صلى بنا بدون وضوء. بطحنا مراد أرضاً وأشبعناه ضرباً.

يا حسن آغا مراد الخنزير هذا قصصه لا تنتهي. عندما بلغ الرابعة عشر من العمر كان في القرية أرملة عجوز في حوالي السبعين من عمرها وكان الجميع ينادونها باسم الجدة «فاطمة» هذا الشيطان أغوى هذه المرأة العجوز واصطحبها إلى أحد الجبال وبعد غياب ثلاثة أيام افتقد أهل القرية هذه المرأة وراحوا يفتشون عنها في كل مكان وصعدوا

قمم الجبال وفتشوا في المغارات وحتى حجور الحيوانات. وفجأة شاهدوا مراد الخنزير يصفق والمرأة العجوز ترقص عارية كما ولدتها أمها وزجاجة العرق ملقاة بجانبه.

إنهال عليه الجميع بالضرب وهم يصقون في وجهه ويقولون له يا واطي يا خائن العرض لقد مرغت اسم القرية بالتراب. هذا شيء لم نسمع به من قبل منذ أن وجدت هذه القرية. فأجابهم مراد الخنزير وهو يتمايل ضاحكاً: «إن ما قمت به هو عمل خير. فأنتم جميعكم لم يسأل أحدكم هذه الجدة عن أحوالها فقمت بذلك لأفقأ عين الجميع».

وفيما الجميع ينهال عليه ضرباً انتفضت الجدة فاطمة وأخذت مراد الخنزير على صدرها لتحميه من الضرب وقالت للجميع «من جهتي إنني أسامحه وهو في مقام حفيدي وألف فاطمة فداء لمثل هذا الشاب (الجدع) أيها الصبيان».

وهرب مراد من أيدينا كالكلب السلوكي وقال للجميع وهو ينحدر إلى أسفل الجبل «الجدة فاطمة راضية وأنا راضي ما لكم أنتم أيها القوادين».

آه يا حسين آغا، آه يا أخي، لم ير أحد ولم يسمع بمثل أعماله الخشبية التي لا تنتهي.

في إحدى الليالي لفت القرية ألسنة النار والدخان، وتأكدنا أن مستودع (العلف) العائد للعسكري إسماعيل يحترق كانت ألسنة النار تتصاعد من جميع الأطراف. فكرنا بهذا الأمر وقررنا أن هذا العمل لا يمكن أن يقوم به سوى مراد الخنزير. قبضنا على مراد وسألناه لماذا قمت بهذا العمل قال لنا «انتظروا قليلاً وستعرفون لماذا قمت بهذا العمل». وفجأة علا صوتاً من مستودع التبن يصيح:

ـ النجدة... لقد احترقنا... كان الناس يستفسرون عن هذا الصوت وفجأة لمحوا من خلال نافذة المستودع مختار القرية ومعه زوجة العسكري إسماعيل فسألوه:

ـ ماذا تفعل أيها المختار في مستودع علف لامرأة زوجها غائب؟

ـ لا تسألوا يا ناس ففيما كنت أحاول إنقاذ هذه المرأة اشتعلت النار بنا كانت المسافة بين النافذة والأرض بارتفاع حمار تقريباً فقلنا للمختار.

ـ الق بنفسك أيها المختار.

ـ لا أستطيع فأنا عاري. فليأتيني أحدكم بـ (شروالي) من البيت... أخ يا مختار. هل يذهب أحداً لإطفاء النار وهو عاري؟... أكيد لقد كان المختار عارياً في فراشه عندما شاهد الحريق فسارع كما هو لإطفائه؟

المرأة كانت تصيح من الداخل أيضاً.

ـ أمان أيها الجيران. إننا نحترق احضروا لي ملاءة أو أي شيء أستر به نفسي.

الظاهر أن زوجة إسماعيل أيضاً قد ركضت لإطفاء الحريق بدون (سروال) أيضاً.

صاح مراد الخنزير قائلاً:

ـ أيها الأهالي إما أن تعطوا هؤلاء ملاءة وسروال أو سأحرق منازلكم وأجعل عاليها سافلها.

مراد هذا إذا قال فعل. ألم يجلب البلاء على القربة . عندما داهم المختار وزوجة إسماعيل في مستودع العلف وهم عراة وخطف ملابسهم وهرب بعد أن أشعل النار في المستودع.

ما العمل؟ فالمختار بدا مهموماً جداً فهو لا يستطيع الخروج عارياً. والمرأة أيضاً كادت أن تجن فجميع بنات ونساء القرية كانوا متجمعين. وفجأة بدأت مشاجرة بين المختار وزوجة إسماعيل، إثر عثورهم في المستودع على بردعة حمار وخَرْج. وكان كل منهما يريد أن يستر نفسه بالبردعة والخرْج عندها صاحت المرأة في وجه المختار قائلة:

ـ أنت رجل ماذا يهمك اصعد هكذا إلى النافذة وألق بنفسك ماذا تنتظر فأجابها المختار.

ـ ولك بنت (القحبه) هل يليق بمختار القرية أن يشاهده الناس عارياً! ناوليني هذه البردعة. وفيما هم يتجادلون جدلت المرأة شعرها الطويل الذي يصل إلى قدميها وصاحت:

ـ أيها المسلمون... أيها الرجال... كفوا نظركم... لا تنظروا إلى (محارمي) فهذا ذنب عظيم... ثم ألقت بنفسها من النافذة. بعد أن سترت مؤخرتها بإحدى يديها ووضعت اليد الأخرى من الأمام. وولت هاربة إلى بيتها.

وقفز بعدها المختار وهو يلف بردعة الحمار حول خصره (كمنشفة الحمام) أما الخرْج فقد وضعه على ظهره وولى هارباً إلى بيته أيضاً.

كان الجميع يغرق في الضحك وقد نسي الناس الحريق.

يا أخي حسين آغا، مراد الخنزير هذا الرجل مهما رويت عنه من قصص لا تكفي لفهم أعماله السيئة. لقد نفر منه جميع سكان القرية ولم يستطيعوا أن يتفاهموا معه بأي شكل من الأشكال. فقرروا إرساله إلى الجيش رغماً عنه. فأرسلوا له طلب التحاق بالجندية وقام شاهدين بتزوير سند وذهب إلى الجيش.

تنفست القرية الصعداء بذهابه. أنت تعلم صفعات العريف التي

ستجعل منه رجلاً لا محالة. بعد ستة أشهر أصبح عريفاً ومعنى ذلك أنه تخلص من صفعات رئيسه العريف عندما كان جندياً. ولم تمض سنة حتى أصبح رقيباً. كانت القرية مضطربة لسماع هذه الأنباء لأن الخدمة لو طالت لمدة خمسة أو عشر سنوات. من يعلم فقد يصبح مراد هذا نقيباً أو رائداً. حقاً إن من فكر بأن تكون مدة الخدمة سنتين كان يعتقد أنه يمكن أن يتطوع في الجيش أشخاص من نوعية مراد.

مضى عامان وعاد مراد من الجيش وهو يتيه عجباً بنفسه. يا أخي أنت تعلم أن القرية لم تكن تستطيع أن تتفاهم معه عندما كان يدعى مراد الخنزير فما بالك الآن بعد أن أصبح رقيباً. لقد عاد أسوأ مما كان من قبل بكثير.

فاجتمع سكان القرية ليجدوا حلاً لمشكلة مراد هذا، فقرروا أن تزويجه هو أفضل حل لهذه المشكلة. فالمرأة تستطيع إصلاحه وتستطيع أن (تفرك) أذنه فعرضوا عليه هذا الأمر. فأجابهم قائلاً أنا اليوم لست كالأمس! أنا النقيب مراد أستطيع أن أتزوج الفتاة التي أرغبها حتى بدون أن أدفع أي (مهر). كان يرغب في الزواج من ابنة شاكر آغا. شاكر آغا كان رجلاً طيباً وله ابنة وحيدة جميلة كالورد فاجتمع سكان القرية وتوجهوا بالرجاء إلى السيد شاكر آغا قائلين له:

ـ نرجوك يا شاكر آغا. نأمل أن تتعاون عسى أن نجد حلاً... لمشكلة هذا المجنون. وإلا فإننا سندع بيوتنا ونهجر هذه القرية. فقد ضيق مراد هذا علينا عيشنا ونحن مستعدون أن نجمع مبلغاً من المال ونعطيك إياه (كمهر) للزواج.

زوجنا مراد الخنزير وبدلاً من أن يصبح رجلاً عاقلاً: زاد في

الطنبور نغماً. جميع سكان القرية كانوا يذهبون إلى عملهم. أما هو فكان لا يغادر القرية وكان يمضي وقته في شرب الخمر ثم يعربد قائلاً:

ـ أيها المنحطون سآخذ منكم جميع خراج القرية. فأنتم مجبورون أن تدفعوا كل شيء لإعالتي أنا.

كنا نقول له. طيب اسكت كف عن الصياح سندفع كل ما تحتاجه ولكنه لم يكن ليسمع ما نقوله له بل كان يستمر في الشرب والتهجم علينا. وفي إحدى الأمسيات اجتمعنا في مقهى القرية وكان مراد الخنزير حاضراً فقلنا له:

ـ يا ولدنا مراد... يا حضرة الرقيب. تكلم ما هي طلباتك؟

ـ تصور لقد قال اجعلوني مختاراً للقرية.

سيصبح اسم هذه القرية في الوحل فيما إذا أصبح هذا الكلب مختاراً لها. وعندما لم يوافق أحد على هذا الطلب قال بانزعاج:

ـ ما دمتم لم ترغبوا في أن أكون مختاراً. إذن اجعلوني إماماً.

هل من الممكن أن يقف أحداً للصلاة خلف هذا الافاك؟ لقد جن جنون مراد وأصبح يخطف النساء ويأخذهم للجبال ويهجم على البيوت ليسرقها ويحرق المحاصيل حتى ضج جميع سكان القرية وكان يقول لنا.

ـ لا خلاص لكم إذا لم اصبح إماماً. وإلا فسأقضي عليكم قضاء مبرماً.

قررنا أن نقضي عليه قبل أن يقضي هو علينا. فداهمنا منزله وهو نائم وكتفناه بالحبال وأخذناه إلى الجبل. وبدأ الجميع ينهال عليه ضرباً بالعصا تماماً. كفعل الحلاّج بالقطن كانوا يقولون له وهم يضربونه:

ـ خذ هذه للمختارية.

وبعضهم يقول:

ـ خذ هذه للأمامية.

هذا الكلب بسبعة أرواح تصور أنه انتفض من هذه (العلقة) الساخنة وهو يتحدانا قائلاً:

ـ سترون أيها القوادون الكبار كيف سأصبح إماماً. وذهب وهو يترنح في مشيته. فقلنا له إياك أن تعود إلى القرية ثانية وبعدها فلتصبح ليس إماماً فقط بل شيخ الإسلام.

وهكذا تنفست القرية الصعداء بعد أن تخلصت من هذا البلاء. مضى على هذا الحادث زمناً طويلاً حتى نسيت القرية اسم مراد الخنزير. حل شهر رمضان المبارك واتفقنا مع أحد المشايخ لإحياء شهر رمضان المبارك. كان هذا الشيخ الجليل رجلاً مباركاً. وكان شيخنا ضليعاً في العلوم بالإضافة إلى أن له كرامة في كل كلمة يقولها. انتهى شهر رمضان فقلنا لهذا الشيخ.

ـ لا تتركنا أيها الشيخ الجليل ونحن ندفع لك ما تشاء.

لم يتركنا الشيخ وبقي في القرية. وفي أحد الأيام جاءنا ضيف من إحدى القرى المجاورة. وعند الظهر سمعنا صوت ضجيج ينبعث من الجامع. هرعنا جميعنا إلى الجامع فشاهدنا الضيف وقد بطح شيخنا أرضاً وبدأ ينهال عليه ضرباً وركلاً برجليه وبعد أن خلصنا الشيخ بصعوبة بطحنا هذا الضيف أرضاً... وقلنا له.

ـ كيف تجرأت على أن ترفع يدك على مثل هذا الشيخ المبارك.

فصاح الرجل في وجوهنا قائلاً:

ـ من أين له البركة. هذا رأس البلاء في قريتنا. لقد أطلق إلى لحيته

العتاق وأصبح إماماً. لقد غشكم. هذا النزل أخذ زوجتي إلى الجبل دعوني أشرب من دم هذا القليل الشرف.

ودعنا الرجل بشكل جيد وعدنا إلى شيخنا ونحن ننهال قبلاً على يديه ورجله طالبين منه السماح.

وفي أحد الأيام جاءنا ضيف آخر من تلك القرية وما أن شاهد شيخنا حتى هجم عليه بعصاه الغليظة. فخلصنا الشيخ بصعوبة من هذا الضيف ولكن الرجل كان يصيح بصوت عال:

ـ دعوني أقطع هذا القليل الشرف. لقد سرق مواشينا وباعها. جلب سوء الحظ لقريتنا. لقد ترك لحيته وغشكم على أساس أنه شيخ.

«يخلق من الشبه أربعين» يمكن أن يكون هناك تشابه كبير بين هذا الشيخ والشخص الذي يتحدثون عنه.

كان كل من يزور قريتنا من تلك القرية. كان الدم يغلي في رأسه بمجرد أن يرى الشيخ فيهجم عليه وينهال عليه ضرباً. وكنا نخبأ هذا الشيخ كلما لمحنا أحداً من سكان تلك القرية لأنهم كانوا يريدون قتل هذا الرجل المبارك. أرأيت يا حسين آغا ماذا يمكن أن يحدث لإنسان طيب عندما يشبه إنساناً سيئاً.

وفي أحد الأيام صحونا على صوت ضجيج فرأينا جماعة من سكان تلك القرية وهم يمتطون خيولهم وكانوا يصيحون بأعلى صوتهم.

ـ سلمونا (ماميد) الوحش وإلا فأننا سنخرب القرية.

ـ من هو ماميد الوحش.

ـ ذلك الواطي الذي تتعاملون معه على أساس إنه شيخ.

ـ حسناً، انتظروا لنتكلم بهدوء.

طوقوا القرية وأصروا على أخذ الشيخ. وانتخبوا عنهم مندوباً ليتفاوض

مع رجالات القرية وتم الاجتماع في المقهى طبعاً. قلنا لهم:

ـ أيها الأصدقاء بإمكانكم أن تخربوا أو تحرقوا هذه القرية. ولكننا لا يمكن أن نسلم الشيخ ونحن على قيد الحياة. أنتم تشبهون هذا الرجل المبروك للشخص الذي تقولون عنه (ماميد) الوحش. إن الله يخلق من الشبه أربعين. نحن لا يمكن أن نسلمكم هذا الشيخ أبداً، لأن الله سيصيبنا بالبلاء الأعظم. ولأنه لا يوجد على وجه هذه الأرض مثل هذا الرجل المبارك. والأرض وما عليها من يابسة وماء باقية بحرمة هؤلاء الأشخاص.

عندئذ انبرى أحدهم قائلاً:

ـ أنتم لا تعرفون كيف يكون الرجل المبارك. إن الرجل المبارك يجب أن يكون مثل إمام قريتنا الشيخ مراد. ينطق بالحكمة في كل حكمة يقولها. لحيته حتى بطنه لا يدخل مكاناً بدون وضوء. ولا يخطو خطوة واحدة بدون أن يسمي بالله. هكذا يجب أن يكون الشيخ. الشيخ مثل شيخنا مراد.

ـ لحظة من فضلك هل قلت مراد؟ أيمكن أن يكون مراد هذا هو نفس مراد قريتنا. هل عيونه زرقاء.

ـ نعم.

ـ أمان. هل إصبعه الصغير الذي في يده اليسرى مقطوع.

ـ نعم.

ـ هل يوجد على رأس أنفه شامة.

ـ نعم.

عندئذ علت أصوات جماعتنا قائلين.

ـ لنذهب ونهجم على هذا الرذيل. لنذهق روح هذا الكلب. هذا

المنحط الذي ذهب إلى القرية المجاورة وأصبح إماماً.

هذه المرة بادر ممثلوا القرية المجاورة بالدفاع عن شيخهم قائلين.

ـ قد يكون هناك تشابه بين إنسان وآخر أو أن هناك خطأ ما فالشيخ مراد هو رجل مبارك بحق وحقيقة.

ـ لا نحن نعرفه جيداً هذا هو مراد الخنزير.

كاد سكان القريتين أن يشتبكوا مع بعض... فتدخل شاكر آغا وقال.

ـ تريثوا قليلاً. فالموضوع أصبح واضحاً. ابن قريتنا مراد الخنزير أطلق لحيته وأصبح إماماً في القرية المجاورة. وماميد الحش ابن قريتهم أطال لحيته أيضاً وأتى إلى قريتنا وأصبح إماماً. أنا لا أجد سبباً لأن يكون بيننا أي خلاف. فهم مرتاحون لمراد الخنزير ونحن مرتاحون لماميد الوحش.

كما أننا لا ندري بعد ذلك أي نوع من الرجال المباركين سيأتي إلينا. لذا فأنني أقترح بأن نتصالح ونتجاهل هذا الموضوع تماماً. وليبق هذا المبارك عندنا وذلك المبارك عندكم.

تفاهمنا مع الرجال وقدمنا لهم القوة والشاي وودعناهم وداعاً لائقاً.

كانوا وهم يغادرون المكان يضربون كفاً بكف وهم يقول:

ـ اللعنة... نحن لم نكن نعرف قيمة ماميد أبداً.

نحن أيضاً كنا نلطم على وجوهنا ونقول أيمكن أن تتخلى القرية عن رجل مبروك مثل مراد... اللعنة فإننا لم نعرف قيمة الرجل.

ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن فهم يضعون الشيخ مراد على رؤوسهم ونحن نحمل شيخنا على الراحات.

هذه هي الحكاية يا حسين آغا. كن مطمئن البال ولا تغضب لأن ابنك لم يصبح رجلاً كما تريد. فمهما كان الأمر لا يمكن أن يكون

مثل مراد الخنزير. اضربه بالعصا أولاً، وإذا لم تنفع معه العصا أرسله إلى الجيش وإذا لم ينفع معه الجيش زوجه، وإذا لم يصبح رجلاً بعد زواجه اضربه على قفاه واطرده من القرية وهو بدوره سيذهب إلى قرية أخرى وهناك سيصبح رجلاً مباركاً وسوف يضعونه على رؤوسهم.

* * *

الحذاء الضيق

عندما تذهبون إلى طلب يد فتاة انتعلوا حذاءً ضيقاً. خاصة في أول لقاء لكم مع حماة وعم المستقبل. يجب أن يكون حذاءكم أصغر مما تلبسون عادة بنمرة أو نمرتين على الأقل.

هذا موضوع مجرب. فإذا لبستم حذاءً ضيقاً فإن عليكم الزواج من الفتاة التي ترغبونها. وحتى وإن لم ترغب الفتاة. فإن أباها وأمها سيرغمونها على الزواج منكم.

هذه الحقيقة تعلمتها منذ سنين طويلة عندما وقع «سرمد» في حب فتاة وأصبحت شغله الشاغل وكان جميع الأصدقاء متعاطفين مع سرمد فسألوه ذات مرة:

ـ هل تبادلك الفتاة الحب.

ـ قال بكل تأكيد.

ـ تزوجها إذن.

كيف أتزوج يا أخي وأنا أعيش لوحدي في استانبول وليس لي أحد هنا وأنتم تعلمون أن أمي وأبي يعيشان في (أرض روم) فمن سيذهب معي ويطلب لي يد الفتاة من أمها.

ـ يا أخي لقد مضى ذلك الزمان. اذهب لوحدك إلى والد الفتاة وقل له إنني تفاهمت مع ابنتك وأرجو أن تمنحني مساعدتك الغالية لكي نتمكن من الزواج.

ـ أنت تعرفني جيداً فأنا لا أستطيع أن أتكلم كلمتين على بعض. فإذا كان والد الفتاة يرغب في تزويجي من ابنته فسيعدل عن الموضوع عند

سماعه لحديثي.

أما لو كنت مثلك محدثاً لبقاً وأملك حديثاً حلواً لذهبت وطلبت يد الفتاة فوراً.

كان سرمد يتحرق من الشوق فجاءني في أحد الأيام وقال لي:

ـ أرجوك... من أجل خاطري... اذهب معي إلى بيت الفتاة واطلب لي يدها من أبيها.

ـ كيف؟ لا يمكن يا سرمد. هل جننت؟ سيطردنا والدها وينهال علينا ضرباً بالعصا إذا رآني معك.

كان عمرنا في ذلك الوقت حوالي الثانية أو الثالثة والعشرون من العمر.

كان سرمد يتوسل ويتوسل ويتوسل قائلاً:

ـ أنت تستطيع إضحاك الرجل بحكاياتك المسلية. وهو عندما يضحك فإنه سيوافق حتماً. لذلك يجب أن لا تتوقف عن سرد القصص والحكايات المسلية حتى نتمكن من إقناع الرجل.

كان آخر كلام للفتاة مع سرمد هو «إما أن تأتي وتطلبني من أبي أو تكف عن ملاحقتي للأبد».

حاولت تهدئة سرمد فقلت له:

ـ يا أخي أنت لم تؤد الخدمة الإلزامية بعد. وليس لك عمل منتظم حتى الآن. وسوف تعمل كمراسل للجريدة ولن يزيد راتبك عن ستين ليرة. فكيف ستصرف على البيت؟.

فأجاب سرمد:

ـ لهذا السبب أرغب في الزواج فوالد الفتاة رجل غني وأنا لا يمكن أن أصبح رجلاً بغير هذه الطريقة. أرجوك دعنا نذهب فوالد الفتاة ووالدتها في البيت هذا اليوم.

ـ لا أستطيع يا عزيزي سرمد.

ـ يا أخي من أجل الصداقة. ستنقذ حياتي. وكاد أن يبكي. وافقت على الذهاب ولكنني كنت أنتعل حذاءً فمه مفتوح كالتمساح. فهل يمكن أن أذهب لطلب يد فتاة وأنا انتعل مثل هذا الحذاء؟ ما العمل فأنا لا أملك نقوداً لشراء حذاءً جديد. كان رئيسنا في الجريدة بخيلاً جداً . فذهبت إليه وطلبت سلفة. فأجابني:

ـ ها... الآن تذكرت هل سددت سلفة العشر ليرات التي بذمتك؟

كان السيد بركات المدير الإداري رجلاً طيباً فقد أعطاني خمسة عشر ليرة على أن يقتطعها من راتبي. ذهبنا فوراً إلى السوق الذي تباع فيه أرخص الأحذية.

كانت الأسعار أربعة عشر ليرة وسبعين قرشاً للقياسات الصغيرة حتى قياس سبعة وثلاثين لأنها كانت تعتبر قياسات أطفال. أما القياسات الأكبر من ذلك فكانت تباع بزيادة عشر ليرات. كان مقاس رجلي هو ثمانية وثلاثون.

هذا أكبر ظُلم في الدنيا هل يمكن أن يُدْفع مبلغ عشر ليرات من أجل نمرة واحدة. وهل يمكن أن يكون سعر الحذاء مقاس ثمانية وثلاثون بسعر الحذاء مقاس ستة وأربعون. حاولنا شرح هذا الموضوع للبائع ولكننا لم نتمكن من إقناعه فصعدنا إلى صاحب المحل فأجابنا وهو يتظاهر بأنه فهم المقصود.

ـ لا يمكن عمل أي شيء حيال هذا الموضوع.

ـ لم أعد أستطيع الاحتمال فصحت قائلاً:

ـ فليسقط جميع أنواع الظلم الذي يعم هذا العالم. وبدأت بإلقاء خطبة قاسية فقالوا لنا:

ـ انتبهوا يمكن أن يكتب أحدهم بحقكم تقريراً سرياً.

المهم أضفت الدراهم التي أملكها على الدراهم التي مع سرمد فلم

تكف لشراء حذاء قياس ثمانية وثلاثون. فقال سرمد.

ـ اشتري حذاء قياس سبعة وثلاثون.

ـ لا تدخل في رجلي.

ـ ادخلها من أجل خاطري.

ـ يا أخي هل تسمع الرجل للخاطر؟.

ما العمل؟... من أجل خاطر صديقي. اشتريت حذاء قياس سبعة وثلاثون وأظهرت رغبة صادقة في لبس الحذاء. والحقيقة أن العاملين اللذين كانا يعملان في المحل بالإضافة إلى سرمد الذي كان العرق يتصبب من أنفه. حاولوا كثيراً حتى تمكنوا من إدخال الحذاء في رجلي وبعد أن ربطوا الحذاء قالوا لي.

ـ هيا انهض على قدميك.

كنت جالساً على الأرض فجاء العاملان وأوقفاني فصحت وأنا أكاد أجن.

ـ أما ا ا ا ن...

ودعوت الله أن لا يحد من حُرية رِجْل أحد. وللحقيقة أقول إن حرية الرِجْلْ أهم من حرية التعبير وحرية الصحافة وحتى حرية الضمير. قال لي العمال.

ـ لا تقلق سيرتخي الحذاء بعد قليل من المشي.

هل من الممكن أن أمشي فأنا لا أستطيع حراكاً! خرجنا إلى الشارع وقد أحسست أن شرايين دماغي تكاد تنفجر وكان العرق يتصبب من خاصرتي حتى قدماي فسألني سرمد.

ـ هل حضَّرت الطرائف والنكات التي سترويها لوالد الفتاة.

ركبنا إحدى الحافلات فقلت لسرمد.

ـ أمان اخلع هذا الحذاء من رجلي فأجابني

ـ لا تخلعه فإنه سيتوسع من تلقاء نفسه بعد قليل.

لا أظن أن هذا الحذاء يمكن أن يتوسع فقد كان يضغط على قدماي كثيراً فصحت بأعلى صوتي.

ـ اخلعه... فالتفت إلي جميع من في الحافلة فصحت ثانية.

ـ اخلع هذا الحذاء من رجلي وسأنتعله ثانية عندما أنزل من الحافلة.

تألم جميع الركاب وقاطع التذاكر وسائق الحافلة لحالتي وحاول الجميع مساعدتي على خلع هذا الحذاء ولكن عبثاً. عندئذ اقترح أحد الركاب.

ـ لنقص هذا الحذاء فيرتاح الرجل.

ـ قلت هذا لا يمكن.

كنت أحدث نفسي قائلاً بالكاد استطعت دفع قيمته البالغة أربعة عشر ليرة وسبعين قرشاً وكان يداخلني أمل بأنه يمكن أن يتوسع وألبسه بارتياح.

كنت أتألم كثيراً ولا أدري كيف سرت بهذا الحذاء بعد أن نزلت من الحافلة.

كان سرمد لا يكف عن تذكيري.

ـ هل حفظت طرائف جديدة؟ أمان حاول أن تضحك الرجل وبمجرد أن يضحك سيوافق على تزويج الفتاة. أمان لا تنسى حكايات جحا ولا تنسى أن تتفاخر وأنت تروي حكاياتك.

وصلنا إلى بيت العروس وبمجرد أن دخلنا البيت رميت نفسي على أقرب مقعد ووضعت يداي على وجهي فتكلم والد الفتاة سائلاً:

ـ هل أستطيع معرفة سبب زيارتكم أيها السادة.

لم أنبس ببنت شفة. وكان سرمد يحدق بي وهو يكاد يبكي. كنت أتعرق عرق الموت وكان وجهي كالشوندر الأحمر. وكنت أشعر وكأنني أتقلب على فراش من الحجر.

فكر سرمد بالأمر ورأى أن لا أمل يمكن أن يرتجي مني فأخذ زمام المبادرة وبدأ بالحديث وكأنه بلبل كان لا يكف عن الكلام أبداً. أما أنا فقد كنت أتصبب عرقاً من كل أطرافي فالتفتت إلي والدة الفتاة وسألتني قائلة:

ـ وأنت لماذا لا تتكلم أبداً.

أجابها سرمد:

ـ إنه خجول جداً يا سيدتي.

في هذه الأثناء جاءت الفتاة التي يحبها سرمد وهي تحمل صينية القهوة. انظر إلى هذه الفتاة واهرب إلى آخر الدنيا. الله يخرب بيتك يا سرمد أمن أجل هذه الفتاة يمكن أن يتحمل إنسان ما تحملته أنا.

ضحك والد العروس ووالدتها كثيراً من النوادر والطرف التي رواها لهم سرمد أما أنا فقد كانت سحنتي مقلوبة والشرر كاد يتطاير من عيني.

وأخيراً طلب سرمد يد الفتاة فأجابه والدها.

ـ سنفكر بالموضوع.

وأضافت الأم قائلة

ـ على خير إن شاء الله! إذا كان هناك قسمة.

بعد ذلك سألوني

ـ هل أنت عازب؟

هززت رأسي وقلت:

ـ نعم.

كانت نعم هي الكلمة الوحيدة التي نطقت بها هناك وعندما خرجنا من البيت عاتبني سرمد قائلاً:

ـ وأسفاه أنت لا يمكن أن تكون صديقاً أبداً وتركني وذهب.

بقيت لوحدي وسط الطريق. جلست على الرصيف وحاولت خلع الحذاء وفضلت المشي حافياً. ولكن عبثاً حاولت كان الحذاء قد التصق في رجلي وأصبح جزءاً من جسمي لا أعرف كيف وصلت إلى إدارة الجريدة فألقيت بنفسي على أقرب مقعد وصرخت بأعلى صوتي.

ـ النجدة أيها الأصدقاء.

حاولوا كثيراً فلم يستطيعوا خلعه فصرخت:

البعض جاء بسكين والآخر بمقص والآخر بمشرط فعَلقَّ أحد الأصدقاء قائلاً:

ـ الأمر يحتاج إلى عملية جراحية.

تستطيعون أن تتصوروا كيف التصق الحذاء بقدماي فرغم أنهم قصوه إلا أنهم لم يتمكنوا من إخراجه حتى فرموه إلى قطع صغيرة. وأخيراً نالت قدماي حريتها.

مكثت في بيتي ثلاثة أيام دون حراك. ولكن أصل الحكاية هو ما جرى لي فيما بعد كنت حتى هذا الوقت ألبس حذاء قياس ثمانية وثلاثون ولكن بعد هذه الحادثة أصبحت ألبس قياس أربعين وبصعوبة بالغة. والسبب أن قدماي قد توسعت بعد أن نالت حريتها بعد الضغط الذي كابدته. نحن بني البشر ألسنا كذلك؟.

فنحن لا يسعنا الباب الذي كنا ندخل فيه بعد أن نتخلص من الضغط الذي كان يمارس علينا.

بعد هذا الحادث بأربعة أيام جاءني والد الفتاة التي أراد أن يخطبها سرمد وبعد حديث متشعب قال لي:

ـ لقد قررنا أنا وزوجتي أن نزوجك ابنتنا.

قلت بدهشة:

ـ لماذا؟... لم أفهم.

أجابني الرجل:

ـ لأننا أحببناك كثيراً. وبحق لم نر في حياتنا شاباً مهذباً وخجولاً مثلك فقد كان العرق يتصبب من وجهك كحبات اللؤلؤ. وكان وجهك أحمراً كالشوندر من كثرة الخجل. ولم تنطق بأي كلمة ولم تكن تلتفت أبداً. نحن لا يمكن أن نجد في هذا الزمان صهراً مثلك فأنت تضفي مزيداً من الشرف للعائلة التي ستناسبها. فسألتهم:

ـ ولكن ما مصير صديقي من هذا الموضوع.

ـ دع عنك صديقك هذا أرجوك. إنه رجل ثرثار. وشاب مائع ولا يستحي أبداً، وأنا ليس لدي بنت أزوجه إياها. فأجبته:

ـ أنا لا أفكر بالزواج يا سيدي.

ـ فكر وسأعود لزيارتك ثانية.

كان الرجل يأتي إلي كل يومين أو ثلاثة وكان لا يكف عن مديحي أبداً.

لم أعد أحتمل وفي أحد الأيام رميت أمامه قطع الحذاء قياس سبعة وثلاثون الذي كنت ألبسه. وقلت له.

ـ هذا سبب التربية والأخلاق الحميدة. وهذا هو سبب الحياء خذهم وزوجهم لابنتك.

تذكروا دائماً ولا يغرب عن بالكم أبداً عندما تذهبون إلى بيت رجل لخطبة ابنته لا تنسوا أن تنتعلوا حذاء ضيقاً يكون مقاسه أقل من مقاس رجلكم بنمرة أو نمرتين.

* * *

الشركة المساهمة لجيش الإنقاذ العائلي

قريباً سيتم في أميركا نشر كتاب جديد. وأعتقد أن هذا الكتاب سيترجم إلى عدة لغات وسيكون له أصداء مختلفة في كافة أنحاء العالم. أنا أعرف مؤلف هذا الكتاب فهو أميركي الجنسية وقد سبق وتعرفت عليه عندما زار استانبول قبل أربع سنوات ونشأت بيننا صداقة قوية. وقد قال لي أنه يعد كتاباً مهماً للغاية. ومنذ ذلك الحين ونحن نراسل بعضنا، كان يعطيني معلومات عن كل مرحلة من مراحل هذا الكتاب. وقد انتهى من كتابته منذ شهرين وأرسل لي نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة، يسألني فيها عن رأي فيه باختصار كان رأي كالتالي. هذا الكتاب سيحقق نجاحاً عظيماً وسيحدث ضجة في جميع أنحاء العالم.

هذا الكتاب يتحدث عن منظمة سرية في الولايات المتحدة الأمريكية ويشرح بالوثائق كيف أن هذه المنظمة السرية أصبحت فيما بعد شركة مساهمة. لم يختلق الكاتب أي شيء كانت كل المعلومات الواردة في الكتاب تستند إلى وثائق وأحداث حقيقية. إلا أن الكاتب اضطر إلى تغير الأسماء الحقيقية التي وردت في القصة. لأن هذه الأسماء تطال أكبر الرؤوس السياسية ورجال الأعمال. وقد أمضى الكاتب سنوات عديدة حتى استطاع جمع تلك الوثائق.

هناك جانب آخر يشد القارئ في هذا الكتاب وهو الجانب المالي لهذه المنظمة السرية التي أصبحت فيما بعد شركة مساهمة. كانت أرباح هذه الشركة تفوق أرباح المصارف الأمريكية وشركات البترول والصحافة وحتى شركات السلاح والسيارات. وبالرغم من أن دخلها أعلى من دخل

أية مؤسسة أميركية أخرى إلا أنها كانت لا تدفع ضريبة الدخل.

وسأحاول أن أشرح لكم باختصار موضوع هذا الكتاب.

في كاليفورنيا قام ستة شبان امرأتان وأربعة رجال بإنشاء هذه المنظمة السرية ولم يكن هؤلاء الشبان من المحتالين فقد كان ثلاثة منهم من خريجي الجامعات وواحد ما زال طالباً في الجامعة وواحد موظف والأخير كان يعمل في التجارة.

هؤلاء الشبان كانوا يرغبون في أن يصبحوا أغنياء بسرعة. لذلك قاموا بإنشاء هذه المنظمة. التي كان هدفها خطف نساء الأغنياء في أميركا وعدم إطلاق حرية المخطوفات قبل دفع فدية مالية كبيرة.

في بلد كالولايات المتحدة الأمريكية حيث يعيش في أعلى مستوى من الرفاهية ليس سهلاً أن تنشئ منظمة سرية وتخطف إنساناً وتحتفظ به في مخبأ سري ولا تطلق سراحه حتى تحصل على الفدية بدون أن يكون لمثل هذه المنظمة رأسمالاً كبيراً أي أنهم في أميركا يحتاجون أيضاً إلى رأسمال كبير لكي يقوموا بأعمال السرقة والتهريب وخطف الناس. هؤلاء الشبان الستة جمعوا كل ما يملكون واستدانوا كل ما استطاعوه وأنشأوا تلك المنظمة السرية. كانوا يدققون كثيراً فيمن سيخطفون وكيف سيخطفونه.

ولأنهم أناس مثقفون وقلوبهم طيبة كانوا لا يقومون بخطف الأطفال. كانوا أول من اختاروا خطفها هي امرأة وزوجة لرجل أعمال كبير في سان فرانسيسكو. وحسب الخطة قاموا بخطف الزوجة وأبعدوها عن البلد ووضعوها في فيللاً تم استئجارها لهذا الغرض، ثم اتصلوا بالصحف ووسائل الإعلام. وطلبوا من زوجها المليونير أن يدفع لهم مبلغ ثمانون ألف دولار كفدية في مكان معين وخلال مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام وإلا فسوف يقومون بقتل هذه الزوجة. بعد نشر هذا الخبر في الصحف وإذاعته في

الإذاعة والتلفزيون لم يحدث أي تأثير في الرأي العام لأن الناس لم تعد تهتم بمثل هذه الأخبار نظراً لكثرة حوادث الخطف.

انتهت المهلة المحددة ولكن الزوج المليونير لم يدفع المبلغ المطلوب. مددت المنظمة المهلة لمدة أربع وعشرون ساعة ولم يدفع الزوج أيضاً. فكر الخاطفون بالأمر ماذا سيفعلون بهذه المرأة. فهي لا تباع ولا تُشترى ومن جهة ثانية فهم بحاجة إلى صرف أموال كثيرة من أجلها إذا أرادوا الاحتفاظ بها لمدة طويلة. علاوة على أن المرأة كانت من الطبقة الراقية وكانت تصطاد في الماء العكر. فلم تكن تحب الأكل الذي يقدم لها. فكانوا يضطرون لإعداد طعام خاص بها. وكانت تطلب امرأة مختصة لتقليم أظافر يديها ورجليها وامرأة مختصة لتمشيط شعرها. علاوة على أنها متعودة على عمل التدليك في كل يوم وهي تتناول أدوية مختلفة لعلاج الأعصاب وأشياء أخرى. كانوا يرغبون في إطلاق سراح هذه المرأة حتى ولو لم يدفع زوجها الفدية المطلوبة. ولكنهم كانوا يخشون ان تذهب المرأة إلى الشرطة وتخبرهم عن مقر المنظمة. فتقوم الشرطة بإلقاء القبض عليهم. فقرروا إرسال اثنين منهم إلى زوجها ليطلبوا منه دفع مبلغ الفدية.

رأى الزوج أن المبلغ المطلوب كفدية من أجل زوجته وهو ثمانون ألف دولار مبلغاً كبير. عندئذٍ أجاب الخاطفون بأنهم يقبلون بمبلغ سبعين ألف دولار فأجابهم الزوج أن زوجته لا تساوي هذا المبلغ. فقام الخاطفان بتنزيل مبلغ عشرين ألف دولار ليصبح المبلغ المطلوب خمسين ألف دولار. فيجيب الزوج أن زوجته لا تساوي هذا المبلغ أيضاً. فيرد الخاطفان.

ـ يمكن أن نقوم بعمل تنزيل آخر... أربعون ألف دولار.

ـ لا يمكن فلو كان هذا الأمر قبل عشرون سنة وفي أيام زواجنا الأولى

كان من الممكن أن أضغط على نفسي وأعطي مثل هذا المبلغ. أما الآن فإن الأمر لا يستحق مثل هذا الضغط.

فنظر إليه الشابان بدهشة وقالا له:

ـ ما رأيك سنقوم بعمل تنزيل أخير... ثلاثون ألف دولار.

يرفع الزوج رأسه فيقومون بتنزيل آخر.

ـ طيب خمسة وعشرون ألف دولار... وهذا فقط من أجل خاطرك. وصدق لو كان غيرك لما قبلنا بمثل هذا التنزيل.

لم يتكلم الزوج أبداً، فقالوا له عشرون ألف. وبعدها نزَّلوا المبلغ حتى عشرة آلاف. ولم يجب الزوج. فذكروه بأنه دفع مبلغ خمسة عشر ألف دولار في العام الماضي كهبة لجمعية إيواء القطط الشاردة. عندئذٍ أجابهم المليونير بأنه يحب القطط كثيراً. وأن جمعية إيواء القطط الشاردة هي من مؤسسات البر والإحسان وإن مبلغ الهبة الذي دفع سوف ينزل من ضريبة الدخل أما منظمتكم فليست من منظمات الإحسان لذا فإن المبلغ المدفوع سيكون من حسابه الخاص ولن ينزل من ضريبة الدخل.

عندئذٍ تنازل الشابان إلى مبلغ عشرة آلاف دولار وأفهموه بأنهم لا يستطيعون أن يتنازلوا أكثر من ذلك. فأدار رجل الأعمال لهم ظهره وذهب إلى (البوفيه) وملأ قدحاً من الوسكي.

حاول الشابان جاهدين إفهام هذا الزوج المليونير بأنهم يتكبدون مبالغ باهظة من جراء اختطاف هذه السيدة الراقية وحجزها في مكان يليق بها فقالوا له:

ـ صدق أيها السيد لا نريد منك سوى المصاريف التي تكبدناها. ولا نريد أي ربح. ادفع لنا رأسمالنا وسنفرج عن زوجتك، ولما لم يرد المليونير سألوه، قالوا له:

- يعني عل تريدنا أن نخرج من هنا خالي الوفاض. فرد المليونير.

- نحن لا نترك أحداً يخرج من عندنا خالي الوفاض. الآن سأخبر الخدم وهم سيعطون كل واحد منكم علبة معجون أسنان من إنتاج مصانعي.

عاد عضوا الجمعية بخفي حنين وعقدوا اجتماعاً مع باقي أفراد المنظمة وقرروا إطلاق سراح المرأة وخطف زوجها المليونير. وبعد أن خطفوا الزوج أخذوه إلى الفيلا وأعلنوا أنهم يطالبون بمبلغ ثمانون ألف دولار كفدية من أجل إطلاق سراحه. انتهت المهلة ولم تبال زوجته بالأمر. فمددوا المهلة ثانية، ولكن الزوجة بقيت على عدم اهتمامها. عندئذٍ ذهبوا إلى الزوجة وتكلموا معها فاتضح لهم أنها أقل إنصافاً من زوجها، فصاحت في وجوههم بأنها غير مستعدة لدفع عشرة سنتات لإنقاذ زوجها. وعندما قالوا لها بأنهم سيضطرون لقتل زوجها إذا لم تدفع الفدية. كان هناك بريق من السعادة يشع من عينيها فأجابتهم وهي تبتسم.

- ليس لي الحق بالتدخل في شؤونكم الخاصة.

عاد أعضاء جمعية الخطف إلى الفيلا وقالوا للزوج اذهب أنت حر طليق هذه المرة أبدى الزوج عدم رغبته في مغادرة المكان وبدأ يتوسل كي لا يخرجوه من الفيللا. فسألوه عن السبب، فقال الرجل المليونير. إنه يفضل البقاء ليس في مثل هذه الفيللا الجميلة بل حتى في زنزانة في سبيل أن يتخلص من زوجته السيئة بعد هذا الجواب قام أعضاء جمعية الخطف بسحبه من يديه وحاولوا إخراجه بالقوة من الفيللا عندئذٍ توسل الرجل المليونير قائلاً:

- إنني على استعداد لدفع مبلغ عشرة آلاف دولار لكي لا تطلقوا سراحي وتدعوني أذهب فريسة إلى تلك الزوجة المتوحشة.

وعندما لم توافق المنظمة رفع المبلغ إلى عشرون ألف دولار، بعد ذلك

عقدوا جلسة مفاوضات، وبعد مساومات قاسية رضي الرجل المليونير بدفع مبلغ ثمانون ألف دولار بشرط عدم إطلاق سراحه. عندئذٍ سأل أعضاء المنظمة الرجل المليونير. لماذا إذن لم تدفع مبلغ ثمانون ألف دولار لإنقاذ زوجتك فأجابهم:

ـ أنتم طلبتم مني المبلغ من أجل إطلاق سراح زوجتي ولو كان طلبكم من أجل القبض على زوجتي وحجزها لديكم لكنت دفعت لكم ما طلبتموه بكل سرور.

وعلى هذا الأساس قام أعضاء المنظمة السرية بترتيب أمورهم وذهبوا فوراً إلى زوجة المليونير وطلبوا منها دفع مبلغ ثمانون ألف دولار. وإلا فأنهم سيطلقون سراح زوجها. عندئذٍ توسلت الزوجة لكي لا يطلقوا سراح الزوج وبنهاية المساومة رضيت بدفع مبلغ ثمانون ألف دولار.

بعد هذه التجربة قامت المنظمة السرية بخطف الكثيرين ولكنها لم تجد زوجة أو زوج كان يرغب في دفع مبلغ الفدية من أجل حرية شريكة الآخر. بل على العكس كان الأزواج يدفعون كل ما تطلبه المنظمة من أجل عدم إطلاق سراح الشريك الآخر.

توسعت أعمال هذه المنظمة السرية. وأطلقت على نفسها اسم (جيش الإنقاذ العائلي) وبعد أن كثرت أعمالها أصبحت شركة وأصبح لها فروعاً في كافة أنحاء الولايات المتحدة.

هذه الشركة أصبحت بعد ذلك شركة مساهمة للشعب. وأصبح للمالكين الأصليين وهم الشبان الستة نسبة واحد وخمسين بالمائة من الشركة والباقي تم بيعه على شكل أسهم للشعب.

وتوسعت أعمال شركة جيش الإنقاذ العائلي وأصبحت أرباحها طائلة بحيث تجاوزت أرباح جميع الشركات والمصانع والتكتلات. ولكن رغم أرباحها الطائلة لم تكن تدفع أية ضريبة. وذلك أن شركة

جيش الإنقاذ العائلي تعمل في مجال خطف الإنسان ولذلك فإنها شركة غير قانونية وشركة غير مكشوفة أيضاً وعلى كل حال فهي حتى الآن منظمة سرية. هنا يجب أن نتساءل لماذا لا تغلق هذه الشركة ما دامت تقوم بأعمال خارجة عن القانون؟... لأن هذه الشركة كانت تقدم رشوة للمسؤولين الذين لهم صلاحية إغلاقها. فكانت تقوم بخطف زوجاتهم بدون أن تأخذ منهم أية مقابل. وصارت أكبر شخصيات أميركا تطلب مساعدة الشركة المساهمة لجيش الإنقاذ العائلي حتى أن بعض هذه الشخصيات اقترح أن تنضم هذه الشركة إلى تجمع المؤسسات الخيرية.

كان لا يغيب عن بال هذه الشركة تطبيق مبدأ العدالة الاجتماعية فكانت إذا خطفت الرجل من زوجته لمدة ثلاثة أشهر كانت تتركه وتخطف زوجته لمدة ثلاثة أشهر أيضاً. ولقاء هذا التعب الذي كانت تتكبده كانت تأخذ المال من الزوج والزوجة وهم سعداء.

هذه الحوادث كانت مسجلة في كتاب المؤلف الأميركي بكل تفاصيلها وأسماء أشخاصها مدعمة بالوثائق الكافية. حتى لقد جاءت عروض كثيرة للكاتب من كبار المخرجين المسرحيين لتجسيد هذا العمل على المسرح رغم أن الكتاب لم ينشر بعد.

لعلكم تتساءلون كما تساءلت أنا ألم يحدث أن دفع أحدهم أي مبلغ لإنقاذ شخص مخطوف. حدث ذلك، كانوا لا يدفعون أية فدية عندما تخطف زوجاتهم حتى أنهم كانوا يدفعون مبالغ كبيرة لعدم إنقاذ الزوجة. لكن هذا الأمر كان يختلف عندما تكون المرأة المخطوفة هي السكرتيرة... طبعاً سوف تتوقف أعمال الرجل بدون سكرتيرة. فكانوا يدفعون عندئذٍ مبالغ ضخمة لإنقاذ السكرتيرة.

لا تنسوا اسم هذا الكتاب الذي سيحدث صدى واسعاً في جميع

أنحاء العالم وسوف يترجم إلى جميع اللغات. اسم هذا الكتاب (الشركة المساهمة لجيش الإنقاذ العائلي).

إضافة بعد أن نشرت هذه القصة في إحدى المجلات انهالت علي المكالمات الهاتفية من قرائي من الجنسين وهم يسألون عن حقيقة هذا الكتاب.

هذا الاهتمام الكبير من القراء دعاني أستنتج أننا نحن أيضاً بحاجة إلى منظمة تشبه منظمة جيش الإنقاذ العائلي.

* * *

قماش إنكليزي

في بادئ الأمر رحل إلى استانبول من القرية ثلاثة أشخاص هم رجب وعمه محمود وابن عمه يوسف، ووعدوا شباب القرية بأنهم إذا وجدوا عملاً جيداً فسيكتبون لهم رسالة لكي يحضروا على جناح السرعة إلى استانبول.

اشتغل رجب ويوسف كعمال في ورشات الهدم، أما العم محمود فأصبح عامل تنظيفات وبعد أن عملوا طيلة شهر وفهموا الوضع في استانبول وبأنهم يمكن أن يجدوا عملاً للآخرين كتبوا رسالة إلى القرية. كان بين القادمين الجدد خال رجب واسمه باكير، باكير هذا بادر رجب بالسؤال عندما رآه يلبس نفس الثياب الممزقة التي خرج بها من القرية وقال له.

ـ ولك ما هذا؟ ألم تستطع أن تخيط ألبسة جديدة بعد أن عملت طيلة هذه المدة في هذه المدينة الكبيرة، هل كنت تعمل في الهواء إذن!

ـ لا تشغل بالك يا خالي فلا زال الوقت مبكراً على الشراء.

ـ ولك لماذا لم تشتر بنطلوناً جديداً على الأقل؟

ـ طول بالك يا خالي فسأشتري قريباً إن شاء الله.

أصبحوا الآن ست أقرباء من قرية واحدة يعملون نهاراً في هدم المباني المستملكة من قبل الدولة. ويأوون ليلاً في غرفة واحدة في الطابق الأرضي من إحدى المباني القديمة والكبيرة.

كان لا يشغل بال السيد باكير خال رجب إلا موضوعاً واحداً وهو لماذا لم يقم رجب بشراء ثياب جديدة له، وكان لا يهمه إذا اشترى

الآخرون ثياباً جديدة أم لم يشتروا ولا يهمه أيضاً حتى لو رجعوا بنفس الثياب التي أتوا بها من القرية.

أما بالنسبة لرجب فالموضوع يختلف كثيراً لأنه كان لا يكف عن القول عندما كان في القرية (.سأقوم بتفصيل ثياب جديدة بمجرد أن أعمل في استانبول وأجمع قليلاً من المال.

كان رجب يكرر هذا الكلام ثلاث أو أربع مرات في اليوم، وبأنه يحب اللباس والهندام وكان خاله يقول له «أنت ولد مجنون... ما في عقل». كانت هذه أول مرة يتغرب فيها رجب حتى أنه لم يقم بأداء الخدمة الإلزامية بعد، كانوا يقولون لا يصبح رجلاً من لم يتغرب ومن لم يقم بأداء الخدمة العسكرية.

لقد إهترأت ألبسة الجميع ولكن ثياب رجب كانت هي الأسوأ فلقد كان الجاكيت ممزقاً والأكمام مرققة، أما البنطلون فلم يعد من الممكن معرفة قماشه الأصلي من كثرة الرقع التي عليه. فلا شك أن العمل من الصباح حتى المساء بين الأحجار والحديد وبالقزمة والمجرفة يسببان اهتراء أمتن الألبسة، ورغم أن ثياب الآخرون لم تكن أفضل حالاً من ثياب رجب إلا أنها لم تكن تلفت النظر كثياب رجب، لماذا؟ لأن رجب كان شاباً في التاسعة من العمر ممتلأً بالرجولة والحيوية وكان زينة شباب القرية. تصوروا أنه لا يستطيع أن يلبس حذاءً جاهزاً، لأنه لا يوجد حذاء جاهز، على مقاس رجله لذلك كان ينتعل (جاروخاً) مصنوعاً من مطاط السيارات. أما ثيابه فلم يكن ينزعها عن جسمه أبداً وكانت تبقى ثابتةً على جسمه كما تربط المناديل على أضرحة الأولياء، وكان لا يخلع ثيابه إلا عند النوم خوفاً من أن تتمزق بل كان يفضل أن لا يخلعها أبداً.

عملوا طيلة ثلاثة أشهر وبالرغم من أنهم ليسوا مغرمين بالثياب لكن كلاً منهم تدبر أمره واشترى «بدلاً» سواء أكان جديداً أم مستعملاً فمنهم

من اشترى جاكيت مستعمل ومنهم من اشترى لبس عسكري مستعمل أيضاً ما عدا رجب فلم يشتر شيئاً فقال له خاله مؤنباً.

ـ ولك يا ابني ما هذا العمل؟... هل أنت غبي؟... ألم تسمع ما قالوه في الأمثال «كل ما تشتهي نفسك والبس ما يليق بالناس».

ـ اصبر عليَّ يا خالي... اصبر عليَّ.

حل الشتاء وكان قد مضى ستة أشهر ونصف على مجيء أول فوج من القرية إلى استانبول وخمسة أشهر ونصف على الفوج الثاني. وذهب الجميع إلى السوق لشراء بعض الحاجيات قبل عودتهم إلى القرية. ولكن رجب هو نفس ذلك الرجب. اشترى بعض الأشياء إلا أنه لم يشتر ثياباً عوضاً عن هذه الثياب التي على جسمه فقال له خاله.

ـ ولك ستبقى عارياً. اذهب واشتري شيئاً تستر به جسمك...

ـ طوِّل بالك علي يا خالي...

فغضب خاله كثيراً وقال له:

ـ يعني «إنت حالف يمين ما تغير ثيابك أبداً»؟ أكيد لقد طق عرق الحياء في وجهك... انقلع من هنا.

ـ يا خالي العزيز، كل واحد بيعرف شيء.

ـ ما هذا الشيء الذي تعرفه أنت ولا يعرفه غيرك؟

ـ يا خالي هل تظن بأنني لم أشتر ألبسة؟ لقد اشتريت ولم أبال بالمال أبداً، لقد اشتريت أفخم الثياب. لكن لم يكن لي قسمة لألبسها ولو ساعة واحدة.

لقد طارت أتعاب شهر كامل.

ـ لماذا؟ ماذا جرى... هل سُرقت منك تلك الثياب.

ـ لا... لم تسرق... ياليتها سُرقت لكان انتفع بها أحدهم.

ـ إذن هل احتجت إلى المال فبعتها.

ـ لا والله.

ـ هل خسرتها في القمار؟

ـ أستغفر الله... أي قمار.

ـ ولك العمى، لم تسرق منك ولم تبعها ولم تخسرها في القمار! إذن أين طارت هذه الثياب الملعونة.

كان خال رجب يبدو منفعلاً جداً، فاضطر رجب لأن يفهمه القصة من أولها حتى آخرها.

ـ يا هو. ألم نتكلم عندما كنا في القرية بأننا إذا اشتغلنا في استانبول فسألبس ثياباً لائقة! فأجابه الخال:

ـ وهل هذه الألبسة التي تلبسها أنت لائقة؟

ـ انتظر يا خالي ولا تتعجل علي. جئنا إلى استانبول واشتغلنا ولكن لم نأكل ولم نشرب. يوسف ابن عمي محمود أكل «كباباً» وكل شيء، هل أكْلتُ أنا؟ لا! يوسف ذهب إلى السينما ولم يترك مكاناً لم يذهب إليه. هل ذَهَبْتُ أنا؟ لا! إبراهيم اشترى ساعة وولاعة سكاير. هل اشتريت أنا؟ لا! كان همي الوحيد أن اجمع المال لأشتري بها ثياباً. كنت أتردد على محلات الألبسة في الصباح والمساء. واخترت أفخم الألبسة. جمعت مبلغ مائة وثمانون ليرة خلال شهر. واخترت الثياب التي سأشتريها وذهبت إلى مخزن الألبسة الجاهزة.

خالي هل سبق لك أن دخلت محلاً يبيع الألبسة الجاهزة؟ ما أن دخلت المحل حتى أحاط الجميع بي وبدأوا بالكلام، لم أكن أفهم شيئاً مما يقولونه وظننت أنهم (روم) أو يهود. فهم من يقول لي يا باشا والآخر يا بيك، ذهلت وانعقد لساني ولم أعد أستطيع النطق ولو بكلمة واحدة.

تجمع حولي جميع العاملين في ذلك المحل. حاولت الهرب ولكن قلت في نفسي إن هذا عيب فبقيت ولكنني نسيت الكلام نهائياً، وعندما لاحظ صاحب المحل بأنني لم أنطق بكلمة واحدة، صاح على أحد موظفي المحل قائلاً:

- لماذا تقف هكذا اذهب وأحضر (للأغا) طقم من أجود الأصناف.

ارتحت قليلاً وقلت:

- ها... الآن لقد عرفت طلبي يا ابن عمي.

أي طعم. فلقد وضعوا أمامي مائة طقم. فنظرت إلى الألبسة فأعجبت بها جميعاً لو لبست أحدها وذهبت إلى القرية فسيظنوني أحد أعضاء المجلس النيابي. بقيت فترة وأنا أتأمل هذه الألبسة. وإذا باثنين من عمال المحل قد حاوطاني من كل طرف وخلعوا الجاكيت الذي ألبسه وقالوا لي.

- إلبس هذه الثياب أيها «الآغا» فإنها تناسبك جداً.

لم يدخل الجاكيت حتى في زراعي فصاح صاحب المحل:

- أعطه القياس الأكبر بثلاث نمر.

أعطوني القياس الأكبر ولكن كان صغيراً أيضاً. جربوا جميع الألبسة واحداً تلو الآخر. عندئذٍ قال الولد اليهودي ما شاء الله وقال لي:

- إلبس هذا يا آغا.

أخيراً أمسكوني وألبسوني الجاكيت بصعوبة، ثم أوقفوني جانباً ووقفوا أمامي وهم يقولون ما شاء الله. عندئذٍ قال صاحب المحل:

- هذا قياس مناسب جداً لك. ولو كنت تقوم بتفصيل ثيابا خاصة على مقاسك لما كانت أنسب من ذلك! البسوه البنطلون.

جاء العمال ورفعوا ساقاي كمن يرفع حجراً ثقيلاً وخلعوا البنطال القديم وأدخلوا البنطال الجديد وأيضاً وقفوا أمامي وقالوا ما شاء الله.

وأخذوني أمام المرآة وقالوا شاهد نفسك في المرآة. لو شاهدتني أيها الخال كنت لن تعرفني ولو كنت ذهبت بتلك الثياب إلى القرية فسيظنوني إما نائب أو محافظ.

سألتهم:

ـ كم ثمن هذه الثياب؟ فقالوا:

ـ إن موضوع المال أمر بسيط المهم أولاً أن تعجبك هذه الثياب فوظيفتنا هي إرضاء الزبائن.

ـ قلت أنا ممنوناً منكم، ولكن بكم ثمن هذه الثياب؟

ـ في هذه الأيام مثل هذه الثياب لا تقدر بثمن.

كان أحدهم يسكت فيتكلم الآخر.

ـ لقد جاءت على قياسك تماماً كما لو أنها مفصلة خصيصاً لك.

قلت لهم:

ـ لقد قبلت بها وسأشتريها ولكن ما هو الثمن؟

ـ ثلاثمائة وسبعون ليرة.

ـ قلت بنفسي إنها غالية جداً. اخلع عنك هذه الألبسة.

ـ سألوني ألم تعجبك.

ـ أعجبتني ولكنها غالية.

ـ لا يوجد مثل هذا القماش في الوقت الحاضر. انظر إنه غال جداً هذا القماش هو قماش إنكليزي خالص.

ـ حاشا لله فأنا لم أقل، أن هناك عذراً بالقماش. لقد أعجبني الطقم كثيراً. ولكن اسمحوا لي الآن وسأعود إليكم بعد شهر.

كان الرجل لا يكف عن القول... هذا قماش إنكليزي. إلبسه وسوف

تدعو لنا... هذا القماش لا يفنى أبداً... أما أنا فلم أنطق بكلمة. فقال:

ـ سنقوم بعمل تنزيل لك حتى تتعود على المحل.

قالوا إنهم سيعطوني إياه بثلاثمائة (ورقة) ولم أجب بشيء فأعاد الرجل:

ـ هذا الطقم لا يفنى أبداً ويمكن أن يبقى لأولادك. كن زبوناً لنا وشرفنا إلى المحل دائماً... بقيت على صمتي فبدأ بالتنزيل حتى وصل السعر إلى المائتين ليرة. عندها قال صاحب المحل.

ـ أقسم بالله أنني أعطيك إياه بخسارة!... فليكن ذلك، قلت لهم:

ـ أريد أن تفهموا شيئاً فأنا لا أملك مثل هذا المبلغ. أنا كل ما في جيبي هو مبلغ مائة وثمانون (ورقة).

ـ قبلت... خذه وآمل أن ترى الخير. وملبوس العافية. فأنت الآن تلبس طقم من القماش الإنكليزي الخالص. ستلبسه عشر سنوات وبعدها لأولادك.

وضعوا الخرق البالية التي كنت ألبسها في كيس أنيق وأعطوني إياها بعد أن عددت لهم مائة وثمانون ليرة. وخرجت من المحل، لم أمشي سوى عشر خطوات حتى سمعت صوت شيء يتمزق عند مقعدي فمددت يدي إلى الخلف وإذ بالبنطلون قد انقسم إلى نصفين. وضعت الألبسة القديمة خلفي ومشيت... لا لم أستطع المشي كنت كلما سرت خطوة كان البنطلون يتمزق أكثر. كان صوت التمزق متواتراً مع الخطوات التي أسيرها. تماماً كمن يسير خلف جوقة عسكرية. العمى... أي قماش إنكليزي هذا! إذا حركت يدي تمزق الكم وإذا تحركت جانباً تمزق الجاكيت من خاصرته. قلت لنفسي لا تمهل قليلاً لأنني لو بقيت على هذا الحال فسأصبح عارياً. فجأة سقط كيس الملابس القديمة من يدي. فانحنيت لألتقطه من الأرض وإذا بصوت التمزق يعلو بحيث لفت أنظار

المارة. فنظروا إلي وهم يضحكون. يمكن أن لا تصدق يا خالي فقد سقط أحد أطراف البنطلون. في هذه الأثناء صاح علي أحدهم قائلاً:

ـ أيها الشاب فالتفت إلى مصدر الصوت وإذا بالرجل يمسك أحد أكمام الطقم الإنكليزي وهو يضحك قائلاً.

ـ لقد سقط كم الجاكيت أيها الشاب.

يا إلهي لم يبق من هذا القماش الإنكليزي أي شيء فقد تمزق شر تمزيق فقلت لنفسي لألتجأ إلى أي مكان وأغير هذا اللباس بلباسي القديم وأتخلص من بلاء هذا القماش الإنكليزي.

فضرب خاله بيديه على ركبته وقال:

ـ العمى... لقد أضعت إذن دراهمك. أرني الطقم المصنوع من القماش الإنكليزي، فأخرج رجب من حقيبته القطع من قماش كتان كحلي اللون ملفوفة بجريدة وقال:

ـ هذا كل ما بقي من الطقم سأذهب إلى القرية وأعطيها لوالدتي كي ترقع بها الثياب القديمة التي سألبسها.

* * *

فدائيُ الحانة

كنا أربعة زملاء بدأنا العمل سوية في الجريدة. أحدنا كان قد بلغ الحادية والعشرون ولم يستطع أن ينجح من الصف العاشر إلى الصف الحادي عشر فغضب منه والده وقاله له:

- لا أظن أنك ستصبح رجلاً، كن صحفياً على الأقل.

أما الزميل الآخر فلم يكن له أب، كانت له أم طاعنة في السن وكان يأخذ منها عنوة راتب ثلاثة أشهر من الرواتب التقاعدية التي كانت تقبضها هذه الأرملة المسكينة ويصرفها في ثلاثة أيام. لم يعد باستطاعة هذه المرأة العجوز تحمل هذا الولد فدعت عليه قائلة وهي تحتضر.

- سوف لن أقول أي شيء، إنشاء الله تتشرد (وتتشحطط) في البلاد.

كان هذا آخر ما نطقت به هذه الأم المسكينة وبعدها ماتت. عندها أفاق هذا الولد وعاد إلى رشده وقال في نفسه «لم أعمل بكلام أمي ولا مرة واحدة فلأعمل بآخر كلمة نطقتها أمي المسكينة عسى أن ترتاح روحها وهي في قبرها». وحتى يتشرد في البلاد أصبح صحفياً. هذا الحديث كان قبل عشرين عاماً عندما كان صحفيو ذلك الزمان يخافون دعاء الوالدة وكانوا يعرفون حقوق الأم جيداً.

الصديق الثالث خرج من مرحلة الدراسة المتوسطة بعد رسوب عامين متوالين في مادة اللغة التركية. ولكي ينتقم من أستاذ اللغة

التركية قرر أن يصبح كاتباً كبيراً ولأجل ذلك دخل عالم الصحافة.

أما أنا فكنت أدعي «بأنني أستطيع أن أعمل كل شيء» حتى أصبحت عاطلاً عن العمل ورأيت أنسب عمل لي هو الصحافة.

نحن الأربعة بدأنا العمل كمراسلين متدربين وكنا نعمل بدون أجر وكنا نتفانى في العمل لأنهم قالوا لنا أيكم سيعمل أفضل ويبذل مجهوداً أكبر سنأخذه ليصبح عضواً عاملاً في الجريدة.

علمنا في أحد الأيام أنهم أخذوا أحدنا عضواً عاملاً في الصحيفة براتب شهري قدره ستون ليرة. لم يكن صاحب الصحيفة يدفع هذا المبلغ من جيبه بل كان والد ذلك الشاب هو الذي يدفع المبلغ لصاحب الصحيفة ليعطيه بدوره إلى ولده.

بدون أن يشعره بأي شيء ولكي يعتقد هذا الشاب بأنه أصبح إنساناً منتجاً وبأنه وجد العمل المناسب. هذا المخطط الذي نفذه والد الشاب كان السبب بأننا لم نعد نحن الثلاثة مناسبين للعمل وكان سبباً في طردنا من الوظيفة في الصحيفة.

جلسنا نحن الأصدقاء الثلاثة ذات يوم في أحد المقاهي وبدأنا في مستقبلنا، قال صديقنا الذي طرد من المدرسة بسبب اللغة التركية:

ـ سترون كيف سأكون في أحد الأيام كاتباً كبيراً.

فقال الزميل الآخر:

ـ أنا أيضاً سأصبح من الروائيين المعروفين.

سألوني:

ـ وأنت ماذا تريد أن تكون.

ـ لا أعرف... ولكن أرى في أن أكون مرموقاً في أي مجال.

عندئذٍ بادر أكثر معرفة قائلاً:

ـ لكي تصبح معروفاً. يجب أن تكون لك خبرة جيدة في هذه الحياة. ونحن لا نعرف شيئاً عن هذه الحياة ولا نعرف الناس أيضاً.

وأردف هذا الزميل أن هناك روائياً أميركياً معروفاً جداً لم يترك عملاً لم يجربه حتى أنه عمل في البحث عن الذهب، وفي تهريب الخمور، كما عمل صبياً على ظهر أحد البواخر. فقلت:

ـ فلنبحث نحن أيضاً عن الذهب.

فأضاف صديقنا أن هناك شاعراً فرنسياً كان قسيساً فقلت:

ـ فلنصبح إذن قساوسة.

وأضاف أن هناك فناناً معروفاً كان راعياً للخنازير فقلت:

ـ فلنصبح أيضاً رعاة خنازير.

نحن ليس لدينا خنازير أو ذهب أو قسيسين.

ـ الآن عرفت لماذا لا يوجد لدينا فنانين كبار لأننا لا نملك ذلك الوسط الذي يحتاج إليه الفنان. فليس لدينا خنازير ولا ذهب ولا قسيسين.

لقد ولدنا في بلد غير معطاء فكيف نصبح فنانين كبار؟

واتخذنا قراراً مهماً وهو أن نقوم بأعمال في شتى المجالات لكي نكتسب خبرة جيدة في هذه الحياة.

بدأ أحد الأصدقاء العمل في التهريب والحقيقة فقد قبض عليه في اليوم الذي كان سيبدأ فيه بالتهريب وزج بالسجن.

أما الصديق الآخر فقد ركّب لحية مستعارة وقرر أن يسرق دكان أحد الصاغة. كانت الدكان التي قرر سرقتها قد سُرقت قبل ساعة وقبض عليه

في هذه الدكان الفارغة. ولأنه قبض عليه ولم يكد يبدأ بأعمال السرقة ولكي يمحي وصمة العار التي سببها لعائلته فقد قرر الانتحار وراح ضحية معرفة هذه الحياة.

كنت أنا الوحيد الذي وجدت عملاً سليماً. فقد أصبحت فدائي في إحدى الحانات، كيف وجدت هذا العمل، دخلت في أحد الأيام إلى أحد المقاهي في شارع (بي أوغلو) وجلست أفكر كيف سأستطيع إملاء معدتي الفارغة التي لم يدخل لها طعام منذ أربع وعشرون ساعة، وكاد يغمى علي من الجوع وإذ بأحد الأشخاص كان جالساً بجانبي بادرني بالقول:

ـ ما هذا أيها الشاب «عصافير بطنك تزقزق» وأنت ساكت أفهمته وضعي فقال لي:

ـ بإمكاني إيجاد عمل لك فهل يمكنك القيام به؟

ـ بإمكاني، ولكن ما هو هذا العمل؟

ـ ستقوم بأعمال الفتوة، فدائي في إحدى الحانات.

ـ ما هذا العمل، وما هو المطلوب مني في هذا العمل؟

ـ ستجلس في أحد أركان الحانة من الساعة التاسعة مساءً حتى الساعة الثالثة صباحاً. وعندما يحاول أحد الزبائن الاعتراض على قائمة الحساب المقدمة له، تهجم عليه وتمسك به من ياقته وتمسح به الأرض ثم تجره وترميه في الشارع.

وحتى تتصوروا الجانب المضحك في الموضوع يجب أن أشرح لكم أولاً قليلاً عن وضعي فالأمراض التي عانيتها حتى ذلك اليوم لا تكاد تعد أو تحصى فلقد أصبت بذات الرئة، والخناق، والحصبة، والتفوئيد،

والحمى. هذا بالإضافة إلى أنني مرضت أربع وثلاثون مرة بأمراض مختلفة ولا أذكر أنني دخلت في خصومة في حياتي مع أحد إلا وأكلت بها علقة ساخنةً. وعندما أكون في أحسن أحوالي الصحية فإما أن أكون مصاباً بالكريب أو النزلة الشعبية أو كنت أعاني آلاماً في الرأس ووجعاً في الأسنان، طولي مائة وستة وأربعون سنتمتراً ووزني خمسة وأربعون كيلو غراماً إذا كانت معدتي ممتلئة. فقلت للشخص الذي اقترح علي العمل.

ـ لو قلت لي طير في الهواء حتى أملأ معدتك فإنني سأطير، ولكن إذا أردت الحقيقة فأنا لا أستطيع أن أعمل علقة لأي زبون لأنني أنا من سيأكل العلقة بمجرد أن أبدأ بضرب الزبون وعندها سأمرغ سمعة حانتكم بالتراب.

فأردف الرجل قائلاً:

ـ هذا العمل مناسب لك جداً.

ـ جيد ولكن كيف سأتمكن من ضرب الزبون؟ فأنا أرتجف خوفاً إذا مرت من جانبي سيارة شاحنة مسرعة.

ـ الأمر بسيط... اعمل أنت ما أقوله لك. واترك الباقي علي وليكن في علمك فأنت لكي تصبح فتوة في الحانة لا تحتاج إلى قوة. أنا سأقول لك «امسح الأرض بهذا الشخص» فتذهب أنت وتنهال عليه بالضرب.

فكرت بالموضوع فقلت في نفسي إن أسوأ ما في الأمر أنني سآكل علقة ساخنة وإذا ضُغط علي أكثر عندها سأصيح وأهرب من الحانة. فمعرفة الحياة والناس ليس بالأمر السهل أبداً.

قبلت تكليف هذا الرجل بالعمل وذهبت في تلك الليلة إلى الحانة

لأعمل بها فدائياً فأجلسوني في مكان يقع بين الغرفة الموسيقية والمكان المعد لتقديم الطعام (البوفيه) فقلت لصاحب الحانة وأنا استشيط غيظاً.

ـ أكاد أموت من الجوع. اطلب لي طبقاً من الطعام واقطع قيمته من حسابي.

فأجاب الرجل:

ـ لا أعطيك (السم الهاري) قبل أن تقوم بعملك.

فأجبته، أنا لا أستطيع أن أضرب إنساناً وأنا شبعان فكيف إذا كنت جائعاً. إن الشخص الذي سأضربه سيضعني تحت قدميه ويقضي عليَّ.

هذه المرة سألت صاحب الحانة:

ـ كم ستدفعوا لي؟ هل الراتب شهري أم إسبوعي.

ـ كم ستقبض غير معروف لأننا سندفع لك على (الراس) فكلما ضربت زبائن أكثر كلما تقاضيت دراهماً أكثر. وسندفع لك ليرتين ونصف عن كل علقة تقوم بها ضد الزبون.

لو كانوا يدفعون الدراهم ليس لمن يضربُ بل لمن يُضَربْ لأصبحت غنياً في زمن قصير.

بدأت أصوات الآلات الموسيقية وبدأ الزبائن بالمجيء إلى الحانة وكانت بنات (الأنكاجية) يضحكن بقهقهات عالية وهن يتقعسن في مشيتهن . وبعضهن من كانت ترقص وهي تمشي. أما أنا فأوشكت أن أدوخ من الجوع.

وفي حوالي الساعة الحادية عشر سمعت صوت ضجة تنبعث من

إحدى الموائد ولأنني أتوقع المشاكل التي ستقع على رأسي من جراء ذلك بدأت أرتعد خوفاً. كان الزبون يصيح بأعلى صوته.

ـ ولك هل نحن هنا في رأس جبل؟ أنتم تسرقون الإنسان عيني عينك... ألا تخجلون وأنتم تبيعوننا كأس النبيذ المخلوط بالخل بخمسين ليرة على أساس أنه شمبانيا.

عندئذ غمزني صاحب الخانة بعينيه:

ـ فقلت ماذا سيحدث.

ـ قال اضرب هذا الرجل حتى يعدم صحته.

كيف سأضرب هذا الزبون فهو أطول مني بثلاث مرات فإذا ضربته بقبضتي فإما أن تأتي الضربة في بطنه أو لا تأتي.

قلت «يا بسم الله» واتجهت نحو الزبون وأنا أدعو الله قائلاً:

ـ يا إلهي أنت القادر على كل شيء... امنح ذراعي الضعيف قوة يوسف البهلوان العظيم!

كنت قد أشعلت سيكارة وبدأت أنفث دخاني سيكارتي وأنا أسير بخطى بطيئة تجاه الزبون الذي كان لا يزال يصيح ويشتم بأعلى صوته وكان كل من رآني من الزبائن يهمس قائلاً:

ـ لقد جاء الفدائي... جاء الفدائي...

سرت جانباً وأنا أتمايل في مشيتي (كسرطان البحر) وقد وضعت نصب عيني بأنني سآكل علقة ساخنة. ولما أصبحت وجهاً لوجه أمام الرجل فكرت في أنني إذا ضربته فإن يدي سوف لن تصل إلى وجهه فصحت بالرجل:

ـ ولك اجلس مكانك.

انزوى الرجل على مقعده فوضعت سيكارتي المشتعلة بين حاجبيه وأطفأتها فصاح الرجل وهو يتألم كثيراً:

ـ أمان لقد احترقت فقلت له:

ـ ولك ماذا كنت تقول؟ سأفضي كرشك.

ـ أجاب الرجل والله العظيم لم أقل شيئاً. فأردفت قائلاً:

ـ إذا اشتهيت على الموت فتكلم ثانية...

وضربت الرجل بظهر كفي على اليمين وعلى الشمال ومشيت بخيلاء ورجعت إلى مكاني وجلست.

بدأ صوت الموسيقي وبدأ الرقص من جديد. بعد قليل جاء إلى صاحب الحانة وقال لي:

ـ أرأيت كم هو عمل سهل... فقلت:

ـ أمان أعطني الليرتين ونصف بسرعة فقال لي:

ـ الحساب فيما بعد إذا أردت اذهب الآن إلى (البار) واشرب شيئاً بمبلغ ليرتين ونصف.

ذهبت إلى البار وطلبت من الفتاة قدحين من المشروب وشربتهم. ولأن معدتي خاوية أحسست بغثيان، في هذه الأثناء سمعت صوت ضجة من إحدى الموائد فهرعت مسرعاً إلى تلك المائدة، كان هناك رجلان يملأن الدنيا صياحاً وعربدة فصفعت كل واحد منهم وانتهى الإشكال.

كان عدد الزبائن الذين (بطحتهم) في تلك الليلة أربعة وعندما انتهى عمل البار في الساعة الرابعة صباحاً أعطوني حسابي وكان مبلغ سبع ليرات ونصف. جئت إلى العمل في اليوم الثاني وفي تلك الليلة ضربت

ستة أشخاص. وأصبحت كل يوم أضرب الناس وأكسب المال. كان بعض الزبائن لا يسكت بمجرد أن أصفعه كف أو كفين أو إذا رفسته بعد الرفسات. مثل هؤلاء كنت أخذهم إلى قبو يقع خلف الحانة وأنهال عليهم ضرباً بالعصا.

ولكي أكسب مالاً أكثر فقد كانت عيناي لا تفارق الموائد أبداً لكي لا يقوم أحدهم بأي ضجة. وطبعاً فقد لا أتقاضى أي أجر إذا كان الزبائن لا يقومون بأي صخب. في مثل هذه الليالي كنت إذا رأيت زبوناً يضحك بصوت عالي كنت أتجه إليه وأقول له:

ـ ولك هل تظن نفسك في أسطبل؟ وكنت أضرب الرجل ولو بدون سبب. ولكن صاحب المحل كان لا يعطيني ليرتين ونصف في مثل هذه الحالة التي لا لزوم لها بل يعطيني ليرة واحدة فقط. كنت على استعداد للقيام بالضرب ولو لم يعطني صاحب الحانة أي أجر لأن يداي قد تعودتا على الضرب وأصبحت لا أستطيع صبراً لدرجة أنني كنت أفقد أعصابي إذا لم أضرب أحداً.

في الحقيقة كنت مندهشاً لهذه الرجولة التي اكتسبتها وكنت أقول في نفسي كيف تمكنت من ضرب هؤلاء الناس وبدأت أعتقد بأنني أصبحت رجلاً قوياً.

وفي إحدى الليالي كان ثلاثة زبائن يجلسون حول إحدى الموائد وإذ بأحدهم قد بدأ في الصياح والعربدة. حاول رفيقاه إسكاته فلم يتمكنا، هذا الشخص لم يكن يشبه الناس الأدميين الذين نعرفهم بل كان كالوحش الذي انحدر من قمم الجبال، ولعله لم يكن بشراً أبداً بل إنساناً من جناً. كان هذا الإنسان لا يشبه الأشخاص الذين ضربتهم من قبل. في الحقيقة بدأ الخوف يدب في أوصالي وشعرت في أن هيبتي سوف تنتهي.

سرت باتجاه هذا الرجل ورفسته على بطنه فلم يكف عن الصياح فرفسته ثانية وكنت كلما ضربته أكثر علا صياحه أكثر. خطفت أحد الكراسي وضربته على رأسه فبدأ يصيح أكثر، فكرت بأن الأمر سوف لن ينتهي على هذا الشكل. فأخذت رجل الكرسي المكسور وبدأت أضرب الثلاثة بنفس الوقت. وقدتهم أمامي كالحيوانات وأنا أقول لهم:

- سيروا أمامي أيها الكلاب.

ساروا أمامي كالخراف فأنزلتهم إلى القبو وبدأت أضرب الرجل الذي كان لا يكف عن الصراخ بالعصا حتى انبطح أرضاً ولم يعد يقو على الحراك والتفت إلى الرجلين الآخرين فقال لي أحدهما:

- أمان يا صديقي. نرجوك فنحن لم نقل شيئاً لأننا أصلاً لا ندخل مثل هذه الأماكن ولكن هذا الرجل كان يلح علينا كل يوم لكي نمضي ليلة أنس جميلة برفقته. وكنا نرفض المجيء. ولكننا لم نستطع من منعه من المجيء هذه الليلة. وهو متعود على افتعال العراك في كل مكان يحضره.

كان الرجل المستلقي على الأرض يبدأ بالسب والصياح كلما شعر بأنه بدأ يصحو فتركت الرجلين الآخرين وهجمت عليه ضرباً بالعصا فكان يهمد قليلاً ثم لا يفتأ بالصياح من جديد. استمريت في ضرب هذا الرجل حتى الصباح. وفي الصباح صحى هذا الرجل من سكرته فهجمت عليه بالعصا فخطفها وهجم عليّ... يالطيف كانت أصابع الرجل (كالملزمة) تقطع كل شيء تمسك به. مسكني بين أصابعه وكاد يفعسني (كالقملة) ثم مسكني من رقبتي ورفعني عن الأرض وضربني في الأرض ثانية وكنت أصيح بأعلى صوتي. وأخيراً أغمي علي ولم أعد أدري بشيء. مرت ثلاثة أيام لم أعد فيها إلى وعي، وبعد أسبوع

استطعت بالكاد أن أفتح عيني ولم أصح إلا بعد شهر. وبعد شهرين استطعت السير على قدماي فذهبت إلى الحانة فبادرني صاحبها بالقول:

- انقلع من هنا فأنت مطرود من العمل لأنك مرغت سمعة فتوات الحانة في التراب.

- أمان يا معلمي ماذا جرى؟ ثمانية أشهر ونصف كنت أعمل عندك بشرف وإخلاص وأعيش من جراء ضرب الزبائن ولم يمر على رأسي كالذي حدث معي.

فأجابني المعلم:

- ولك يا غبي، هل كنت تظن أن الرجال كانوا يهابونك بمجرد أن تضربهم. هؤلاء الرجال يرغبون في اللهو وفي آخر السهرة يفضلون أن يأكلون علقة لكي يكملوا كيفهم. لذلك فأنت لو لم تضرب الرجل منهم. لكان بحجة السكر قد ذهب وضرب رأسه في إحدى الجدران أو أنفه في عمود الكهرباء أو فمه في الرصيف. لذلك فإن فدائي الحانة الزكي لا يضرب الزبون إلا وهو في أوج كيفه وليس في الصباح عندما يصحو من السكر. ولك يا غبي احمد ربك بأن الرجل لم يقضي عليك.

طردني المعلم. ولكنني بما أنني عرفت جميع أسرار المهنة ولأنني أصبحت فتوة ذهبت ووجدت عملاً في حانة أخرى.

والآن أضرب الزبائن الذين يأتون إلى الحانة في آخر السهرة لأكمل لهم كيفهم. وأهرب منهم بمجرد أن أشعر بأنهم بدأوا يصحون من سكرتهم.

في الليلة الماضية جاء إلى حانتنا صاحب الحانة التي عملت بها لأول

مرة ولم يجلس هادئاً كالناس المهذبين بل بدأ بالعياط والصياح. فأنزلت معلمي القديم إلى القبو وضربته علقة لا يتحملها حمار. وعندما بدأ يعود إلى رشده لذت بالفرار.

والآن فأنا أربح كثيراً.

وإن شاء الله فسوف آخذ إجازة في أحد الأيام لألهو أنا أيضاً بشكل جيد.

* * *

من هو صاحب طرزان؟

نحن نسكن في حي (مال تبه) في أنقرة. ونحن لسنا من سكان أنقرة الأصليون ولكننا مقيمون فيها منذ زمن طويل. كان بيتنا هو ثالث بناء يتم إنشاؤه في ذلك الحي وكان في الأصل بيت خالتي وسكنا نحن في البيت بعد أن انتقلت إلى رحمته تعالى.

كان في ذلك الحي كلب اسمه طرزان لا أحد يعرف كيف ومن أين أتى إلى الحي ولعله كان هنا منذ أن كان جرواً صغيراً. والغريب لا أحد في الحي يعرف عمره وإذا سألت أي شخص عنه يجيبك قائلاً:

ـ أنا منذ أن أتيت إلى هذا الحي كان طرزان كلباً كبيراً.

حتى أن أحداً لم يستطع تقدير عمره. مضى على مجيئنا إلى هذا الحي ثمانية عشر عاماً وعندما توفيت خالتي وانتقلنا إلى البيت كان طرزان كلباً كبيراً. جارنا ممدوح يسكن في هذا الحي منذ واحد وعشرون عاماً وهو عندما جاء إلى الحي كان طرزان موجود وكان كلباً كبيراً. بالنسبة للبقال إلياس فإن عمر طرزان يتجاوز الثلاثين عاماً. لأن الياس يقطن هذا الحي منذ ثلاثون عاماً وكان طرزان في ذلك الوقت كلباً كبيراً.

أما بالنسبة لحارس السكة الحديدية محمود أفندي فإن طرزان قد تجاوز الأربعين منذ زمن بعيد لأنه عندما انتقل إلى هذا الحي كان عمر طرزان لا يقل عن ثلاث أو أربع سنوات.

وبالنسبة للخالة دريَّة فإنها تقول دائماً بأنها أصغر من طرزان وبالنسبة لحسابها فإن طرزان قد تجاوز الخمسين منذ زمن طويل.

أما من أعطى هذا الاسم لطرزان فهو غير معروف أيضاً. وكأن

طرزان كان يعرف نفسه للناس.

ـ أنا اسمي طرزان.

كان طرزان ذو شعر قصير لونه أصفر ترابي. ولم يكن كبيراً جداً ولا صغيراً جداً هو كلب عادي كمعظم كلاب الشوارع. وهو ليس أعرجاً ولكنه كان يعرج دوماً لأن صبيان الحي لا يكفون عن إيذائه ورميه بالحجارة. لذلك لم يُشاهد وهو يمشي على أربع قوائم ولا مرة واحدة. فطرزان هو التسلية الوحيدة لأطفال الحي. يركبون على ظهره ولا يبدي اعتراضاً حتى أنه في بعض الأحيان كان يركب طفلان بدلاً من واحد وكانت بطنه تلتصق بالأرض وهو لا يبدي أي اعتراض بل كان يحاول جاهداً أن يتحمل هؤلاء الأطفال. كان دائم التشرد في الأزقة المعفرة بالتراب.

أما أطفال الحي الأصغرسناً فكانوا يجرونه من زيله ويوخزونه بالمسامير في كافة أنحاء جسمه. ولم يكن طرزان يتصرف مع هؤلاء الأطفال مثل باقي الكلاب بل كنت تظنه خروفاً بين أيديهم وكان عندما يتضايق كثيراً من أحد الأطفال الذين يعذبونه يلتفت برأسه وينظر إليه بعينين صفراوتين متسختين نظرة ملؤها المرارة والألم. فإذا لم يكف الطفل عن إيذائه فكان يصدر عنه صوت مبحوح لا يشبه صوت الكلاب أبداً.

كانت أحلى تسلية لأطفال الحي هي رمي الحجارة على طرزان بآن واحد فكانوا يسندونه على أحد الجدران ويصنعون منه هدفاً لكي يتعلموا دقة التصويب.

في إحدى الأمسيات رأيت أربعة عشر طفلاً مصفوفون على نسق واحد وكل يمسك حجراً بيده وهم ينتظرون إشارة البدء وكان يقف في رأس النسق طفل غليظ صاح بأعلى صوته.

ـ النا... ر.

فرمى الأطفال الحجارة التي بأيديهم دفعة واحدة فسألتهم ماذا تفعلون

فقالوا إننا نلعب لعبة الإعدام بالرصاص أيها العم.

لابد من اللعب. أليسوا أطفالاً. فنحن أيضاً كنا نلعب مع طرزان عندما كنا في مثل عمرهم.

طرزان لم يكن يفارق الحي مهما جرى له حتى غدا علامة مميزة للحي. رغم لم يكن ليجد عطفاً عليه من أحد حتى الكبار. كان كل واحد في الحي يعتبر أن وظيفته هي أن يرمي طرزان ولو بحجر على الأقل وإذا صدف ومشى بين أرجل أحدهم كان يركله بقدميه ويرميه أرضاً وهو يقول له ابتعد عني أيها القذر.

لم أصادف مرة واحدة هذا الحيوان خالياً من الجروح ونحن ورفاقنا عندما كنا صغاراً قطعنا أذنيه والأطفال الذين أتوا من بعدنا قطعوا ذنبه.

لا أحد يعلم كيف يملأ طرزان معدته ولم يخطر على بال أحد ذلك. فهو لا يغادر الحي إلى مكان آخر أبداً ولم يكن أحد من قاطني الحي يرمي إليه ولو بكسرة خبز يابس. ولا أحد يعلم ماذا كان يأكل أو يشرب.

في بعض الأحيان تقوم البلدية بقتل الكلاب الشاردة. هل رأيتم كيف تتم هذه العملية؟ تأتي سيارة شاحنة مغلقة فينزل منها الأشخاص الذين سيقتلون الكلاب وبأيديهم آلة من الحديد طولها حوالي المترين وهي تشبه الملقط أو المقص ولها طرفان مدببان تغرس هذه الأطراف المدببة في بطن الكلب ويرمي في تلك الشاحنة وهو ينزف دماً. عمال البلدية مسكوا طرزان وغرسوا هذا الملقط المدبب في بطنه أمام جميع أهالي الحي وأخرج طرزان صوتاً يشبه البكاء وأدار رأسه ونظر إلينا. وبعد أن رفعوا طرزان في الهواء وفيما هم يحاولون رميه في الشاحنة حصل شيء لم يكن يخطر على بال أحد فقد قفز طرزان من الشاحنة وهو مفتوح البطن بعد أن تخلص من ذلك الملقط المدبب وهرب وهو ينزف دماءً كثيرة.

ومن جديد شاهدنا طرزان يتجول في اليوم الثاني في الحي وهو جريح

وبعد بضعة أيام التأمت جراحه.

اشتكى بعض الناس إلى البلدية معترضين على قتل الكلاب بهذه الطريقة اللا إنسانية. فبدأت البلدية بقتل الكلاب بطريقة أخرى وهي إطلاق الرصاص عليهم بواسطة البندقية. كان هذا الصيد مسلياً جداً. جاء أيضاً صيادو الكلاب إلى الحي وأدخلت الكلاب التي لها أصحاب إلى بيوتها.

لم تكن إصابة طرزان بالأمر الصعب أبداً فقد أصيب الحيوان في كتفه الأيسر ووقع على الأرض ولكنه تمكن من الهرب دون أن يتمكن هؤلاء الصيادون من الإمساك به.

وشاهدناه من جديد في الحي وهو مثخناً بجراحه. كان صيادو الكلاب قد قتلوا خطأ كلب أحد المسؤولين. وبناءً عليه فقد إرتأيُ أن قتل الكلاب بإطلاق الرصاص موضوع غير إنساني فتركوا هذه الطريقة وبدأوا بتسميم الكلاب.

جاء العمال الذين يسممون الكلاب إلى الحي أيضاً. وكانوا يرمون قطع اللحم المسمومة ويذهبون. أكل طرزان من هذا اللحم المسموم مع كلبان آخران بعد قليل بدأت هذه الحيوانات تتقلب على الأرض. كان الكلبان اللذان أكلا اللحم المسموم مع طرزان لهما أصحاب. فبدأ أصحاب هذه الكلاب إطعام كلابهم لبن مخلوط بالثوم بغية إنقاذهم ولكن عبثاً حاولوا فقد مات الكلبان ونجا طرزان لأن أحداً لم يهتم بإنقاذه. كان طرزان يتقلب على جنبيه من الألم وفي الصباح رآه الأطفال وهو يقف على قدميه فصاحوا.

- يعيش طرزان... وبدأوا برميه بالحجارة.

سكنت في الحي عائلة أميركية فتغيرت حياة طرزان كان لهذه العائلة طفلاً في الرابعة عشر من العمر فبدأ بإعطاء الطعام لطرزان ومن ثم وضعه في حديقة البيت. وبعدها صنعوا له بيتاً صغيراً. وتغيرت حال طرزان خلال ثلاثة أو أربعة شهور فلم تعد تر عموده الفقري أو عظام صدره واكتست جميعها لحماً. وأصبح طرزان مثل (الفستق). وكنت ترى بريق عينيه. وترى لونه وقد أصبح

جميلاً ونظيفاً. والحقيقة فقد اصبح طرزان حيواناً آخر.

أصبحنا نحبه جميعنا فمن منا لا يحب الحيوان الجميل وبدأ أطفال الحي يرمون له الخبز وكانت كل ربة بيت يدخل اللحم إلى بيتها ترفع العظام لطرزان وكانت تقول لابنها:

ـ خذ هذه العظام لطرزان!

أصبحت عقولنا جميعاً عند طرزان حتى أن البعض كان يصنع له طعاماً بمرق اللحم. ويرسلونه لطرزان.

ـ أمان يجب أن لا يبقى طرزان بدون ماء فقد يعطش هذا الحيوان المسكين «له فم ولكن ليس له لسان».

ـ خذوا لحماً لطرزان.

كان الأمريكان يُغَسلون طرزان كل يومين أو ثلاثة أيام حتى أصبح نظيفاً براقاً وكانت نساء الحي تقول:

ـ آمان غَسّلوا طرزان...

حل فصل الشتاء فقرر الأمريكان وضع طرزان في الطابق السفلي من البناء وقبل أن يدخلوه إلى الطابق السفلي بدأ كلام أهل الحي.

ـ أمان سيجمد هذا الحيوان من شدة البرد.

ـ هل من الممكن أن يبقى الكلب في الحديقة في عز الشتاء.

انتهى فصل الشتاء وحل الربيع وعلمنا أن الأمريكان سيعودون إلى بلادهم وسوف يصطحبون طرزان معهم فقامت قيامة أهل الحي. حقنا في طرزان بقدر المسافة التي بين الأرض والسماء.

وأضاف حارس السكة الحديد محمود أفندي قائلاً:

ـ هذا كلب الحي... ولا يستطيعون أن يأخذوه من هنا إلى هناك أبداً.

أما الخالة درية فقالت وعيناها قد اغرورقت بالدموع.

ـ وُلِدَ وترعرع بين يدي وأنا لا أعطي طرزان لأي مخلوق كان. لقد سمحنا لهم بالكلب هنا. أما أن يأخذوه إلى أميركا... فو الله أهدم بيتهم فوق رؤوسهم.

عندئذٍ انبرى الياس البقال قائلاً:

ـ يا هو كلب من تعطونه لمن؟ أولاً الكلب كلبي وأنا الذي أطعمته وكبرته منذ أن كان صغيراً.

عندئذٍ تكلم محمود بك من الوجهة القانونية بوصفه أكثر أهل الحي ثقافة وقال:

ـ لا تقلقوا فهم لا يستطيعون أن يأخذوه أبداً فسألنا.

ـ لماذا؟

ـ لأن القانون ليس معهم... أولاً طرزان نشأ وترعرع في هذا الحي. فكيف يمكن أن يأخذوه إلى بلد أجنبي... أولاً فهم لا يمنحونه جواز سفر... ثانياً... هب سكان الحي جميعهم. وقال (إتيان) ضارب الآلة الكاتبة.

ـ طرزان ابني العزيز، لا يمكن أن يعيش في الغربة... فهو لم يتعود عليها وعلى هوائها ومائها... فلو كان إنساناً فيمكن أن يعود إذا لم يعجبه الحال ولكن هل يتمكن الحيوان من العودة؟.

وبدأت حملة مخيفة في الحي ضد الأمريكان من أجل طرزان وأصبح الموضوع يهدد بكارثة. فقد كان في الحي طالباً جامعياً اسمه (أوزكور) قال مرة وهو يجلس في المقهى.

ـ يا هو دعوهم يأخذوه... على الأقل يتخلص الحيوان...

لم يبق إلا القليل حتى كادوا يقتلون هذا الفتى.

ـ ماذا تقصد بكلمة... على الأقل يتخلص الحيوان...؟

فأجاب الفتى:

ـ انتظروا ولا تفهموا ما قصدته خطأ، وسأوضح لكم الأمر... ورغم كل ما قاله الفتى انهالوا عليه ضرباً بالعصي وشجوا رأسه وجرحوا عينيه ونجى الفتى بأعجوبة.

ثم ذهب أهل الحي إلى البيت الذي يسكن فيه الأمريكان وبدأوا بالصياح.

ـ نريد طرزان... ولما لم يجب الأمريكان تدخل المختار وذهبنا بعد ذلك إلى قسم الشرطة وشكونا أمرنا.

ـ الأمريكان يريدون أن يأخذوا معهم طرزاننا. اهتم رئيس قسم الشرطة بالأمر وقال:

ـ اكتبوا معروضاً وقولوا فيه أنه كلبنا وأعطوني إياها وأنا سأتابع الموضوع.

كتب كل واحد من أهالي الحي معروضاً يدعي فيه ملكية الكلب إضافة إلى معروضاً جماعياً مقدماً من قبل أهالي الحي مكتوب فيه (نحن لا نتخلى عن طرزاننا). وأصبح كل شخص يشهد للآخر بأنه صاحب طرزان. وامتدت أحداث هذا الموضوع حتى وصلت إلى الأحياء المجاورة. وفي أحد الأيام باع الأمريكان جميع أغراضهم وقرروا الرحيل. فهب جميع أهالي الحي وتجمهروا أمام بيت العائلة الأمريكية. وضع الأمريكان الكلب في السيارة وعندما شاهد هذه الجمهرة من الناس قال:

ـ أعطيكم مبلغ خمسون دولاراً لكي تبيعوني هذا الكلب.

هذا الكلام أغضبنا كثيراً. يعني إذا كان يملك دولارات فهل نبيعه كل ما نملك؟

فأجبناه:

ـ ليس بخمسين ولا مائة ولا حتى ألف دولار وحتى مهما دفعت فنحن سوف لن نتخلى عن طرزاننا.

مسكين ابني طرزان هذا... فقد كان ينظر إلينا نظرات ملؤها التوسل وكأنه يقول لنا:

ـ أرجوكم انقذوني من هذه العائلة الأمريكية.

بدأ الأطفال والنساء بالبكاء والنحيب. وفي هذه الأثناء وصل رجال الشرطة فقالوا للأميركي.

ـ مستر لا يمكنك أخذ هذا الكلب.

ـ لماذا؟

ـ لأن له مالك.

سحبت الشرطة الكلب من يد الأمريكان ورحل الأمريكان وهم ينظرون إلى الوراء مودعين طرزان.

الآن أصبح طرزان لنا... لم يمض سوى بضعة أيام حتى عاد إلى حالته القديمة أصابه الهزال وبرزت عظام صدره وبدأت الجروح تشاهد في جميع أنحاء جسمه وعاد كلب الحي كما كان في السابق. الأطفال يرمونه بالحجارة من الصباح حتى المساء ويركبون على ظهره ويغذونه بالمسامير.

البارحة وأنا عائد إلى بيتي شاهدت الأطفال وقد ربطوا قدمي طرزان بالحبال وأوثقوه إلى جذع شجرة وكان في يد كل منهم إما موس أو قطعة من الصفيح فبادرتهم قائلاً:

ـ ماذا تفعلون.

وفهمت أن أساتذة المدرسة قد قاموا بتشريح ضفدعة أمام الطلاب وأخرجوا قلبها والآن يريد هؤلاء الأطفال تطبيق هذه التجربة على طرزان.

بقي طرزان عدة أيام يتجول وهو مثخناً بجراحه. والآن لا يزال متشرداً في أزقة الحي.

* * *

اشترِ كل ما تقع عليه عيناك

لي صديق يعمل كوسيط عقاري، وقد تعودنا أن نترافق سوية وكل يوم. وكنا نسير من أول (النفق) حتى الجسر وكان يقص يومياً علي ما حدث معه في عمله وفي ذات يوم بادرني بالقول:

ـ يجب أن تشتري في هذه الأيام كل ما تقع عليه عيناك. اشتري بقدر المال الذي في جيبك. زارني في العام الماضي أحد القرويين في مكتبي وقال (أريد شراء بناء كامل). فسألته كم تستطيع أن تدفع؟ فاتضح أنه قد باع جميع أملاكه في القرية وجمع مبلغ تسعون ألف ليرة. بتسعين ألف ليرة لا يمكن شراء شقة. فكيف أشتر له بناء كاملاً. فكرت في الأمر، فإذا قلت للرجل لا يمكن. فإنه سيذهب إلى مكتب آخر عندئذ سيستفيد منه صاحب ذلك المكتب بطريقة أو بأخرى.

بدأت أتجول مع هذا الرجل وأعرض عليه مباني مختلفة فلم يعجبه شيئاً هذا بناء صغير وهذا طوابقه كثيرة وتبين أن البناء الذي يرغبه يجب أن يكون مؤلفاً من ستة أو سبع طوابق ويجب أن يحتوي الطابق على شقتين ويجب أن يكون البناء في أحد المواقع الممتازة في استانبول. وإضافة إلى هذه الشروط يجب أن يتوفر في البناء الذي سيشتريه.

ـ مغطس (بانيو) أولاً ثم غرفة صالون مفتوحة على غرفة طعام ثانياً لا أعرف من أين تعلم هذه الطلبات. مغطس، وصالون وغرفة طعام. إن عمل الوسيط العقاري ليس سهلاً. فيجب أن يقلب لسانه عدة مرات في سبيل أن يحصل على مبلغ الوساطة وقدره اثنان في المائة من البائع واثنان بالمائة من المشتري. ومعنى ذلك أنني إذا وجدت بناء لهذا الرجل بمبلغ تسعون

ألف ليرة سأربح مبلغ ثلاثة آلاف وستمائة ليرة. هذا المبلغ عليه ضريبة دخل وهناك مصروف المكتب والإيجار ومصاريف أخرى مختلفة كلها ستذهب من هذا المبلغ. إضافة إلى أنك يجب أن تظهر أمام الزبون بمظهر لائق ويجب أن تطعمه وتشربه.

تجولت عدة أيام مع هذا الرجل. كنت أدفع خلالها مصروف التنقلات ومصروف الطعام. ولم يصادف أن مد الرجل يده على جيبه قط. وثابرت على الدفع وأنا أفكر بمبلغ الثلاثة آلاف وستمائة ليرة التي سأتقاضاه منه مستقبلاً. حتى بلغ مجموع ما صرفته حوالي الألف ليرة. والرجل لم يعجبه أي بناء. ولو كان الأمر بيده لما اشترى بتسعين ألف ليرة إلا قصر (دولمة بهج) أو قصر (طوب قابي). فالمال عند البعض كالطوابع والبعض طوابعها مال.

في هذه الأثناء تعلمت من أحد أصدقائي ممن سبقوني في مهنة الوساطة العقارية، أن هناك بعض المحتالين يأتون إلى الوسطاء العقارين وهم يتكلمون بلهجة قروية ويطلبون شراء بناء بقيمة مليون ليرة. ويمضون خمسة عشر يوماً يأكلون ويربون على حساب ذلك الوسيط. ثم يذهبون إلى وسيط آخر...

ضقت ذرعاً بهذا الرجل وأنا أقوم بالتجوال معه يومياً وأنا لا أكف عن صرف المال. وفي أحد الأيام خرجنا أيضاً من الصباح وعرضت عليه أحد الأبنية وقلت له هذا البناء بمبلغ تسعون ألف ليرة يا بلاش فأجابني الرجل:

ـ لا أريده فهو مؤلف من ثلاث طوابق فقط... وليس فيه مغطس وليس فيه صالون وغرفة طعام.

فغضبت كثيراً وقلت له

ـ يوجد هنا بناء ممتاز ولكن لا أعلم إن كان صاحبه سيبيعه أم لا؟

وعرضت عليه بناءً فخماً مؤلفاً من سبع طوابق وفي كل طابق شقتين فقال لي:

ـ هذا بناء يعجبني وهو جيد فعلاً. فقلت له

ـ سأتكلم مع صاحب البناء فإذا وافق فسوف نلتقي غداً في المكتب.

في اليوم الثاني أرسلت في طلب صاحب البناء الصغيرة الذي شاهده صاحبنا من قبل وبعد قليل أتى صاحبنا إلى المكتب وظن أن هذا الرجل هو صاحب البناء الفخم الذي أعجبه وبدأ يساومه على السعر قائلاً:

ـ لا بأس في البناء... ولكنه لا يساوي هذا السعر... واتفقوا أخيراً على مبلغ تسعون ألف ليرة. وذهبوا في اليوم الثاني إلى السجل العقاري وسجل العقد أصولاً وقبضت مبلغ ألف وثمانمائة ليرة من كل واحد، كنت حتى ذلك الوقت قد صرفت من جيبي مبلغ ألفي ليرة على هذا المشتري.

سمعت بعد ذلك ما حدث للمشتري الجديد فقد ذهب إلى البناء الكبير الذي ظن أنه اشتراه وتكلم مع البواب قائلاً:

لقد أصبحت أنا مالك هذا البناء لذلك يحب أن تأخذ رأي من الآن وصاعداً بكل شؤون هذا البناء.

فأجابه البواب مندهشاً:

ـ أمان أفندم إن صاحب هذا البناء يسكن في الطابق الثاني.

وجاء صاحب البناء وبدأ الجدال مع صاحبنا. هذا يقول البناء ملكي والآخر يقول ملكي طال الجدال بينهم فذهبوا إلى قسم الشرطة فانبرى صاحبنا بالقول:

ـ هذا البناء لي لقد اشتريته. وهذا هو السجل العقاري باسمي فأجاب الشخص الاخر.

ـ أنا لم أبع شيئاً ولا أعرف هذا الشخص.

أخيراً فهم صاحبنا أنه اشترى بناءً آخر. فدعاني للمحكمة. فقلت أنا لم أبعه هذا البناء بل بعته ذلك البناء الصغير. وهذا هو صاحبه وقد اتفق

الاثنان على السعر وذهبوا سوية إلى السجل العقاري وسجل البناء باسم المشتري الجديد. وليس من المعقول أن يباع هذا البناء الفخم بمبلغ تسعون ألف ليرة. فقيمته في الوقت الحاضر تفوق المليونين.

وذهب الرجل وملؤه الحيرة.

لعلك تظن الآن أنني قد غَشيتُ هذا الرجل. لا والله فالبناء الذي اشتراه ذلك الرجل في العام الماضي بمبلغ تسعون ألف ليرة. تبلغ قيمته الآن ثلاثمائة ألف ليرة. وكثيراً ما عرضت عليه بيعه بهذا المبلغ ولكن صاحبه لا يبيعه بثلاثمائة ألف ليرة. وأصبح يمر على المكتب في بعض الأحيان ويقول لي دوماً

(الله يرضى عليك) لذلك أوصيك يا أخي بأن تشتري كل شيء تقع عليه عيناك مهما كان هذا الشيء وبدون أن تسأل عن السعر هذه نصيحة مني اشتري أي شيء وبعه غداً... اشتر كل ما تقع عليه عيناك... وستربح فيما بعد.

وصلنا حتى الجسر فشاهدنا صياداً يبيع السمك في أحد القوارب فقال لي صديقي:

ـ اشتري كل ما تجده واحتفظ به لفترة وسوف تبيعه بمثلين أو خمسة أمثال. إذا بعت ما اشتريته فسوف تربح وإذا لم تبعه ستربح أكثر. لا تترك مالاً في جيبك واشتري فوراً أي شيء.

بحثت في جيبي فلم أجد سوى مبلغ ليرتين ونصف وبعض القروش فقلت للصياد

ـ أعطني سمكة بمبلغ ليرتين ونصف.

أعطاني السمكة فبادرت صاحبي بالسؤال قائلاً:

ـ عجباً... إذا تركت هذه السمكة خمسة أو عشرة أيام فهل أستطيع بيعها بسعر أغلى.

* * *

جمعية عش البلبل السكنية

مع أن أجار البيت الذي أسكن فيه حالياً باهظاً بالنسبة لدخلي ولكنه يبقى رخيصاً جداً بالنسبة إلى البيوت الأخرى. لأنك لا يمكن أن تجد في هذه الأيام بيتاً مؤلفاً من أربع غرف كبيرة بآجار شهري قدره مائتان وخمسون ليرة. هذا ليس رخيصاً فقط بل إنه يعتبر ببلاش... لكن ما حدث لم يكن بالحسبان فقد وقعنا في حيرة من أمرنا عندما علمنا أن صاحب البناء أعلن عن عزمه على بيع البناء الذي نسكن فيه. ما العمل؟ إلى أين نذهب؟ أين سيلجأ هؤلاء الأرواح السبعة.

اتصلت هاتفياً بصاحب البيت وسألته؟

ـ علمنا أنكم ستبيعون البناء الذي نسكن به؟

ـ هذا صحيح ولكنني يمكن أن أقدم بعض التسهيلات للمستأجرين الذين يسكنون البناء حالياً إذا كان لديهم رغبة بالشراء.

شعرت بارتياح كبير عندما سمعت بالتسهيلات فسألته:

ـ ما هو نوع هذه التسهيلات؟

ـ تسهيلات في الدفع.

ـ بكم ستبيعون الطابق الذي نسكن فيه.

ـ بخمس وسبعون ألف ليرة...

ارتعشت كمن أصابته الحمى:

ـ طيب وماذا عن التسهيلات؟

ـ أولاً تدفع مقدماً قسماً من المبلغ. والمبلغ المتبقي...

ما المقصود بقسم من مبلغ خمسة وسبعون ألف ليرة؟ هذا المبلغ مهما قسمته لا يمكن أن يكون أي قسم يساوي خمسة وسبعون ليرة. لكن الإنسان يتشبث بالمستحيل عندما يفقد الأمل. لم لا فصاحب البيت رجل طيب. وسوف يسألني ألست تدفع لي أجراً شهرياً قدره مائتان وخمسون ليرة. وسأجيبه نعم سيجادلني عندئذ استمر بدفع مائتان وخمسون ليرة شهرياً حتى يتم استيفاء مبلغ خمسة وسبعون ألف ليرة.

والحقيقه أن هذا الحساب منطقي جداً لأنني في هذه الحالة سأدفع مبلغ ثلاثة آلاف ليرة في السنة وثلاثون ألف في عشر سنوات. وسأصبح مالكاً للطابق الذي أسكن إذا استمريت في الدفع طيلة خمسة وعشرون عاماً.

فسألت صاحب البيت في الهاتف.

ـ كم هو المبلغ الذي تطلبونه مقدماً.

ـ هذا متروك لتقدير المستأجرين.

ماذا تقولون لو كنتم مكاني. كم يجب أن يكون المبلغ المقدم لطابق بخمس وسبعون ألف ليرة. قدّروا أنتم. لو استدنت من أحدهم مبلغ ألف ليرة وأعطيتها لصاحب البيت وقلت اعتبر المبلغ المتبقي ديناً علي...

لاحظ صاحب البيت توقفي عن الكلام فبادرني بالسؤال.

ـ كم تستطيع أن تدفع أنت؟

ـ من؟.. أنا... والله أنا... يعني تقصد المبلغ المقدَّم... أما... كيف سأشرح لك... لاحظ...

ـ كم تستطيع أن تدفع.

كم أستطيع أن أدفع أنا؟ أنا لا أستطيع دفع أي شيء ولكنني خجلت من سؤاله فقلت له:

ـ خمسة وعشرون ألف ليرة.

ـ والباقي؟

ـ الباقي أدفعه على سنتين كل سنة خمسة وعشرون ألفاً.

ـ اتفقنا وسوف أحجز الطابق الذي تسكنونه لاسمكم ولن أبيعه لأحد.

بدأت بالتفكير فأنا لا أستطيع شراء الطابق الذي أسكن فيه ولكنني على أقل تقدير سأمنع دخول الراغبين في الشراء ولو لأجل قصير. لأن عدد الراغبين في الشراء والذين يزورون الطوابق الأخرى لا يقل يومياً عن عشرة زبائن. وعلى هذا الأساس سيتم بيع البناء خلال بضعة أيام. جمعت العائلة لاتخاذ قرار حول هذا الموضوع. واتخذنا القرار التالي: الإعلانات عن بيع بيوت وأراضي وشقق سكنية رخيصة تملأ الجرائد فلنبحث إذن في هذه الإعلانات لكي نجد البيت المناسب وبسرعة وافق الجميع على هذا القرار. واشترينا ثلاث جرائد في ذلك اليوم وبدأنا نبحث عن منازل.

كان أنسب شيء لوضعنا المالي هو (جمعية عش البلبل السكنية) كانت إعلانات هذه الجمعية تغطي مساحات كبيرة من الجريدة. مخططات ومواقع الأبنية. وكيف أن البحر يحيط بهذه المواقع من الطرفين. قفز ابني ورفعت ابنتي فرحاً عندما شاهدوا البحر على المخطط.

كان المشروع يحتوي على شقق سكنية. وعلى (فيلات) مستقلة وأنت حر في الاختيار. ولما كنت قد مللت من سكن الشقق لأن الطابق السفلي له هموم ومشاكل والطابق الأخير له هموم أيضاً فقلت لنختار فيللاً وكون الفيلات غالية سعرها خمسة وستون ألفاً يجب أن يدفع نصفها مقدماً والباقي تقسيطاً على ثماني سنوات. ونحن إذا نحتنا الصخر لا يمكن أن نجمع أكثر من خمسة وثلاثون ألفاً. أما الطوابق فأسعارها تتراوح بين عشرون وثلاثون ألفاً ـ وتصل حتى الأربعين. وأيضاً يجب دفع نصف المبلغ مقدماً والباقي تقسيطاً لمدة ثماني سنوات. يعني إذا اخترنا طابق بخمسة وعشرون ألف ليرة سندفع اثنى عشر ألف وخمسمائة ليرة نقداً

والباقي نستطيع أن نتدبره. توضحت لنا الأمور بشكل جيد. وبعد التدقيق في جميع المخططات المعلنة اخترنا أحد الطوابق كان البناء الذي اخترنا فيه الطابق كأنه فندق (هيلتون) وكان الأولاد ينظرون إلى البناء وهم معجبون بهذا الاختيار كان البناء مؤلفاً من خمسة طوابق فاخترت الطابق الخامس ولكن زوجتي العاقلة انبرت قائلة:

ـ الطابق الخامس لا يمكن.

ـ لماذا؟

ـ قد يدلف السقف الأخير ونحتاج لإصلاحه مستقبلاً وسيكلفنا ذلك غالياً لأن أحداً لن يشاركنا في المصروف. لذلك فالأحسن أن نختار الطابق الرابع.

هذا كلام منطقي فنحن نسكن الآن في الطابع الرابع ولا نشارك بدفع أجور إصلاح الطابق الخامس عندما يرشح من المطر. حسناً. كان كل طابق يحتوي على ثلاث شقق فقررنا على الشقة الأكثر إطلالاً على البحر. كلام فارغ حين تقول تطل على البحر. فالبناء كله سيشاد على شاطئ البحر وسيكون أمامه (بلاج) والبحر من جميع أطرافه.

دعوت الأولاد إلى اجتماع عاجل وقلت لهم:

لا يوجد شيء أيها الأولاد مثل البحر. فالحياة الأولى انبثقت من البحر ثم انتقلت إلى اليابسة. ومقولة أن جد الإنسان هو قرد مقولة صحيحة. ولكن من هو جد القرد؟ هو السمك... وأعتقد أنكم رأيتم صور الإنسان الأول في كتب التاريخ، فقد عاش في البحيرات وسكن في بيوت بناها في أعالي الأشجار.

فبادرني ابن الصغير قائلاً:

ـ ولكن يا أبي هل نحن الإنسان الأول.

فأجابه أخوه الأكبر:

ـ نحن لسنا الإنسان الأول ولكن قد نكون الإنسان الأخير.

فتدخلت لأحل الموضوع فقلت لهم:

ـ صحيح أننا سوف نسكن بالقرب من الماء ولكن سنعيش في البناء وليس على رؤوس الأشجار.

بالنسبة للإعلان منطقة البناء الذي اخترناه ستكون مأهولة جداً فالمدرسة الابتدائية والبلاج والكازينو الذي يبعد فقط مائة متر. والمستشفى كما أن المكان سيكون مليء بالحوانيت بالإضافة إلى السوق المركزي. والتيار الكهربائي فوق والهاتف أيضاً. أما المياه فهي من مياه الينابيع. أي أن هناك نبع لكل بيت والمياه محللة كيميائياً وهي أجود مياه في العالم.

كنا نزداد طرباً كلما قرأنا سطراً جديداً في الإعلان. ولولا شعوري بأن هيبتي ستتحطم أمام الأولاد لكنت رقصت من الفرح. لكن حماتي لم تحتمل الفرحة وبحجة أنها خارجة مس الباب بدأت تردد أغنية شعبية وهي (تفقش) بأصابعها وتهز بطنها.

فقلت لزوجتي وأنا في حالة من النشوة والانشراح.

ـ ياهو اعملي لنا قهوة من البن المخصص للضيوف.

يدا زوجتي كلها بركة. فقد عملت ثلاث فناجين قهوة واحد لي والثاني لها والثالث لحماتي من البن المخصص للضيوف وقالت:

ـ لم يعد لدينا بن. ولكنني لم أصدقها فهي لابد وأن خبأت بن الضيوف.

صحونا من النشوة ونحن نشرب القهوة فنحن نحتاج إلى مبلغ اثني عشر ألف وخمسمائة ليرة كدفعة أولى لكي يتم حجز الشقة التي اخترناها. ولكن أين الدراهم فقلت لزوجتي.

ـ أعطني مبلغ المائتين ليرة التي أعطيتها لكي يوم الأربعاء الفائت.

ـ آ... آ... أي مائتين ليرة لقد أعطيتني إياها منذ عشرة أيام ولم يبق

منها ولا مائتي قرش.

صرخت في وجهها قائلاً:

ـ من الصعب أن نتخلص من الإيجار وأنت مسرفة بهذا الشكل ولا تحسبين حساباً للمال.

ـ هل كنت ستشتري الشقة بمائتين ليرة؟

ـ الله الله... مائتين من هناك وخمسمائة من هنا نستطيع أن نكمل مبلغ اثني عشر ألفاً وخمسمائة ليرة.

ـ يا أولاد يوجد في صندوقي مبلغ ثلاثمائة ليرة كنت قد ادخرتها لجنازتي وكنت مصممة أن لا أعطيها لأي مخلوق في هذه الدنيا ولكن ما دام الأمر يتعلق بشراء سكن فإنني سأعطيكم إياها ديناً على أن تردوها لي عندما تسكنوا البيت الجديد.

قلت لابني:

ـ احضر ورقة وقلماً وابدأ التسجيل... ثلاثمائة ليرة.

ـ سجل تحتها مبلغ ألف ليرة أيضاً... فسألت زوجتي.

ـ من أين لك هذا المبلغ؟

ـ هذا المبلغ سآخذه من عملي بعد عشرة أيام.

ـ آ... آ... ونحن ماذا نأكل ونشرب؟

ـ دعي عنك الآن موضوع الأكل والشرب وفكري في أمر البيت الذي سيأوينا.

سجل ابني الألف ليرة فسألته:

ـ كم المجموع؟

ـ ألف وثلاثمائة ليرة...

ـ لقد هان الأمر ماذا بقي علينا؟

ـ إحدى عشر ألفاً ومائتي ليرة.

ـ سجل خمسمائة ليرة أخرى.

ـ وهذه من أين؟

ـ سنبيع الموسوعة التي لدينا.

ـ لا أدري ما فائدة الموسوعة... فقد قلت لك لا تشتريها... اشتريتها بألف وخمسمائة ليرة وتبيعها الآن بمبلغ خمسمائة ليرة.

ـ لم نرتكب خطأ عندما اشتريناها والآن نبيعها ونحصل على المال. سجل أيضاً مبلغ مائتين وخمسة عشرون ليرة.

ـ وهذا من أين؟

ـ صديقي حسني مدين لي بهذا المبلغ منذ اثني عشر سنة ولم يسبق لي أن طالبته بالمبلغ وسأطالبه الآن. كم المجموع؟

ـ ألفان وخمسة وعشرون ليرة.

ـ تذكرت يا بابا كنت تقول أن لك ديناً عند العم نجدت قدره مائة وثمانون ليرة.

ـ أحسنت يا بني لقد ذكرتني بالمبلغ. سجل مائة وثمانون ليرة.

وكأن الجو قد تحول إلى جو تبرعات فانبرت زوجتي قائلة:

ـ سجل من عندي مبلغ ثلاثمائة وخمسون ليرة.

ـ كيف تقولين بأن ليس لديك دراهم؟

ـ كنت قد ادخرتها لوقت الحاجة.

ـ ها... انتظر (شيناصي) مدين لي بمبلغ أربعمائة وخمسة وسبعون ليرة مضى عليه زمن طويل ولكن لا بأس... سجل... كم المجموع.

ـ ثلاثة آلاف وثلاثون ليرة.

ـ يا هو... ما رأيكم ببيع بعض العفش.

ـ وهل نملك عفشاً يمكن أن يباع. فلو أعطيته ببلاش لما أخذه أحد.

ـ لا تقولي هكذا... اكتب أنت ألفي ليرة قيمة عفش... ثلاثة آلاف سأقترضها من العم (هوايت)... سجل أربعة آلاف أخرى.

ـ وهذه مں أين؟

ـ سأقترضها مں صديقي صبري.

وهكذا اكتمل مبلغ اثنى عشر ألفاً وخمسمائة ليرة فقلت:

ـ أرأيتم. يجب على الإنسان أن ينوي أولاً: ثم يتكل على الله. لأن الله سيكون في عون كل من يشتري بيتاً.

لقد تبين لي في اليوم التالي أن حساب السوق لم يتوافق مع حساب الصندوق. إذ أننا لم نستطيع تحصيل اثنى عشر ونصف قرشاً. فلم يدفع أحداً الدين الذي عليه والثاني لم يتذكر والآخر قال لي:

ـ أنت مدين لي بخمسمائة ليرة من السابق.

حتى حماتي التي كانت متحمسة لإعطائي مصروف الجنارة غيرَّت رأيها وقالت لي:

ـ يمكن أن تترك جنازتي في الأرض عندما أموت.

لم أنم طيلة الليل وأنا غارق في التفكير. إلا أنه خطرت على بالي فكرة طلب سلفة راتب سنة كاملة من عملي.

كان هذا أفضل حل. أعطوني نقداً راتب سنة مقدماً عندما شرحت لهم بأنني سأشتري بيتاً. سُحِبتْ الدراهم من البنك. وسأدفع الفائدة المترتبة على هذا المبلغ.

انبرت زوجتي قائلة:

ـ وكيف سنتدبر مصروف الأكل والشرب طيلة عام كامل؟

ـ يا هو من يفكر بموضوع الأكل والشرب. دعينا نأخذ البيت أولاً وإلا سنبقى في الشارع.

ولأنني أخذت راتب سنة مقدماً بدا لي الأمر وكأنني سأعمل عاماً كاملاً بدون أجر أو أنني سأعمل ببلاش.

وضعت الدراهم في جيبي ونحن نطير من الفرح... ذهبنا جميعاً إلى المكتب المسجل في الإعلان. في الحقيقة لم أكن أرغب في اصطحاب الأولاد. ولأنهم كانوا فرحين جداً أصروا على المجيء معي.

كان هناك حافلة ستنقلنا في الساعة العاشرة من أمام المكتب إلى «جمعية عش البلبل السكنية».

كان يوجد في المكتب مجسم (ماكيت) للبناء الذي اخترناه. ومن فرط إعجابنا في البناء والذي اخترناه أصبحنا نقول بناؤنا وفي الحقيقة كانت جميع الأبنية والفيلات فخمة للغاية. بدأ الآخرون بالمجيء وأصبح العدد ستة عشر شخصاً. كان كل شخص بمفرده. أما نحن فقد جئنا جميعاً. أصبحت الساعة الحادي عشر وكان هناك أربع نساء إحداهن بدينة فانبرت قائلة:

ـ متى سيقوم الأتوبيس؟

ولما كان عدد القادمين قليل قرروا أن ينقلونا إلى المشروع بالتاكسي بدلاً من الحافلة فاستأجروا ثلاث سيارات تاكسي. انحشرنا بداخلها. وتحركت القافلة.

لم يكن في السيارة التي ركبناها سوى عائلتنا. سارت السيارة مدة طويلة وأصبحنا خارج حدود المدينة وبعد ساعة من مغادرتنا المدينة قلت للسائق:

ـ أمان يا أخي لعلنا غلطنا في الطريق. فحسب الإعلان فإن الطريق ليس بهذا البعد.

ـ لقد قالوا لي أن أتبع السيارات التي أمامي.

كانت السيارة التي تنقلنا تسير في المؤخرة وبعد أن سرنا مدة طويلة أيضاً لم أعد أحتمل فقلت للسائق.

ـ انتبه فربما تكون السيارات التي أمامنا قد ضلت الطريق.

أجابني السائق بانزعاج.

ـ أصحاب المشروع هم الذين يستقلون السيارة التي أمامنا.

وبعد ساعة أو ساعتين أيضاً انتابني القلق تماماً فهمست زوجتي قائلة:

ـ كان علينا أن لا نأخذ الدراهم معنا. سنتدمر إذا داهمنا أحد في رأس هذا الجبل وسرق منا الدراهم.

ولعل السائق لقد توهم أيضاً فقال:

ـ هل من الممكن أننا نتبع سيارة أخرى. فبدأ يضرب الزمور وهو يقود السيارة وسأل السيارة التي تتهادى أمامنا.

ـ ألم نصل بعد.

فصاح أحدهم من السيارة الثانية.

ـ بعد قليل.

كانت سيارتنا لا تزال تتبع السيارات الأخرى. فانحرفنا عن الطريق الإسفلتي إلى طريق ترابي وبعد أن سرنا في هذا الطريق الترابي بدأت السيارات تصعد سفح الجبل.

كان الطقس حاراً وأحسسنا بأننا سنشوى داخل هذه السيارة.. كان صوت محرك السيارة يهدر عالياً وكانت العفاريت تركب السائق كلما علا هذا الهدر وكان يشتم ويسب.

ـ ولك... هل دخلنا حدود محافظة (قوينه)؟ أم أننا وصلنا إلى سهل (هيمانا)...؟ كأننا هنا في مقر جهنم... ياهو هؤلاء الناس مجانين. أيمكن أن يسكن أحدهم في رأس هذا الجبل.

فأجابه ابني الصغير.

ـ ليس على رأس الجبل. بل على شاطئ البحر.

لم يبق أثر لأي طريق فبدأت السيارات تسير فوق الحجارة التي كانت تتطاير على جوانب السيارات. بعد قليل وقفت السيارة التي في المقدمة وبعدها الثانية وبعدها سيارتنا. نزلنا من السيارة وبعد أن أخذت نفساً طويلاً. قلت:

ـ انظروا إلى جمال هذه المناظر، فالظاهر أننا قد وصلنا إلى بيوتنا.

فسأل ابني:

ـ أين المناظر يا أبي.

ولأنني لم أحتمل أن يسفه أحداً الحي الذي سوف نسكنه صحت في وجه ابني قائلاً:

ـ ولك هل أنت أعمى. هذا المكان أشبه بالجنة. انظروا إلى جمال الطبيعة.

كان المكان الذي وقفنا فيه من الصخور المتفتة الحارة وكأن بعض الصخور تبدو ملتفة ومتشابكة مع بعضها. لقد كان نموذجياً لتعليم دروس الجيولوجيا فقالت زوجتي واللهب المنعكس من الصخور يلفح وجوهنا.

ـ ما أجمل هواء البحر وهو يهب علينا.

في هذه الأثناء كان صاحب المشروع قد دخل في عراك مع السائقين الذي أصروا على عدم السير خطوة واحدة بعد الآن. وكان أقل السائقين أدباً هو سائقنا فانبرى قائلاً:

ـ يا سيدي حتى البغل لا يستطيع صعود هذا الطريق فما بالك بالسيارة.

كان قد توطن في قلوبنا أمل على أن صاحب المشروع سيكون صاحب بيوتنا فانبرت السيدة البدينة قائلة:

ـ الطريق ميله لطيف للغاية، فهل من المعقول أن لا تستطيع السيارة صعوده.

فقالت حماتي بانزعاج:

ـ أنت سيدة على نياتك أين الميل في الطريق. وهل هذا يسمى ميلاً؟ إن الطريق مستو للغاية.

ولما أصر السائقون على موقفهم. قال لنا صاحب المشروع:

ـ أيها السيدات والسادة لم يبق سوى خطوتين. تفضلوا سوف نذهب سيراً على الأقدام والتفت إلى السائقين قائلاً:

ـ انتظروا هنا في مكانكم.

قال أحد السائقين:

ـ يا هو لا يمكننا الانتظار تحت أشعة الشمس المحرقة. وإلا فسوف تنفجر السيارات.

ـ (تختنقوها)... الهواء يهب كألسنة اللهب... انتبهوا ولا تقفوا في مهب هذا الهواء الساخن لكي لا يصابوا بالحمى الراشحة.

خلعت الجاكيت ووضعته على يدي. ولو عصرت هذا الجاكيت لملأ جردلاً من العرق.

صعدنا الطريق ونحن نقول بالله. كان الطريق في البداية طريق سيارات ثم أصبح طريق عنزات. وبعدها تلاشى أي أثر للطريق. وأصبحنا نسير في أراض وعرة ومتموجة... وكان الزبائن يتحدثون فيما بينهم عن جمال المناظر. لا أعلم كم سرنا عندما سأل أحدهم صاحب المشروع:

ـ في أي محافظة نحن موجودون الآن؟

نظر صاحب المشروع إلى هذا الزبون نظرة ملؤها الإزدراء فتدخلت أنا في الموضوع قائلاً:

ـ رجاءً أيها السيد هذا الموقع يعتبر في خاصرة استانبول.

ـ ماذا تقصد بكلمة يعتبر. هذا الموقع هو خاصرة استانبول فعلاً.

فاردفت قائلاً:

ـ لم أقصد شيئاً.

بعد أن صعدنا بعض التلال الوعرة وصلنا إلى أرض سيئة للغاية. كانت الأرض مليئة بالحجارة التي كانت تنزلق تحت أقدامنا كلما خطونا خطوة. قالت المرأة البدينة:

ـ لو نستريح في هذا الظل بعض الوقت.

كان «هذا الظل» الذي تحدثت عنه المرأة هو ظل صخرة متوهجة تكاد ألسنة اللَهْب تتصاعد منها. لو وضعت عليها بيضة لإنسلقت خلال دقيقتين. حتى أنك تستطيع أن تشوي سمكاً بسهولة على هذه الصخرة. فأجابت حماتي:

ـ لنعد سالمين إلى بيوتنا قبل أن نخطو أي خطوة أخرى.

لقد أحببنا كثيراً البيت الذي تصورنا أننا سنشتريه حتى أن حماتي كانت تقول عليه «بيتنا».

كنا نشبه الكشافون الأوائل الذين يكتشفون الصحاري التي لم تطأها رجل إنسان.

بدأ ابني الصغير يقول:

ـ آه لقد تعبت كثيراً.

فرد عليه أخوه الأكبر.

ـ اسكت. البيت على شاطئ البحر. وسوف نسبح حال وصولنا.

فأعاد بعد قليل.

ـ ولكنني عطشان.

فرد عليه أحد الأشخاص الذين يرافقوننا.

ـ انتظر قليلاً... فنحن على وشك الوصول... وهناك ستجد ماءً بارداً كالثلج.

بدأ (فريقنا) بالانهيار فحملت ابني الصغير ولكن ابنتي قالت:

ـ أنا أيضاً لم أعد أستطيع متابعة المسير.

فقالت حماتي:

ـ يا بنت ستأكلك الذئاب وتقطعك النسور وأنت في رأس الجبل.

فتدخل أحد المرافقين قائلاً:

ـ لا تقلقي يا خالة ففي مثل هذا المكان اللاهب لا يعيش ذئاب. هنا يمكن أن تعيش أسود أو نمور.

بعد تلك الطرق الوعرة والسفوح والهضاب. وصلنا إلى قمة جبل عال يصعب علي متسلقي الجبال صعوده. فانزعجت كثيراً والتفت إلى أفراد العائلة قائلاً:

ـ يا هو هل يمكن أن يأتي أحد إلى هنا بصحبة أولاد؟ كلُ جاء بمفرده. ماذا كنتم تظنون. هل كنتم تظنون أنكم ذاهبون في نزهة.

فانبرت زوجتي للدفاع عن الطريق المؤدي إلى البيت الذي سنشتريه قائلة:

ـ صحيح أن الطريق يصعد قليلاً. ولكن ذلك أحسن على أقل تقدير سوف تصبح أجسامنا رشيقة من الصعود والهبوط.

جماعتي بقوا في سفح الجبال وساعدتهم جميعاً في الوصول إلى قمة الجبل منهم من حملته على ظهري. وعلى صدري. وعندما أصبحنا في ذروة الجبل شاهدنا أمامنا سهلاً منبسطاً فقال صاحب المشروع.

ـ لقد وصلنا.

فقال أحد الزبائن:

ـ آ... آ... كم هو قريب؟

مسحت عيناي ونظرت إلى الاتجاه الذي أشار إليه صاحب المشروع فلم أر شيئاً. ولعل الآخرون نظروا كما نظرت ولا أظنهم رأوا شيئاً ولكن أحد الزبائن المتقدمين في السن انبرى قائلاً:

ـ أو... أو... إنه مكان جميل.

فردت المرأة البدينة.

ـ جميل جداً.

الجميع قال عن المكان جميل جداً ما عدا ابنتي وأولادي الاثنين. سألت البنت:

ـ بابا أين البناية التي سوف نسكنها؟

ـ أظن أننا سنراها عندما نجتاز الجبل.

قال الولد:

ـ بابا أين البحر؟

ـ بني هل يمكن هناك بحر في قمة الجبل؟ سنصل إلى البحر عندما نجتاز هذا الجبل.

بعد أن سرنا في السهل مسافة لا بأس بها شاهدنا بعض أكوام الحجارة. وفجأة قفز أمامنا رجلان لاستقبالنا كانت الأرض التي علي يمين الحجارة قد حفرت بعمق شبر تقريباً. فتكلم أحد هؤلاء الرجال مع صاحب المشروع قائلاً:

ـ هذا هو المكان يا سيدي.

فسألت صاحب المشروع قائلاً:

ـ المكان جميل جداً ولكن أين البنايات؟

ـ هنا يا سيدي... الباب مس هنا. وهناك باب آخر من الخلف. والطابق مؤلف من ثلاث شقق.

كان يخط بيده على المكان المحفور شبراً إلى أقسام المسكن.

ـ هنا غرفة النوم. هنا يوجد غرفة ثانية... المطبخ.

والتفت إلي قائلاً:

ـ أتود أنت شراء الطابق الرابع؟

ـ نعم.

فأشار بيده إلى الأعلى وقال:

ـ هنا شقتكم... هنا الحمام... الممرات عريضة جداً. غرفة الضيوف كبيرة.

ثم بدأ يشرح للجميع بآن واحد.

ـ هذه المجموعة من الأبنية تحتوي كل واحدة مىها على خمسة عشر شقة.

كانت عيوننا معلقة في الجو.

ـ لقد تم بيع إحدى عشر شقة من أصل الخمسة عشر.

كنا نلتفت برؤوسنا إلى الطرف الذي يشير إليه بإصبعه في الهواء وعيوننا معلقة بهذه الإصبع كمن يراقب ذبابة وهي تطير.

ـ لم يبق سوى أربع شقق للبيع.

وكأنه هو الذي يرى العمارة فقط ونحن لا نراها رغم ضخامتها.

ـ الشقق المتبقية إحداها ثلاث غرف أما الثلاث الأخرى فأربع غرف وأنتم كما تشاهدون فإن المواد الأولية المستخدمة في المشروع من النوع الجيد.

لم يتكلم أحد من الزبائن لأنهم ربما كانوا مثلنا يعانون أزمة السكن الخانقة فقلت لصاحب المشروع:

ـ كنا نظن أن البنايات قد تم بناؤها.
فانبرى صاحب المشروع:
ـ أين يا سيدي؟ هل كنت ستجد مكاناً خالياً لو انتهت أعمال البناء؟
غضب أحد الزبائن مما قلته وكأن الشقة التي سيشتريها قد طارت من يده وأجابني:
ـ أين ستجد مثل هذه الشقة؟
ـ ما شاء الله... إن هذا الأفندي يفتش عن عمارة جاهزة...
فقلت:
ـ مكتوب في الإعلان أن محطة القطار على بعد دقيقتين.
فقال صاحب المشروع:
ـ هذا عائد لقوة أرجلكم. فلو ركضتم بسرعة فيمكن أن لا تستغرق حتى الدقيقتين.
وأشار بيده إلى مكان مجهول وقال تفضل هذه هي محطة القطار،.
فقلت هذه المرة:
ـ هل يمكن أن نعتبر أن القطار يمر من أمام العمارات فقال:
ـ إن العمارة أقرب إلى القطار من المحطة.
فسأل الرجل المسن:
ـ أين المناظر؟.
فأجابه أحد الزبائن:
ـ لا... المنظر ليس عليه كلام أبداً.
فقال صاحب المشروع:
ـ هذا لا شيء ـ انتظروا حتى حلول الليل وشاهدوا المناظر في ضوء القمر.

فقالت إحدى الزبائن:

ـ هذا واضح فالمنظر لا يمل أبداً.

كان ابني الصغير لا ينفك عن طلب الماء فقلت لصاحب المشروع:

ـ مكتوب في الإعلان أن المشروع فيه ماء.

فصاح صاحب المشروع لأحد العمال الذين استقبلونا قائلاً:

ـ احضر ماءً:

هرع الرجل إلى بئر عليه بكرة وأدلى بالدلو وهو يقول:

ـ لا يوجد أطيب من الماء في هذا المكان... وكل بيت يستطيع أن يحفر بئراً وسوف تخرج الماء بعد أن يحفر خمسين أو ستين متراً. وأي ماء؟ ماء كالشراب لا يسبب أي نفخة في المعدة وتهضم كل ما تأكلونه. فهي ليست كالماء العادية. بل هي مياه غازية مباركة. ثم مهما كان لدى أحدكم رمل أو بحص أو أي أذى فإنه سيخرج منه بمجرد أن يشرب هذا الماء.

كان الرجل الواقف عند البئر لا يفتأ عن كر الحبال فصاح لزميله:

ـ ولك أحضر لنا حبلاً آخراً.

ركض صديقه وأحضر لفة من الحبال. فربطوها في الحبل الذي في رأسه الدلو وبدأ بكر الحبال إلى أسفل البئر ولما لم يصل الدلو إلى الماء قال الرجل الواقف عند البئر:

ـ الماء قليلاً هذا اليوم. احضر حبلاً آخر.

فأحضر زميله لفة أخرى من الحبال وربطوها أيضاً فقال الرجل:

ـ هنا لا توجد أزمة مياه كما هو الحال في المدينة. يكفي أن تركب مضخة صغيرة وسترى الماء تهدر هدراً.

تجمعنا حول البئر وألسنتنا ملتصقة بسقف حلوقنا من شدة العطش فقال العامل الذي يُدلي بالحبال:

ـ يا هو لقد هرب الماء. احضر حبلاً آخر.

فجاء زميله بلفة أخرى من الحبال فقال أحد الزبائن.

ـ أزمة المياه معروفة في المدينة. وهنا لا توجد أزمة مياه. يكفي أن لا يكون هناك أزمة حبال. لذلك يتحتم علينا أن نحتاط في بيوتنا فنخزن كميات كبيرة من الحبال.

فأضاف زبون آخر:

ـ يمكن أن يكون هنا أزمة حبال.

فقال العامل الذي على رأس البئر:

ـ ما بال هذا البئر اللعين هل ثقب مقره هذا اليوم. ولك هات لفة أخرى، جيء بلفة حبال أخرى وربطت في رأس الحبل المعلق به الدلو وبدأ كر الحبال أيضاً وبعد أن سمعنا صوت ملامسة الدلو لسطح الماء قال صاحب المشروع:

ـ هل سمعتم الصوت... أي صوت... إنه الماء اللذيذ يعطي صوتاً كالذي سمعتموه.

بدأ العالم بسحب الدلو إلى الأعلى ولما كان وزن الحبل أكبر من وزن الدلو لأنه طويل جداً فقد تعب العامل فجاء صديقه وبدأ يكمل سحب الدلو. أما ولدي الصغير فكان لا يفتأ قائلاً:

ـ بابا أريد ماءً.

تعب العامل الثاني من سحب الدلو فأعطى النوبه لصديقه. وأخيراً خرجت الدلو ولكنها فارغة فقال العامل:

ـ أف... الدلو مثقوب... والماء هربت من الثقوب...

لم تكن الدلو فارغة تماماً. فمدت المرأة البدينة رأسها في الدلو وكادت تموت من العطش. وبدأنا نسمع صوت الماء يسري في بلعومها. بعدها

جاء أحد الزبائن وأدلى برأسه أيضاً في الدلو وبعدها أتى الآخرون وكل من شرب من تلك الماء كان يقول:

ـ أوه... ماء كالسكر... بارد... مبارك.

أدلو بالدلو ثلاث مرات وشرب الجميع وشربت أنا أخيراً.

لا كلام على الماء فملح الإنكليز أو الزيت الهندي يعتبر (ليموناده) بالنسبة لهذا الماء. ولا يعيب هذا الماء سوى أن لونه بني غامق وملوث بالطين. فكنت ترى اثار الطين على شفاه كل من شرب فمسحت الطين من فمي بيدي وأنا أقول:

ـ هذا ليس ماءً. إنه شيء مبارك... ماء الحياة.

سألت السيدة البدينة:

ـ مكتوب في الإعلان أن أطراف المشروع مأهول بالسكان.

فأجاب صاحب المشروع:

ـ طبعاً مأهول. ألا ترين هؤلاء الرجال فهم يمكثون بشكل دائم هنا.

وأشار إلى خيمة العاملين اللذين يعملان لديه.

ـ أين الطريق المعبد الموجود في المخططات؟

ـ سيمر طريق الإسفلت من هنا بعد انتهاء المشروع...

فانبرى أحد الزبائن ممن اكتوى بأزمة السكن للدفاع قائلاً:

ـ لا يوجد حاجة للطريق المعبد. ما شاء الله جميع الأراضي المحيطة بالمشروع كالخرسانة.

ـ أين المدرسة؟

ـ ألا ترون هذه الكومة ستُبنى المدرسة خلفها... على يمينها الجامع وخلف المدرسة المستشفى... والكازينو هناك... أما السوق فسيكون

وسط الحي السكني.

عندئذ قالت المرأة البدينة:

ـ أمان ممتاز جداً المكان قريب بمجرد أن تنادي على البقال سيحضر لك ما تشاء.

سأل ولدي الكبير:

ـ أين البحر؟

فتذكرت حماتي وسألت:

ـ صحيح وأين الشاطئ فالحمام الرملي مفيد لأمراضي الروماتيزمية.

فأجاب صاحب المشروع:

ـ هذا المكان مناسب جداً لك يا خالة ألا ترين البحر.

فبدأ كل واحد منا ينظر باتجاه ولم يشاهد أحدنا البحر. فقال صاحب المشروع:

ـ أيها السادة يمكن مشاهدة البحر من الطوابق العلوية. كما أن السطح واسع جداً والبحر مشاهدته متاحة لكل من يريد.

ـ ألا يمكن مشاهدته من الطوابق السفلية؟

ـ يمكن مشاهدته. فبحر مرمرة تحت أقدامكن. حتى أنه يمكنكم رؤيته من هنا إذا قفزتم بضعة أمتار في الهواء. انظروا هناك كله بحر...

المرأة البدينة:

ـ شيء يأخذ بالألباب. الحقيقة أن البحر جميل جداً.

فقال أحد الزبائن ممن يضعون نظارة لضعف البصر. وكأنه قد شاهد كل شيء ما عدا البحر.

أنا لا أستطيع رؤية البحر.

فقال صاحب المشروع:

ـ تحتاج إلى منظار صغير.

فسألت المرأة البدينة:

ـ هل تعطون المنظار مع كل شقة؟

فرد صاحب المشروع:

ـ نحن لا نعطي منظاراً. يجب أن تشترونه أنتم. يكفي أننا جلبنا الكهرباء للمشروع.

ـ أين الكهرباء؟

ـ لقد تم عمل جميع الأساسات ولم يبق سوى غرس الأعمدة وشد الأسلاك...

سررنا جميعاً. بعد ذلك أخرج صاحب المشروع مخططاً موضح عليه المقاسم العائدة للمشروع ومؤشر على أغلب هذه المقاسم بالأحمر وقال لنا:

ـ انظروا البيوت في المقاسم المؤشر عليها باللون الأحمر قد بيعت. اختاروا المسكن الذي ترغبونه في الأماكن الخالية المتبقية.

سأل الرجل الذي يضع النظارات:

ـ متى ستنتهي البيوت؟

ـ يا سيدي البيوت... الآن يجب أن تدفعوا اثنى عشر ألفاً. وثلاث آلاف ليرة عند انتهاء الطابق الثاني... وعشرة آلاف عند انتهاء الطابق الثالث، وأربعة آلاف عند انتهاء الطابق الرابع... وألفان عند ابتداء أعمال النجارة وعشرة آلاف عندما يتم تغطية السقف وتركيب الزجاج.. وعند السكن خمسة آلاف... والباقي تدفعونه بالتقسيط على مدى ثمانية سنوات.

ـ خذ يا بني اثنى عشر ألف ليرة من كل شخص وأعطه إيصالاً.

السيدة البدينة:

ـ لكن إعلانكم ليس كما تقول.

فقال الرجل ذو النظارات:

ـ مكتوب في الإعلان أن الدفعة الأولى اثنى عشر ألف ليرة والباقي بالتقسيط.

ـ نحن نقول نفس الشيء. خمسة آلاف عند حفر الأساسات. عند انتهاء الأساسات... كله تقسيط.

الحقيقة أننا أحسسنا هذا المشروع الحلم ولم نر فيه أي عيب حتى قبل أن تبدأ أعمال الأساسات لأننا كنا جميعاً نعاني من أزمة السكن. لكننا انزعجنا كثيراً عند طلب الدراهم.

فقال أحد الزبائن:

ـ لا يوجد هنا أي منظر يمكن مشاهدته.

وأضافت المرأة البدينة:

ـ لم نعد نهتم بالمناظر، لكن أين البحر...؟ أين الطريق...؟

وأضاف آخر:

ـ لا يوجد ماء... ولا كهرباء... لا يوجد هنا شيء البته...

فقلت:

ـ حتى البيت غير موجود. فلو كان البيت موجوداً لقبلنا كل شيء.

وذهبنا جميعنا دفعة واحدة إلى المكان الذي تركنا فيه السيارات وفي الطريق قررنا أنه لا يمكن لأحد منا أن يستطيع السكن في هذا المكان. وصلنا إليه ونحن منهكين وعلمنا أن أحد السائقين لم يستطع الانتظار

فركب سيارته وذهب. فاضطررنا إلى أن نركب جميعنا السيارتين المتبقيتين. ولم نصل إلى المدينة إلا في منتصف الليل.

في اليوم التالي ذهبنا إلى مكان آخر شاهدنا إعلانه في أحد الصحف وكان اسم المشروع «جمعية المائة وإحدى عشر السكنية» وكان موقع المشروع أسوأ من المشروع الأول.

مضى علينا ثلاثة أشهر ونحن نبحث عن مسكن والدراهم لا زالت في جيوبنا البارحة سألت زوجتي:

ـ كم المبلغ المتبقي معنا؟

ـ ألف وثلاثمائة وثمانون ليرة بالتمام والكمال.

قلت لزوجتي مع أن رأسي لا يتحمل المشروب أبداً.

ـ أرسلي أحدهم ليجلب لنا زجاجة عرق وأعدي لنا مائدة شهية. فنفسي تطلب المشروب.

قالت زوجتي التي لم تذق طعم المشروب في حياتها؟

ـ أنا نفسي تطلب المشروب أيضاً.

حتى حماتي التي كانت تقول إن من يتعاطى الخمر سيحترق بنار جهنم قالت:

ـ دخيلكم إحسبو حسابي بقدح صغير. يقال أنه جيد لوجع الرأس.

البيت الذي نعيش فيه الآن سيتم بيعه. ونحن لم نجد بيتاً آخر وسلفة عام كامل التي أخذتها من المكان الذي أعمل به قد انتهت يعني أنني سأعمل عام كامل بدون أجر... دع عنك يا رجل.

ـ يا لله بصحتكم... أيها السيدات والسادة.

* * *

تحت تصرف الوزارة

لا تؤاخذوني أود أن أعطيكم أولاً بعض المعلومات عن المعني المقصود بأن يكون أحد الموظفين تحت تصرف الوزارة. فمن المعروف أن ثلثي الموظفين ينهون حياتهم الوظيفية، إما بالتقاعد أو التسريح، أما الثلث الآخر فإذا بقي في الوزارة التابع لها، فيقال لمثل هؤلاء بأمر الوزارة أو «تحت تصرف الوزارة» ومثل هؤلاء الأشخاص يتقاضون فقط ثلث راتبهم الأصلي. ولا يطلب منهم أي عمل. كما لا يسمح لهم بمزاولة أي عمل آخر خارج الوظيفة تحت طائلة المسؤولية ومحاكمتهم أصولاً. وإذا ثبت نتيجة المحكمة أنهم بريئون فإما أن يعادوا مرة ثانية إلى الوظيفة أو لا يعيدوهم. وقليلاً منهم من أعيد إلى وظيفته بعد براءتهم أما الباقي فقد سرح بعد تلفيق بعض العبارات الغامضة مثل «عدم الحاجة».

ولأن ما جرى كان بسبب جهل الكثيرين معنى (تحت تصرف الوزارة) لذا فقد اضطررت لتوضيح هذا الأمر.

أصبحت (تحت تصرف الوزارة) وكنت أعلم أن نهايتي لن تكون سعيدة، ورغم قناعتي بأنهم سوف لن يحيلوني إلى المحكمة إلا أنهم لابد وأن يلفقوا لي بعض الأسباب لكي يطردوني من الوظيفة. وهذا ما حصل فعلاً. فقد قاموا بإلغاء الوظيفة التي كنت أعمل بها من أساس الكادر الوظيفي ولم يعد هناك حاجة لي وبقيت في الخلاء كالهيدروجين.

في الفترة التي كنت فيها (تحت تصرف الوزارة). لم يطلب مني أي عمل فقلت في نفسي لأقوم بزيارة إلى الأناضول. حيث أن لي زميلاً من أيام الدراسة قد أصبح محافظاً في إحدى محافظات الأناضول الأوسط..

وكان هذا الزميل يلح علي كثيراً في رسائله لأقوم بهذه الزيارة. وبما أنه لم يسبق لي زيارة تلك المناطق ولأنني تحت تصرف الوزارة قررت القيام بهذه الزيارة.

كانت الزيارة في أحلك فترات الحرب العالمية الثانية فقد كان كل شيء يوزع على الناس بواسطة قسائم. الخبز.. السكر.. الكاز. كل شيء بالقسائم ما عدا النساء لأن عددهم كان كثيراً في ذلك الوقت.

اصطحبت حقيبة سفر صغيرة وسافرت إلى المدينة التي كان فيها صديقي محافظاً وصلت إلى مقر المحافظة فقالوا لي أن هناك اجتماعاً. وعندما دخلت إلى غرفة زميلي المحافظ كان لديه عدداً من الأشخاص فلما رآني عانقني بحرارة وأخذني بالأحضان وقدمني إلى الأشخاص الستة اللذين كانوا موجودين في الغرفة قائلاً:

ـ زميلي في الدراسة. كان أكثرنا اجتهاداً وبدأ يمتدحني و(ينفخني) كثيراً لدرجة أنني خجلت لأنني أصلاً خلقت خجولاً. كان صديقي يكثر من مديحه لي لكي تصيبه حصة من هذا المديح. وكان يود أن أبادله هذا المديح وأرفعه إلى السماء. كما كان يريد إفهام الأشخاص الستة «أن صديقي هذا رجل محترم جداً...» استمر في مديحه لي وكان كلما ازداد في المديح ازددت أنا خجلاً.. حتى أنني لم أستطع أن أفتح فمي سوى بكلمة «استغفر الله».

كان صديقي المحافظ لا يكف عن المديح وكان لا يكترث بباقي الحضور رغم أنهم على ما يبدو من صغرة القوم ومن الأغنياء المعدودين في تلك المحافظة. وكان ذلك واضح من لباسهم الأنيق وطريقة حديثهم. ولعلهم جاءوا إلى المحافظ ليبحثوا معه بعض منافعهم الشخصية.

بعد أن أطال صديقي بالمديح سألني:

ـ كيف صار حتى استطعت المجيء؟

ـ لا تسأل فأنت تعلم كم كان وقتي ضيقاً وكيف أنني كنت لا أجد وقتاً لأحك فيه رأسي من ضغط العمل. أما الآن فقد وضعت «تحت تصرف الوزارة» وأردت الاستفادة من هذه الفرصة وقمت بهذه الزيارة.

انقلبت سحنة زميلي المحافظ مجرد سماع كلمة (تحت تصرف الوزارة) وتغيرت تصرفاته فجأة. أما الأشخاص الستة فقد أظهروا اهتماماً كبيراً رغم عدم اكتراثهم بوجودي من قبل. حتى أن أحدهم قال لي باحترام شديد.

ـ يا... يعني ذاتكم العالية تحت تصرف الوزارة؟

ـ قلت نعم.

ـ أهلاً وسهلاً بكم في محافظتنا... كان مجيئكم مفاجأة لنا. ـ لماذا لم تخبرونا مسبقاً. نحن نعتذر لأننا لم نتمكن من استقبالكم.

وأضاف شخص آخر قائلاً:

ـ سوف نعتبر ذاتكم العالية ضيفاً لهذه المدينة.

ولكن سحنة صديقي المحافظ قد انقلبت فجأة. وكنت أفهم من وجهه ما يدور في خلده فقد كان يفكر أن زيارة صديق له موضوع تحت تصرف الوزارة أمراً يمكن أن يضعف من وضعه الحكومي، ثم التفت إلي وسألني:

ـ متى ستسافر؟

ـ لم يمض على وصولي سوى بضع ساعات. سأمكث بضع أيام ثم أسافر.

قال أحد الأشخاص الستة:

ـ أمان. يا سيدي. أنت ضيفنا وسوف لن ندعك تسافر بهذه السرعة.

لم أستطع أن أتفهم الموقف. فلعل هؤلاء الأشخاص لهم نظرة مخالفة

للموضوع. لذلك فإنهم يبدون مثل هذا الاحترام الشديد للشخص الذي يوضع تحت تصرف الوزارة.

لم أعد أطيق النظر إلى سحنة صديقي المحافظ فقلت له:

ـ سأبحث بنفسي عن فندق؟

فأجابني بطرف فمه؟

ـ مر علينا عندما تنوي السفر.

ولم يتحرك من مكانه وأنا أهم بالخروج من الغرفة. أما الأشخاص الستة فقد ودعوني بمزيد من الاحترام حتى خروجي من الباب.

ذهبت إلى أكبر فندق في المدينة وفيما كان كاتب الفندق يسجل هويتي الشخصية سألني:

ـ ما هو عملكم..؟

ـ قلت (تحت تصرف الوزارة).

قفز الكاتب من مكانه واقفاً بعد أن زر جاكيته وقال:

ـ لقد منحت فندقنا شرفاً كبيراً يا سيدي.

وأخذ الحقيبة من يدي وأوصلني حتى غرفتي وسألني:

ـ هل تأمرون بأي شيء يا سيدي؟

ـ قلت أستغفر الله.

بعد أن ألقيت نظرة على المدينة من نافذة الغرفة، خرجت من الفندق، كان كل من يراني يسلِّم علي بمزيد من الاحترام. وكنت أسمع باستمرار صوت الهمسات.

ـ هذا تحت تصرف الوزارة..

ماذا حصل. فأنا لم أعد أستطيع أن أفهم مظاهر هذه الحفاوة.

في تلك الأيام كان كل شيء نادر حتى الخبز. المطاعم كان لا يوجد فيها خبزاً كانت الناس تزدحم أمام الأفران بكثرة. فوقفت أيضاً أمام الفرن وفيما أنا كذلك وقف بجانبي أحد الحراس وأخذ لي تحية رسمية وقال لي:

ـ تفضل يا سيدي..

وفتح لي طريقاً وسط الزحام وهو يدفع الناس على اليسار واليمين فقال أحدهم: ـ يا هو ـ ما هذا العمل؟ نحن ننتظر هنا منذ الصباح.

فدنا منه الحارس وهمس في أذنه قائلاً:

ـ اخرس... ما هذا الهراء... هذا رجل تحت تصرف الوزارة.

دخلنا الفرن فقال الحارس لصاحب الفرن وهو يشير علي:

ـ هذا السيد تحت تصرف الوزارة أرسل له للفندق كل يوم ما يحتاجه من الخبز فقال صاحب الفرن:

ـ طبعاً ـ على العين والرأس.

خرجت من الفرن وذهبت إلى المطعم كان الخبز الذي يؤكل في ذلك الزمان. خبزاً أسوداً مصنوعاً بقليل من طحين الحنطة الممزوج بكثير من مسحوق الشعير والتراب. أما الخبز الذي كان أمامي فناصع البياض كالقطن.

كنت أسمع الناس يتهامسون علي وأنا أتناول الطعام.

ـ لا بد وأنه قد أتى في مهمة تفتيش.

ـ لقد جاء بدون أن يخبر أحداً.

ـ لقد هبط فجأة.

ـ طبعاً.. هكذا يجب أن يكون الشخص عندما يكون تحت تصرف الوزارة.

بعد أن انتهيت من تناول الطعام، لم يأخذ النادل مني قيمة الطعام، حتى أن صاحب المطعم دنا مني وهو منحنياً وقال لي:

ـ أمان يا سيدي في كل أربعين سنة يأتي إلى مدينتنا رجل تحت تصرف الوزارة. أنتم ضيوفنا ولا يمكن أن نأخذ منكم أي قرش. حاولت أن أفهمه الوضع فقلت له:

ـ يا هو. أنا تحت تصرف الوزارة ولكن... فقاطعني قائلاً:

ـ نعرف يا سيدي أنك تحت تصرف الوزارة.

ولم أستطيع أن أدفع قيمة الطعام بشكل من الأشكال.

في ذلك اليوم قررت مغادرة المدينة فوراً فذهبت بعض الظهر إلى المحافظ وكان بمفرده في الغرفة وقلت له:

ـ كنت أنوي البقاء بضعة أيام ولكني عدلت عن ذلك وأنا مسافر اليوم.

ـ فأجابني والله هذا شأنك.

ونظر إلى ساعته وقال لي:

ـ هناك أتوبيس سينطلق بعد نصف ساعة من محطة السفريات.. وهذا أتوبيس يمكن أن يقلك إلى المحطة. وهو لا يذهب إلى المحطة سوى مرة واحدة في اليوم.

فنهضت وأنا أهم بالذهاب فقال لي:

ـ انتظر.. سأرسل معك شخصاً لمرافقتك حتى الأوتوبيس لأنك لا تعرف الطريق.. وفهمت أنه يريد أن يتأكد من مغادرتي والتخلص مني فضغط على زر الجرس وقال للموظف الذي أتى:

ـ خذ هذا السيد حتى الأتوبيس وودعه.

ثم قال للموظف وكأنه يلمح له بأن يحتاط للأمر.

ـ السيد تحت تصرف الوزارة.

وكان يريد أن يوجه الموظف لكي يراقبني بشكل جيد. خرجنا من غرفة المحافظ ولكننا لم نتمكن من الخروج من باب قصر المحافظة بشكل من الأشكال فعندما وصلنا الباب الخارجي انحنى الرجل قائلاً:

ـ تفضل يا سيدي.

فقلت له:

ـ رجاء تفضل أنت.

الحقيقة أنني لست لطيفاً لهذه الدرجة.. ولكن عندما تجد أمامك شخصاً بهذا اللطف فلا بد أن تتصرف بلطف أيضاً. فأجابني الرجل:

ـ والله لا يمكن ـ أسترحمك أن تتفضل أولاً.

ـ فقلت لا يمكن أبداً تفضل أنت أولاً أيها السيد.

ـ إنني أخجل يا سيدي المحترم. لتتفضل ذاتكم العالية أولاً.

ـ قطعياً. لا يمكن.

ـ أمان يا سيدي.

ـ من فضلك.

ـ أقبل رجليك. لتمر أنت أولاً.

ـ لأكون عبدك. تفضل أنت.

ـ لا يجوز يا سيدي. أتوسل إليك تفضل أنت.

ـ والله لن أتفضل.. إذا كنت تحب الله مر أنت.

ـ هذا عيب.

ـ لا يمكن.. لا يمكن. يجب أن تمر أنت.

ـ بأمرك.. ولكن تفضل أنت أولاً.

ـ أنت تخجلني.

ـ الذي يجب أن يخجل محسوبكم.

نظرت إلى ساعتي كان قد بقي عشرون دقيقة حتى ينطلق الأتوبيس فقلت له:

ـ يا هو.. سوف ينطلق الأتوبيس مر من هنا وخلصنا.

انحنى الرجل حتى كاد يلامس الأرض.

ـ خادمكم يا سيدي... على الرأس يا سيدي.. وكان يخرج من الباب وهو يرجع إلى الوراء ووجهه ملتفت لي... وخرجت أنا بعده.

لكننا هذه المرة لم نستطع أن نسير بالطريق ولا بأي شكل. كان الرجل على بعد ثلاث خطوات من خلفي وعلى اليسار فقلت له:

ـ هذا عيب أيها السيد.. رجاء تقدم إلى جانبي.

ـ تفضل أنت وأنا أسير خلفك.

لم أتعود أن أدع أحد يسير خلفي، لأنني أخجل من ذلك حقيقة فرجعت إلى الوراء ثلاث أو أربع خطوات حتى أكون بجانبه. فتراجع هو أيضاً وترك بيننا ثلاث أو أربع خطوات. رجعت أيضاً إلى الخلف يساراً فتراجع هو أيضاً إلى الخلف يساراً. فالتفت إلى الرجل وقلت له:

ـ يا هو تعال إلى جانبي ودعنا نسير مع بعض.

ـ فقال لي استغفر الله يا سيدي. مخدومكم لا يمكنه السير بجانب ذاتكم العالي.

ـ يا أخي أنا موظف تحت تصرف الوزارة.

ـ أعرف ذلك. إن شاء الله تترفع أكثر.

رجعت إلى الخلف يساراً مرة أخرى فعمل نفس الشيء.

ـ أرجوك تعال إلى جانبي.

ـ أنت شخص كثير التواضع، لكنني لا أستطيع أن آتي إلى جانبك، فإذا شاهدني أحد سيعيب على مخدومكم كثيراً.

ـ تعال سوف لن يراك أحد. سنسير في الشوارع الخلفية.

ـ اعذرني يا سيدي.

ـ تعال يا هو.

ـ لا أستطيع يا سيدي.

خطر في بالي أن أقفز إلى الوراء وأُمسك بالرجل فقفزت إلى الوراء فإذا به قد قفز قبلي كالضفدع. وكان يحافظ على الثلاث أو أربع خطوات التي بيننا. كنا نسير دائماً كل ثلاث خطوات إلى الخلف يساراً. وعوضاً عن أن يكون بناء المحافظة خلفنا أصبح أمامنا. انحرفنا يساراً نحو أحد الأزقة وكنت كلما رجعت إلى الخلف يساراً رجع هو الآخر حتى أصبح الأمر وكأنه عناداً فقلت له.

ـ يا هو تعال إلى جانبي سوف يفوتنا الأتوبيس.

ـ ليذهب الأتوبيس. ولتذهب الطائرة أما أنا فلا يمكن أن آتي إلى جانبك.

قلت في نفسي لأركض وأمسك به على أقل تقدير. لاحظ ذلك وهرب نسينا الأوتوبيس وبدأت أركض خلف الرجل وتجمهر الناس وهم يتفرجون علينا. فقلت للرجل بعدما يئست من إمساكه.

ـ تعال إذا كنت تحب الله.

ـ على رأسي سآتي.

ـ ولكنك ستأتي إلى جانبي.

ـ سأسير خلفك يا سيدي.

ـ كما تريد فأنا سأذهب لوحدي.

بدأت أسير. فتابع سيره خلفي.

ـ يا هو اتركني يا أخي. هل حللت كالبلاء على رأسي.

ـ لن أدعك حتى أودعك وإلا فإن المحافظ سيغضب مني كثيراً.

تجمع خلفنا من جراء تلك المطاردة جمهرة من الناس. وصلنا جميعاً إلى الأتوبيس فأعطوني أول مقعد. وفهمت من همس الركاب، أنهم ظنوا بأن الشخص الذي كنت، أطارده قد ارتكب عملاً سيئاً قال أحد الركاب:

ـ طبعاً لو كان كل الذين تحت تصرف الوزارة مثله لصلحت أمور البلد.

ـ لو كان صبري بك قد شاهد هذا الإنسان المطارد لأنهال عليه ضرباً في وسط الشارع.

ـ كم هو رجل شجاع.

ـ تحرك الأتوبيس ونجوت أنا.

* * *

هل هذا هو الحرامي

تقابلنا في الباخرة وكان العرق يتصبب منه فسألته:

ـ ما هذه الحال التي أنت عليها؟

ـ ألا تعرف ماذا جرى على رأسي؟

ـ لا... خيراً ما الذي جرى؟

ـ يا هو.. لقد وقعنا في ألسنة الناس فأنا أفتش منذ عدة أيام على بيت لأسكن فيه. وحتى إذا غيرت بيتي الجميل الذي اسكنه لا فائدة. فأنا لا أستطيع أن أخفي أثري مهما عملت. الهروب إلى أوروبا أفضل شيء..

في الحقيقة ظننت أن صديقي هذا واقع في ورطة وأن الشرطة تبحث عنه فسحبته إلى أحد أركان الباخرة وهمست في أذنه قائلاً:

ـ هل أستطيع مساعدتك؟

ـ أنت. لا. حتى إذا جاء الخضر عليه السلام لا يمكنه مساعدتي.

ـ هل ارتكبت جناية ما؟

ـ لا ياليتني كنت ارتكبت جناية.

ـ قل لي من يلاحقك فلعلي أستطيع إخفاؤك في مكان ما.

ـ أشكرك ولكن ذلك غير ممكن.

ـ إذن أفهمني ماذا جرى لك.

ـ سأشرح لك الموضوع، أنت تعرف البيت الذي نسكن فيه.

ـ أعرفه.

ـ لقد تركناه.

ـ آ.. آ.. واه.. واه هل من المعقول أن تتركوا مثل ذلك البيت الجميل؟ لا تؤاخذني لقد ارتكبت حماقة كبيرة.

كانوا يسكنون في بيت جميل جداً والبيت واسع وله حديقة وإيجاره مائتان وخمسون ليرة فقط.

ـ لم نترك البيت بمحض إرادتنا. بل رغماً عنا.

ـ هل أخرجكم صاحب البيت؟

ـ لا.

ـ هل تم استملاك البيت؟

ـ لا.

ـ حسناً. لماذا خرجتم إذن؟

ـ في الصيف قبل الصيف الماضي. دخل بيتنا لص. فأخبرت قسم الشرطة فسألوني هل تعرف اسم هذا اللص؟ فقلت لهم لا أعرف لا اسمه ولا عنوانه. فأرسلوا إلى البيت شرطي له خبرة في مثل هذه الأمور. فسألنا الشرطي عدة أسئلة أجبناه عليها. أخيراً حصل الشرطي على بعض الأدلة من آثار اللص. والأشياء المسروقة. وبدأ يُفهمنا من هو اللص.

ـ اللص مدمن على التدخين فهو يدخن من أربع إلى خمس علب سكاير يومياً ومن النوع الفلاني.

فسألت الشرطي الذي يبحث عن اللص ابتداء من السيكارة.

ـ كيف عرفتم ذلك؟

فأشار إلى صحن السكاير الذي يحتوي على عدة (عقوب) من السكاير.

ـ اللص قصير القامة.

ـ كيف عرفتم ذلك؟

ـ لأنه وضع تحت رجليه طاولة صغيرة لكي يصل إلى الرف. وهو يكثر من شرب الشاي ولقد شرب الشاي في المطبخ. وهو إنسان مثقف ويهوى قراءة الكتب. ويعرف اللغة الإنكليزية. فقد قلَّب الكتب الإنكليزية الموجودة في المكتبة.

وتابع الشرطي وهو يجد الآثار واحد تلو الآخر قائلاً:

ـ لقد جلس على هذه (الكنبة) ودخل هذه الغرفة.

كانت الغرفة التي أشار إليها الشرطي هي غرفة نومي.

ـ وهو بدين، ويلبس حذاء قياس ٣٩.

ثم انتقل إلى حالة اللص النفسية فقال:

ـ دقيق جداً.. عنيد.. فوضوي.

فصاحت زوجتي في وجه الشرطي غاضبة:

ـ إنَّ كل التفاصيل التي شرحتها سابقاً تُعرف فيها زوجي.

ولو لم ندافع عن أنفسنا أمام الشرطي لكان وضع (الكليشة) في يدي وقادني إلى قسم الشرطة على أساس أنني أنا اللص.

في الليلة التالية دخل إلى بيتنا لص أيضاً. ولعله اللص السابق فذهبنا إلى قسم الشرطة وشكونا أمرنا فقالوا لنا:

ـ هل تعرفون اللص؟

ـ قلنا لا نعرفه.

سألونا هذه المرة.

ـ فبمن تشتبهون إذن؟

هنا اختلطت الأمور علينا، فوالدتي تشتبه بجميع سكان الحي. أما أبي فقد كان أكثر منها شكاً حتى أنه لم يصدِّق أن لصاً قد دخل بيتنا. وأما عن الأشياء المسروقة فقد قال «لعلكم نسيتم أين وضعتم تلك الأشياء». فأنتم فوضويون وغير مرتبون. كان بين الأشياء المسروقة ماكينة خياطة. وراديو. وكانت زوجتي تشك بي وتقول لي «أنت الذي بعت تلك الأشياء، ثم تقول اللص سرقها». أما أنا فكنت لا أشتبه بأحد.

عدنا إلى البيت بعد أن تم أخذ أقوالنا في قسم الشرطة. بعد أسبوع دخل بيتنا لصاً آخر. فذهبنا من جديد إلى قسم الشرطة وشكونا لهم الأمر. هذه المرة لم يسألنا رئيس القسم أي سؤال. لكنه قال لنا بانزعاج «ألا يدخل اللص إلا بيتكم».

كان اللص يدخل بيتنا كل ثلاثة أو أربعة أيام. وكأنه يملك وثيقة اشتراك وقد ألفنا كثيراً هذا الوضع لدرجة أننا كنا نفتقد هذا اللص عندما لا يأتي وكنا نقول صباحاً ونحن مندهشين «آ. آ... اللص لم يأت هذه الليلة» أما والدتي فكانت تتساءل بقلق قائلة «لعلهم قبضوا على هذا المسكين».

ومن جراء ذهابنا إلى قسم الشرطة أصبحنا أصدقاء مع جميع أفراد ورئيس قسم الشرطة. فكانوا يتسمون لنا من بعيد بمجرد رؤيتنا قائلين «هل جاء اللص إلى بيتكم من جديد».

فأجبت أنا (نعم). بعد ذلك كنت أجلس مع رئيس القسم ونشكي

همومنا لبعض حتى كنا نلعب الطاولة.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك؟ انقطعت رجل اللص من بيتنا لأنه لم يبق في البيت ما يستحق السرقة. وبعد مضي عام كامل وفي أحد الليالي طرق باب الدار بقوة فقفزت من السرير وفتحت الباب وإذا بشرطي يقول لي«تفضل معنا إلى قسم الشرطة إذا أمكن». خاف جميع من في المنزل عندما فهموا أن الشرطة تستدعيني في منتصف الليل. كما لا أخفي عليك فقد خفت أنا أيضاً. ذهبت إلى قسم الشرطة فعرضوا علي ثمانية أشخاص فيهم الشاب والكهل. حتى كان بينهم سيدة. وكلهم بثياب مهلهلة. سألوني في القسم.

ـ هل هؤلاء كانوا هم اللصوص؟

ـ قلت لا أعرف.

ـ حسناً اذهب إلى بيتك.

وفي الصباح الباكر قرع جرس الباب أيضاً وقالوا لي «تفضل إلى القسم» وكان في القسم هذه المرة خمسة أشخاص.

ـ هل هؤلاء كانوا هم اللصوص؟

ـ لأ.

أخيراً قلت لهم:

ـ أرجوكم كفوا عن إزعاجي فأنا قد أسقطت حقي ضد اللص الذي دخل بيتي تضايق رئيس القسم من كلامي وقال لي:

ـ نحن لا نعمل من أجلك أيها السيد.

ـ لم تقصروا ولكنني لم أعد أطالب بأي شكوى.

ـ سواء طالبت أم لم تطالب فهذه الدعوى تعتبر حق عام.

أحسست بنتائج كلام السيد رئيس القسم، فلم يستدعوني بعد ذلك إلى القسم. ولكنهم تعودوا على بيتي هذه المرة. فكانوا يصطحبون بضعة أشخاص ويأتون إلى بيتي ولا يهمهم الوقت إذا كان ليلاً أم نهاراً ويسألونني:

ـ هل هذا هو اللص؟

ـ وكنت أقول لا.

وبمجرد أن أنطق هذا الكلام كان هؤلاء الأشخاص يرتمون على قدماي قائلين.

ـ الله يرضى عليك يا سيدي. فلو كنت قلت لهم هذا هو اللص لكنا انتهينا.

في الشتاء. في الثلج. في منتصف الليل وفي الفجر كان جرس الباب يقرع والشرطي قد أمسك أحدهم من ياقته وجلبه معه ليسألني:

ـ هل هذا هو اللص؟

سألت صديقي:

ـ حسناً هل كنتم قد رأيتم اللص حتى يسألونكم هذا السؤال.

لم نراه يا أخي ولكن الوالدة حفظها الله قالت للشرطي أنها رأت اللص في المنام والحقيقة أننا لا نعلم إذا كانت رأته في الحلم أم في الحقيقة فهي امرأة عجوز وقد تكون الأمور قد اختلطت عليها ولكنها قالت للشرطي وهي تصف اللص «لقد رأيته عياناً.. بياناً.»

ـ كان من الأنسب أن تقولوا أننا وجدنا الأغراض وأن اللص لم يدخل

بيتنا بل نحن ظننا ذلك.

ـ طبعاً لقد قلنا ذلك لكنهم اتهمونا هذه المرة «بالبلاغ الكاذب وبهدر وقت الشرطة» وحاولوا إحالتنا إلى المحكمة. وهذا أمر يصعب على الإنسان الخروج منه. تصور أنني في سبيل إنقاذ نفسي كنت سأتهم أحد الأشخاص الذين يأتون بهم ولكن ضميري لم يطاوعني. مع أن الكثيرين يقومون بمثل هذا العمل. وأخيراً وبعد أن سئمنا من الشرطة انتقلنا من بيتنا لكي لا تعرف الشرطة أثراً لنا بعد ذلك.

ـ قبحك الله. أيترك مثل هذا البيت الجميل؟.

ـ ماذا يمكن أن نفعل غير ذلك. قل لي بربك. استأجرنا منزلاً بمبلغ خمسمائة ليرة وانتقلنا إليه. ومر علينا شهران ونحن مرتاحون. وبعد ذلك قرع جرس الباب في إحدى الليالي وفتحت الباب رغم أنني لم أستلطف صوت الجرس. وإذ بشرطي يمسك بشخص ممزق الثياب من ياقته. لقد بحثوا في كل أنحاء أستانبول حتى وجدوا أثري.

ـ هل هذا هو اللص؟.

لم يعد بالإمكان التخلص من هذه الورطة. بعد أن عرفوا البيت الجديد وصاروا يأتون خمس مرات في اليوم ويسألون.

ـ هل هذا هو اللص؟

انتقلنا من ذلك البيت وغيرنا ست منازل بعده وكنا نسكن في أماكن متفرقة وبعيدة عن بعضها. وفي كل مرة كانوا يعثرون علينا خلال عشرة أيام. يا أخي الحقيقة أن الشرطة عندنا تعمل بشكل جيد. الآن أبحث عن بيت جديد. قل لي بربك ماذا أفعل؟ انصحني يا أخي... لقد قررت أن أهرب إلى أوروبا أو أمريكا هل يمكنني أن أفعل غير ذلك.

لم أستطع حتى أن أسامر أو أن أمضي وقتاً طيباً مع صديقي.. وصلت الباخرة إلى الجسر ونحن نفترق قلت لصديقي:

ـ كان الله في عونك يا أخي.

* * *

عدم تكليف

في مقصورات الدرجة الأولى في القطار المتوجه إلى أنقرا. جلس إلى جانب النافذة رجل نحيف طويل القامة. وكان هذا الرجل أنيقاً جداً لدرجة أنك لا تستطيع أن تميزه عن صور «الموديلات» الذين تجد صورهم في مجلات الخياطين. مثل هؤلاء الرجال يليق بهم أفخم اللباس سواء «السموكور» أو «الفراك». كان الطقس شديد الحرارة والرجل يرتدي قميصاً أبيضاً ذو باقة «منشّاة» عقد عليها ربطة عنق لونها أسود مرقطة بنقط حمراء. وقد جلس هذا الرجل وقامته مشدودة بعد أن وضع رجلاً على رجل وبدا حذاؤه الأسود الذي يلمع كالمرآة وجرابه الحريري (المخرَّم) مشدوداً على قدميه بعناية.

مثل هؤلاء الرجال لابد لمن يتعرف عليه إلا أن يناديه بالسيد المحترم. فالاحترام واضح عليه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. كان يبدو في سن الأربعين أو الخمس والأربعين. ويجب أن لا ننسى أن مثل هؤلاء يظهرون بأنهم أصغر من سنهم الحقيقي بعشر أو خمس عشرة سنة.

جلس أمام هذا الرجل رجلاً بدين ولكن لا يشبه باقي البدينين الذين يهملون أنفسهم. بل كان مكتنز الجسم. وإذا كان ذلك الرجل يعتبر نموذجاً للسادة المحترمين النحيفين. فهذا الرجل يعتبر أيضاً نموذجاً للسادة المحترمين البدينيين. وكان يرتدي أيضاً قميصاً أبيضاً وذو باقة «منشّاة» وكان يعقد ربطة عنق عليها دبوساً من اللؤلؤ وكان يضع على عينيه نظارة بدون إطار كانت تضفي عليه صفة الاحترام أكثر فأكثر. وكنت تلاحظ رؤوس المثلثات الصغيرة من المنديل الناصع البياض في جيب الجاكيت.

وفيما كان الرجل البدين يهم في الجلوس. انحنى قليلاً ومال برأسه وهو يحيي الرجل النحيف. الذي بادله التحية بابتسامة فيها كثير من التكلف والاحترام.

وبعد أن جلس الرجل البدين في مكانه قال:

ـ مرحباً أيها السيد المحترم.

فرد عليه الرجل النحيف.

ـ مرحباً أيها السيد المحترم.

بعد قليل تحرك القطار فقال الرجل النحيف:

ـ أتمنى لك رحلة طيبة أيها السيد المحترم.

ـ رحلة طيبة يا سيدي.

وبعد أن غادر القطار المحطة سأل الرجل النحيف.

إلى أين سيشرِّف سيدنا المحترم؟

ـ أستغفر الله يا سيدي... محسوبكم ذاهب إلى أنقرا.

ـ يا... كم هو جميل.. وكم هو صدفة سعيدة... معنى ذلك أنكم ستمنحون محسوبكم شرفاً كبيراً حتى أنقرا.

ـ أمان يا سيدي... أستغفر الله.

ـ أتمنى لكم رحلة طيبة يا سيدي العزيز المحترم.

ـ هل تشرِّف ذاتكم العالية إلى أنقرا أيضاً؟

ـ نعم يا سيدي العزيز المحترم. إنني ذاهب إلى أنقرا وسأمكث فيها بضعة أيام.

ـ يا... جميل جداً... محسوبكم أيضاً سيبقى بضعة أيام.

ـ أستغفر الله.

بعد قليل سأل الرجل البدين:

ـ أرجو عفوكم... ما هو اسم سعادتكم؟.

فرد الرجل النحيف:

ـ أستغفر الله.. اسمي «سنيح» يا سيدي.

ـ تشرفنا يا سيدي وأنا اسمي «مشتاق».

ـ تشرفنا يا سيدي.

ـ أستغفر الله فهذا الشرف عائد لمحسوبكم.

ـ أشكركم على هذه الإلتفاتة... إنني مسافر لرؤية أحد السادة.

ـ يا... جميل جداً، معنى ذلك أنكم تعرفون هذا السيد.

ـ إنه صديقي إلى أبعد الحدود، وهو لا يبخل علي بالتفاتاته الحلوة. يا سيدي. أستميحكم عذراً. هل تتفضل ذاتكم العالية بشرح سبب عزيمتكم على السفر؟

ـ طبعاً. فصداقة الطريق جميلة يا سيدي.. وكن على يقين بأنني سعيد جداً لهذه الصداقة.

ـ أمان يا سيدنا المحترم.. والله إنكم تخجلون محسوبكم كثيراً.

ـ أستغفر الله.. يا سيدي. محسوبكم ذاهب لرؤية «كريمه».

ـ جميل جداً..

ـ لي ابنة في أنقرا أرجو من الله أن يحفظنا جميعاً... وقد مضى عامان دون أن أراها رغم أنه قد أصبح لنا حفيد.

ـ حفظه الله وجعله من طوال العمر.. وأبقاه قرة عين لوالديه يا سيدي.

ـ جميعاً.. شكراً يا سيدي.

بعد قليل قام الرجلان بقصد الذهاب إلى المطعم ولفرط نعومتهم في

التعامل مع بعض كان خروجهم من باب المقصورة وسيرهم في الممرات ودخولهم إلى عربة المطعم أمراً بالغ التعقيد.

ـ تفضلوا يا سيدي.

ـ رجاء. لتتفضل ذاتكم العالية أولاً.

ـ استرحمك الله. لا يمكن.

ـ تأكدوا أنكم تخجلون محسوبكم إلى أبعد الحدود.

ـ أمان يا سيدي.

ـ يا سيدنا المحترم.

وهم يقفون أمام باب عربة المطعم كان كل منهم يرجو الآخر بالتفضل بالدخول، فصاح أحد الأشخاص الذين تجمعوا خلفهم قائلاً:

ـ ياهو... ادخلوا وخلصونا.

التفت الرجل البدين ونظر نظرة ازدراء إلى هذا القليل الأدب ثم عاد وأكمل حديثه مع الرجل الضعيف قائلاً:

ـ استرحمكم الله أن تتفضلوا يا سيدي.

أحد قليل الأدب ممن وقفوا خلفهم دفع الاثنين بكتفه. فأصبح الرجلان داخل عربة المطعم.. دون إرادتهم. جلسوا إلى إحدى الموائد.. وأثناء الطعام قال الرجل البدين:

ـ كنتم تحسنون علينا وأنتم ترون لنا حديثاً.. يا سيدي المحترم.

ـ هذا من لطفكم يا سيدي.

بعد أن أكلوا وشربوا القهوة عادوا إلى مقصورتهم.

قال الرجل النحيف:

ـ أنا رجل عدم تكليف.

فأجابه الرجل البدين:

ـ وأنا أيضاً أحب عدم التكليف.

ـ طبعاً لا يوجد أحلى من عدم التكليف... شوف يا سيد مشتاق.. إن صداقتنا لا تشبهها أي صداقة أخرى.

ـ طبعاً يا سنيحي العزيز. صداقة الطريق أولاً.. ثم صداقة العسكرية ثانياً..

فقال السيد سنيح:

ـ كم كان شيئاً جميلاً أننا تعرفنا على بعضنا يا سيد مشتاق.

ـ الإنسان يتفاهم مع أخيه الإنسان بالحديث يا سنيح العزيز. ولأن هذه الرحلة منحتني صديقاً مثلك...

ـ هذا من طيبك، ولكن دعنا نتخلى عن التخاطب بصيغة أنتم. ونحن. ما دمنا أصبحنا أصدقاء وعدم تكليف.

وما أن وصل القطار إلى محطة (أسكي شهير). صاح الرجل النحيف فجأة:

ـ مشتاق.. ياهو.. مشتاق. وكان يشير بيده من النافذة إلى امرأة جميلة كانت تسير مع طفلها.

ـ قف.. يالها من امرأة... ياهو سنيح دعنا نلتقي في أنقرا على جلسة أنس وفرفشة.

ـ نلتقي لم لا..؟

بعد أن أمضوا ساعتين وهم يتحدثون في جو من عدم التكليف. أرادوا الذهاب إلى المطعم لكي يشربوا شيئاً بارداً.. وفيما هم يحاولون الخروج من باب المقصورة بآن واحد داس البدين على رجل النحيف فاستشاط سنيح غيظاً وصاح غاضباً:

ـ ياهو على مهلك. فأنت رجل كالفيل وقد دست على دمَّل إصبع رجلي.

فقهقه مشتاق وقال وهو يهزأ من صاحبه:

ـ هل أنت رجل مصنوع من المهلبية... ماذا حصل إذا دست على إصبع قدمك؟

ـ الذي حصل أنك أعمى.

دخلوا المطعم وكان مشتاق لا يزال يضحك. فسأل سنيح الكرسون:

ـ هل البيرة باردة؟

ـ لم يبق لدينا بيرة يا سيدي.

ـ أعطنا اثنان من الفودكا.

ـ ياهو... يا مشتاق كل إنسان يرغب أن يخلو بنفسه ولو مرة بالسنة وأن يذهب إلى بعض الأماكن!!...

ـ طبعاً على الأقل يتخلص من نق وثرثرة الزوجة... شوف يا سنيح.

ـ والله يا مشتاق.. أولاً نحن بشر.

ـ صحيح يا حبيبي.. لكن هل تعرف؟

عادوا إلى مقصورتهم وكأنهم يودون الحديث حتى الصباح.

كان مشتاق يحدث صديق الطريق الذي أصبح بينهم عدم تكليف عن حادثة مرت معه.

ـ بعد ذلك اصطحبنا الرجل إلى بيت السيدة (شيرمين) فتعاركت مع الرجل وقلت له يا قليل الشرف. إنني اعرف هذا البيت.. هل أعطيتك الفلوس لكي تدلني على بيت أعرفه.

ـ أنا أعرف ذلك البيت أيضاً وهو لا يخلو من بعض القطع الجميلة.

ـ ألا زال هناك بعض القطع الجميلة؟

بعد منتصف الليل تمدد كل واحد في سريره وانقطع الحدث، كان سنيح قد غفل أولاً.. أما مشتاق فكان صدره يعلو ويهبط كالمنفاخ كما كانت أصوات الشخير والنخير تخرج من فمه وأنفه.

فركل سنيح صديقه بقدمه وقال له:

ـ انهض.. أف لك.. انظروا كيف ينام هذا المخلوق.

فرك مشتاق عينه وقال:

ـ ولك انهض... لقد وصلنا إلى أنقرا.

نهض مشتاق وبعد أن تثاءب وتمطط قال:

ـ لقد قمنا برحلة ممتعة.

ـ الرحلة تكون ممتعة إذا صادف الإنسان رفيقاً على هواه.

ـ يا أخي عندما رأيتك لأول وهلة خفت أن لا يكون بيننا مودة.

ـ أنا أيضاً.

أخيراً. وصل القطار إلى أنقرا. حمل أصدقاء الطريق حقائبهم وفيما هم يخرجون من باب المقصورة داس مشتاق مرة أخرى على قدم سنيح فغضب سنيح وقال:

ـ هشت.. هشت.

فأجاب مشتاق بعدم تكليف أكثر.

ـ هشى.. ولك انظر أمامك.

نزلوا من القطار. فضرب سنيح مشتاق كفاً على رقبته عدم تكليف فجاوبه مشتاق بمزاح فيه الكثير من عدم التكليف. وبحركة مد يده الى أسفل ظهر سنيح تعانق رفيقا الطريق بعد أن خرجوا من محطة القطار

ووقف كل منهم ينتظر سيارة (تاكسي).

وبعد أن رتب سنيح ياقة الجاكيت.. وبعد أن رتب مشتاق هندامه قال لسنيح:

- مع السلامة يا سيدي... انتظر تشريفكم إلى بيتي... إن ذلك سيسعدني كثيراً.

فرد سنيح قائلاً:

- إن شاء الله يا سيدي... سنحاول.. وأنا انتظر ذاتكم العلية أيضاً. مع السلامة يا سيدي العزيز المحترم.

جاءت سيارتا أجرة وفتح كل سائق باب سيارته وقال:

- تفضل أيها السيد المحترم.

* * *

الرشوة

في أستانبول وفي أحد المحلات الكبرى لبيع الأقمشة. كان باب المخزن في الوسط وعلى جانبيه الواجهة الزجاجية. وكنت ترى من خلال هذه الواجهة أثواب القماش التي في الداخل. كما كنت تلمح من خلال الباب الزجاجي الدوَّار أثواب الأقمشة المصفوفة على الرفوف بشكل مرتب للغاية.

كان الوقت يبدو مبكراً بالنسبة للسوق. وفي مثل هذا الوقت لا يأتي زبائن لشراء الأقمشة.

كان الطقس بارداً. وكان في المحل مدفأة تعمل على الغاز. فقام أحد العاملين اللذان يعملان في المحل بعيار مدفأة الغاز. أما العامل الثاني فكان يفتح ثوباً من القماش الأزرق المخطط بالأبيض. وكان يحدث صوتاً منتظماً وهو يقلب ثوب القماش بين يديه. وكان واضحاً من هذا الصوت الذي يخرجه أنه ماهر في البيع والشراء. وكان يضع على أذنيه قلم رصاص.

أما الفتاة المسؤولة عن الصندوق فكانت تمسك بصحيفة وتقرأ برجها لذلك اليوم وكانت تخرج من جيب طقمها الساتان كل فترة قطعة من الكعك وتأكلها دون أن تهتم بأحد.

أما صاحب المحل فكان يجلس في المكان المخصص له وأمامه القاطع الزجاجي وقد علق خلفه لوحة مكتوب عليها باللغة العربية.. وكان يبل إصبعه بلعابه ويقلب دفتراً سميكاً كان موجوداً أمامه. وكان يدون بعض الأشياء في هذا الدفتر بين الحين والآخر.

لاح ظلاَّن أمام الواجهة وكانا ينظران إلى الأقمشة فهب إليهم العامل الذي يضع خلف أذنيه قلماً وفتح الباب الدوار فدخل الرجلان وبدأ يتفرجان على أثواب القماش التي على الرفوف. وأشار أحد هؤلاء الأشخاص وكان له شارب إلى أحد الأثواب قائلاً:

ـ هل يمكن أن تُنزل هذا.

مد الصانع يده وبدأ يفتح القماش بمهارة وهو يخرج الأصوات المنتظمة. فنظر الرجل ذو الشنب إلى طرفي القماش ليتأكد من منشئه وسأل العامل:

ـ هل هذا القماش إنكليزي؟

فرد العامل:

ـ كلا يا سيدي، إنه قماش إيطالي.. متين جداً يغنيك عن القماش الإنكليزي.

فأشار الرجل ذو الشنب إلى ثوب آخر وقال:

ـ هل أستطيع رؤية هذا القماش؟

ـ بكل ممنون يا سيدي.

أُنزل القماش فبدأ الرجل ذو الشارب يفحص القماش بأصابعه ثم أخذ القماش إلى جهة الباب وقربه من النور ليتأكد من لونه وبعد أن قرأ الكتابة الموجودة على طرفي القماش:

ـ على الأغلب هذا قماش إنكليزي.

ـ كلا يا سيدي. إنه فرنسي ولكنه أنيق جداً وممتاز ويغنيك عن القماش الإنكليزي.

عندئذ تكلم الرجل الذي ليس له شارباً والذي كان صامتاً طول الوقت وسأل البائع:

ـ أليس لديكم قماش إنكليزي؟

ـ كيف لا يا سيدي. عندنا طبعاً.

أنزل من رف آخر خمسة أو ستة أثواب من القماش.. وبدأ يفتح القماش وهو يخرج ذلك الصوت الذي يشبه صوت من ينزل من على درج.

ـ انظر اقرأ يا سيدي «مصنوع في إنكلترا».

ـ ألا يوجد عندكم أقمشة محلية؟

فتدخل صاحب المحل بالحديث وكان لا يزال يجلس في مكانه خلف القاطع الزجاجي:

ـ طبعاً يوجد لدينا ولكنني لا أنصح به يا سيدي.

ـ لماذا؟

ـ لأنه يهترئ بسرعة ويكلح لونه في يومين.

وأردف العامل مكملاً حديث صاحب المحل قائلاً:

ـ الفرق بسيط... ولكنكم أدرى بمصلحتكم يا سيدي.. لدينا أقمشة محلية ممتازة أيضاً.

في هذه الأثناء دخل المحل زبون جديد فهرع إليه العامل الآخر. تبادل هذا الزبون النظرات مع الشخصين اللذين كانا قبله في المحل وبعد عناق طويل.

ـ أو أو... موسى الحبيب.

ـ أو أو... إسماعيل الحبيب.

ـ ياهو.. ألم تكن مفتشاً في إزمير؟

ـ أنا في استانبول منذ ستة شهور.

ـ مفتش أيضاً؟

- كلا أعمل كمراقب.

وبعد أن تابعوا حديثهم بعض الوقت سألهم.

- هل تبحثون عن قماش؟

- نعم...

- أنا أيضاً أبحث عن قماش مناسب لي.

بدأ العامل الآخر يعرض على الزبون الجديد الأقمشة.

اختار الزبائن اللذين حضروا أولاً أقمشتهم. الرجل ذو الشارب اخذ قطعة قماش إنكليزي وكانت (كوبوناً) وسعرها سبعمائة وثمانون ليرة. ورغب الثاني في قماش إيطالي سعر المتر منه مائة وستة وثمانون ليرة فقال للعامل:

- من فضلك قص لي مترين ونصف.

قال البائع وهو يقص القماش.

- ملبوس الهنا والعافية.

ذهب الرجل ذو الشارب باتجاه صاحب المحل وهو يخرج محفظة نقوده من جيبه وسأل صاحب المحل.

- هل أستطيع رؤية (فواتير) الأقمشة.

امتقع لون صاحب المحل. وارتخت شفته السفلى. وبدأ يرتجف وبعد أن افتعل ابتسامة باهتة رد على الزبون قائلاً:

- هل قلت فاتورة؟.. طبعاً... حاضر.. يوجد لدينا فواتير أيها الرجل المحترم ولكن... فقط.

- ألا تخجلون من أنفسكم وأنتم تغشون الناس وتبيعوهم قماشاً محلياً باسم قماش إنكليزي.

وأخرج الرجل ذو الشارب والرجل الذي ليس له شارب ورقة من المحفظة وهموا بكتابة ضبط المخالفة.

بعد ذلك تقدم الزبون الذي دخل فيما بعد ودنا من صاحب المحل وسأله بصوت:

ـ ماذا يجري؟

فأجاب صاحب المحل وهو مصفر الوجه.

ـ أمان... دخيلك... أنت تعرفهم!.. واقع في عُرضَك.. سيقضى علي أنت تعلم أن هذه الأقمشة....

فرد عليه الزبون الذي دخل فيما بعد.

ـ انتظر لنرى فيما إذا كنت أستطيع أن أجد حلاً لهذا الموضوع.

دنا من صديقيه وبدأوا يتهامسون. وبعدها ذهب إلى صاحب المحل وفتح كفيه الاثنين مشيراً إلى أصابعه العشرة. فكاد صاحب المحل أن يبكي.

وبعد أن تهامس مع صاحب المحل عاد إلى المراقبين وتهامس معهم أيضاً ثم إلى صاحب المحل وفتح كفيه الاثنين بعد أن ثنى إصبعة واحدة وهو يشير إلى تسعة أصابع. فهمس صاحب المحل في أذنه ببعض الكلمات. فذهب الوسيط إلى الآخرين كانت هذه المساومة تتم في وسط المحل وأمام مرأى الجميع. وأخيراً دنا الوسيط من صاحب المحل وأشار إلى ستة أصابع وقال:

ـ أنا أقوم بخدمة لوجه الله. هم لا يرضون بقرش أقل.

نظر صاحب المحل إلى الدراهم الموجودة في الصندوق الحديدي، وقال:

ـ لا زال الوقت مبكراً.. والمبلغ المطلوب غير متوفر الآن.. اسمحوا لي

خمس دقائق تشربون خلالها الشاي ريثما أرسل في طلب المبلغ من المصرف.

همس صاحب المحل ببعض الكلمات للعامل الذي يضع على أذنه قلماً فخرج. أما العامل الآخر فذهب لإحضار الشاي.

بعد قليل حضر الشاي وشربه المراقبان. ثم دخل المحل زبونان آخران يريدان شراء قماش.

حضر العامل ومعه الدراهم. أعطاها لصاحب المحل فناولها بدوره للوسيط.

كان الوسيط يسلم الدراهم للرجل ذو الشارب. هجم عليه أحد الرجال اللذين دخلا المحل أخيراً وأخذ الدراهم منه، أخرج الآخر من جيبه ضبطاً مدوناً عليه بعض الأرقام قارنها مع أرقام القطع النقدية وقال:

ـ بالضبط... الأرقام مطابقة.

أما الشخص الآخر فقال للمراقبين:

ـ اخرجوا هوياتكم الشخصية.

بدأ المراقبان بالتوسل.

أخذ صاحب المحل دراهمه. وبدأ الجميع يتهامسون وهم واقفون وسط المحل لم يطل حديث الهمس طويلاً فانبرى أحد الأشخاص اللذين كانوا أول الزبائن.

ـ إنني مستعد لإحضارهم خلال خمس دقائق.

قام صاحب المحل فدس قطعتي القماش الملفوفتين تحت إبط الرجلين اللذين قاما بعملية القمع.

دخلت سيدة ورجل المحل فبدأ العامل يعرض عليهم القماش الذي طلبوه بدون رغبة منه.

عاد الرجل الذي خرج قبل قليل وأخرج من جيبه عشرة قطع ورقية من فئة الألف ليرة. فهجمت عليه السيدة والرجل وخطفوا منه الدراهم.

فقال أحد الأشخاص:

ـ هذه الدراهم لي.

ـ قالت السيدة أنا أدقق الأرقام فقط.

بدأوا التوسل فبدأت السيدة والرجل بتحرير ضبط شمل أيضاً صاحب المحل لأنه يغش الناس ويبيعهم قماشاً محلياً على أساس أنه قماش إنكليزي.

كان الجميع يقف وسط المحل يتهامسون فقال أحدهم:

ـ سأعود خلال خمس دقائق وخرج مهرولاً.

دخل المحل ثلاثة زبائن آخرين وبدأوا يتفرجون على الأقمشة. عاد الرجل الذي ذهب قبل قليل وأخرج من جيبه ربطة دراهم وفيما كان يناولها للسيدة هجم عليها الزبائن الثلاثة اللذين دخلوا أخيراً. وأخذوا الدراهم وقالوا:

ـ أخرجوا هوياتكم الشخصية.

بدأ الجميع بالتوسل ودام حديث الهمس هذه المرة فترة أطول وفيما الجميع يتهامسون دخل صاحب المحل إلى خلف القاطع الزجاجي وبدأ يتكلم بالهاتف.

ـ مديرية الأمن؟... نعم.. سيدي دخل محلي مراقبان وطلبا مني رشوة فتقدمت بشكوى.. ثم جاء آخرون.. الجدد طلبوا رشوة من الجميع. أنا تركتهم ينتظرون بحجة طلب الدراهم... تقدمت بشكوى.. جاؤوا.. من الجميع...

بعد أن أعطى صاحب المحل عنوانه للأمن. دنا من المتهامسين وطالت

المساومة وطال الجدل. فقال الأشخاص اللذين حضروا أخيراً أنهم مستعدون لإنهاء الموضوع بشرط أن يأخذوا جميع الرشاوي التي أخذها كل واحد من الآخر. وهم غير مستعدون لأية تنازلات. وفيما هم يتساومون دخل المحل زبونان آخران وأصبح عدد الأشخاص داخل المحل خمسة عشر شخصاً.

الزبائن اللذين دخلوا أخيراً كانوا يختارون قماشاً.

انتهت المساومة. وهدأ المكان وفيما همَّ المفتشان اللذين حضرا أخيراً بالخروج من باب المحل سد طريقهم زبونان وقالا لهما:

ـ سلموا الدراهم.

فقال صاحب المحل:

ـ هؤلاء هم المفتشون الحقيقيون.

التفَّ الجميع حول المفتشين الحقيقيين وبدأوا بالتوسل لكن دون فائدة. فلم يكن أحداً ممن جاء من قبل. مراقباً. أو موظفاً. أو مفتشاً بل جميعهم كانوا من المحتالين.

نظر صاحب المحل إلى المحتالين اللذين دخلا المحل قبل الجميع وقال لهم:

ـ لقد عرفت أنكم محتالان من أول وهلة.

فسأله الموظفان الحقيقيان:

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ لأنهم لم يأخذوا القماش وينصرفوا.

وتم القبض على جميع المحتالين.

* * *

محمود السَهْيان

كلما ذهبت إلى مكتب صديقي لزيارته أراه لا ينفك عن الصراخ في وجه محمود. ومحمود هذا مستخدم يعمل في ذلك المكتب وهو يقوم بأعمال التنظيف والخدمات الأخرى وهو ذو وجه ضاحك لم أراه عابساً أبداً. ولكنه بالرغم من سهولة عمله في المكتب إلا أنه لم يتمكن من القيام بهذا العمل ولم يتقنه ولا مرة واحدة. وعمل محمود ينحصر في إحضار الصحف صباح كل يوم وتنظيف الغرف والفرش. وفي الظهيرة عليه أن يُحضر الطعام من المطعم المجاور. ولكن أهم عمل لمحمود. هو أن يأخذ إحدى الأضابير من المكتب إلى منطقة «الفيلات» ليعرضها على أحد الأشخاص ثم يعيدها ثانية للمكتب. هذا هو كل عمله تقريباً. ولكن لم يستطع القيام بأي واحد من تلك الأعمال أبداً. وليس لأنه سيء النية ولكن لأنه لا يستطيع إتقان أي عمل.

فهو لم يحضر الصحف الصباحية من تلقاء نفسه ولا مرة واحدة. لذلك فقد كان صديقي يغضب منه ويؤنبه. فيجيبه محمود وهو يضحك ضحكة خجولة قائلاً:

ـ نسيت.

ـ إذن هيا اركض واحضر الصحف بسرعة.

محمود هذا لا يعرف ما هو الركض. وربما أنه لم يركض طوال حياته ولا مرة واحدة. يخرج من المكتب ويسير ببطء تجاه بائع الصحف الذي لا يبعد عن المكتب أكثر من مائتين إلى ثلاثمائة خطوة ولا يعود في أقل من

عشرين دقيقة. وبدلاً من إحضار ثلاث جرائد. فإنه يحضر جرائد غير الجرائد المطلوبة.

- هل هذه هي الصحف التي أوصيتك عليها؟

- إ... نسيت.

- محمود أنت ستنشف دمي اركض وبدِّل الجرائد.

محمود لا يركض حتى ولا يسرع بل يسير على مهله ويعود بعد قليل وهو يتمايل نحو اليمين ونحو اليسار وبيده جريدتين.

- ألم أقل لك أن تجلب ثلاث جرائد يا بني؟

- إ... نسيت.

محمود لا يهتم ولو خربت الدنيا وهو لا يقوم بعمله اليومي المطلوب أبداً.

- محمود أنت لم تفرغ سلة المهملات.

- إ... نسيت.

- محمود كم مرة قلت لك أنك يجب أن تنظف المكان يومياً.

- إ... نسيت.

أهم عمل لمحمود هو أخذ إحدى الأضابير إلى مكتب آخر في منطقة الفيلات وقد أفهموه هذا العمل بشكل جيد.

ينفذ محمود ما قالوا له ولكن بدلاً من أن يركب الأتوبيس المتجه إلى منطقة الفيلات يركب في عكس الاتجاه في الأتوبيس العائد من منطقة الفيلات والمتجه إلى الميدان الرئيسي دوماً بالعكس. لم يستطع أن يذهب بالاتجاه الصحيح ولا مرة واحدة.

- محمود هل أخذت الإضبارة؟

فيخرج محمود صوتاً من شفتيه (جق) أو يقول:

ـ إه.

ـ لماذا لم تأخذها؟

ـ إ...نسيت.

ـ محمود سأنفجر غضباً منك. كل يوم تنسى هذا الموضوع. هذا لا يجوز اركض وأوصل الإضبارة.

يخرج محمود وهو يتمايل في مشيته فيصيح عليه صديقي قائلاً:

ـ إلى أين يا محمود؟

ـ أنا ذاهب لإيصال الإضبارة.

ـ طيب. أين الإضبارة؟

ـ إ... نسيت.

ويذهب محمود بدون أن يأخذ إضبارة معه.

يعود محمود.. ليأخذ الإضبارة. يخرج. ككل مرة يأخذ الأتوبيس الصحيح. الذي يسير في الاتجاه المعاكس.

مضى على محمود حوالي السنة وهو يعمل في هذا المكتب ولكنه بدون أن يستطيع إنجاز أي عمل غير كلمة.

ـ إ.... نسيت.

أما صديقي فكان يستشيط غضباً وتثور أعصابه عندما يسمع هذا الكلمة. ولكن محمود كان يضحك ولا يهتم بكلام صديقي بل يقول:

ـ إ... نسيت.

قلت لصديقي في أحد الأيام:

ـ يا هو لماذا تتحمل محمود كل هذا التحمل. وأعصابك تثور يومياً.

وهذا قد يؤثر على صحتك. ويمكن أن يؤدي بحياتك يوماً ما. وهذا شيء حرام. اطرد محمود هذا ألا يوجد رجلاً غيره في هذا البلد؟.

- لا أستطيع طرده.

- لماذا؟

- لأن الشركة قد خصصت خمسمائة ليرة شهرياً لمن يشغل هذه الوظيفة وأنا بهذا الراتب لا أستطيع أن أجد أفضل منه.

- هناك كثير من الموظفين الحكوميين لا يتقاضون راتباً أكثر من خمسمائة ليرة.

- الأمر مختلف. تستطيع أن تجد موظفاً بمثل هذا الراتب ولكن لا يمكن أن يقبل بهذا العمل. الذين كانوا يخدمون قبل محمود كانوا أسوأ بكثير فمنهم الكذاب. واللص. على الأقل فإن محمود ليس لديه مثل هذه العادات السيئة.

في إحدى الأيام ذهبت إلى مكتب صديقي لزيارته وما أن رآني وضع إصبعه على شفتيه لكي لا أخرج صوتاً. ثم أشار إلى باب غرفة مقفول وكأنه يقول لي اسمع. فمشيت على رؤوس أصابعي ودنوت من الباب المقفل. وبدأت أسمع أصوات أوامر عسكرية.

- استعد..

- استرح..

- إلى اليمين..

- إلى الأمام انظر..

- استلق.

- انهض.

فقلت لصديقي هامساً:

ـ ماذا يجري هنا. فقال لي وهو يهمس:

ـ انظر من ثقب القفل.

كان المنظر الذي رأيته من ثقب الباب هو كالتالي، كان محمود يعطي لنفسه أوامر عسكرية. وكان ينفذ هذه الأوامر. قبل كل شيء كان يصيح:

ـ جاثياً.. وبعدها يهبط على الأرض. كان ينفذ التعليمات العسكرية بدقة.

قال لي صديقي:

ـ كما ترى.. فمنذ أن باشر العمل في مكتبنا وهو يغلق باب الغرفة ويعطي الأوامر العسكرية وينفذها بنفسه.

صاح صديقي:

ـ محمو و و و و و د..

خرج محمود من الغرفة وهو واثق الخطوة وأجابه:

ـ تفضل.

ـ لماذا لم تجلب الجرائد حتى الآن.. ألم أقل لك مراراً بأن الجرائد يجب أن تأتي بها باكراً.

ـ إ... نسيت.

ـ اذهب بسرعة..

كان هذا المكتب هو أول عمل يباشر به محمود بعد أن أنهى الخدمة الإلزامية.

أمضيت أشهر الصيف الثلاثة في استانبول وعدت بعدها إلى أنقرا ومررت على مكتب صديقي. ولكن محمود لم يكن موجوداً في المكتب هذه المرة فسألت صديقي:

- أين محمود؟

- اتركني. لم أعد أستطيع احتماله. فخفت أن أفقد عقلي. فطردته من العمل.

- واه.. واه.

- تشفق عليه الآن. وأنت الذي ألححت علي لكي أستغني عنه.

تخيلت ضحكته الطفولية وكلمة إ... نسيت التي كان يرددها دائماً فسألت صديقي:

- هل العامل الذي حل محل محمود أحسن منه؟

- الذي حل مكان محمود أسوأ بكثير.. ولكن أعمال المكتب تسير بالشكل الصحيح.

- كيف يمكن لشخص أسوأ من محمود أن يقوم بعمل لم يستطع محمود القيام به.

- العمل لا يزال محمود يقوم به. انتظر قليلاً لترى.

ما قاله صديقي كان حقيقة. فقد جاء محمود بعد قليل وفي يده ثلاث جرائد ولم يكن مخطئاً هذه المرة بل كانت هي الصحف المطلوبة.

فقال له صديقي:

- ابني محمود منذ شهرين وأنا أقول لك يومياً لا تجلب الصحف فأنت قد تركت العمل في المكتب. لماذا تجلبها مرة أخرى؟

فيجيبه محمود بوجه ضاحك غير آبه بشيء.

- إ... نسيت.

ترك الجرائد وبدأ بتنظيف زجاج النافذة.

فقال لي صديقي:

ـ محمود كل يوم على هذه الشاكلة. بعد قليل يذهب إلى المطعم ويحضر الطعام ثم يذهب إلى منطقة الفيلات مصطحباً معه الإضبارة.

ـ ألا يزال يركب الأتوبيس في الاتجاه المعاكس؟

ـ قطعياً. فهو يقوم بجميع الأعمال على أكمل وجه. وعندما يجد وقتاً يدخل الغرفة ويغلق الباب ويبدأ في إعطاء الأوامر العسكرية.

ـ كيف يعمل كل هذه الأعمال.

ـ والله. لا أدري.. فأنت تعلم أنني طردته من العمل لأنه لم يكن يستطيع القيام بأي عمل على الوجه الصحيح.. ورغم أنه وجد عملاً في مكان آخر. إلا أنه لا يعمل هناك بل تجده هنا دائماً.

أحضر محمود الطعام من المطعم فقال له صديقي:

ـ ابني أنت لم تعد تعمل هنا. كم مرة قلت لك لا تجلب الطعام.. لماذا تجلبه مرة أخرى.

ـ إ... نسيت.

محمود لا يستطيع أن يتعلم أي عمل بشكل من الأشكال.. أو أنه يتأخر كثيراً حتى يتعلم. ولكنه إذا تعلم ذلك العمل. فإنه لا ينساه أبداً.

ـ ما دام الأمر كذلك... لماذا لا تعيده للعمل لديك؟

ـ سأعيده. ولكنني أخشى أن يكون قد تعود على أعمال المكتب الجديد الذي يعمل به. تصور أنه لم يستطع أن يتعلم الأوامر العسكرية خلال خدمته الإلزامية وعندما بدأ يتعلمها كانت خدمته من الجيش قد انتهت.

كان صوت محمود ينبعث من الغرفة.

ـ استلق.

ـ انهض.

ـ إلى الوراء دُر.

محمود لا يتعلم. ولكنه لا ينسى أبداً الشيء الذي تعلمه.

* * *

الحريق

مر علي حادثتان خلال يومين. في اليوم الأول تعرفت على رجل إطفائي وفي اليوم التالي شب حريق في الشارع الذي أسكن فيه.

كنت أركب الباخرة قبل الحريق بيوم واحد. جلس أمامي رجلاً لا أعرفه نظر إلي هذا الرجل ملياً وبعد أن دقق في ملامحي كثيراً قال لي.

ـ عفواً.. يبدو لي أنني أعرفك سابقاً ولكنني لا أستطيع أن أتذكر كيف عرفتك؟

ولكي أسد عليه الطريق ذممت شفتاي وأشرت برأسي نحو كتفي وقلت له «لا أدري من أين تعرفني».

ـ هل كنت تعمل في مدينة (سيوت)؟

ـ لا.

ـ أبداً. لم تعمل هناك؟

ـ كلا... أبداً.

ـ حتى ولا لبضعة أيام؟

ـ حتى ولا لبضعة دقائق لم أكن أعمل في (سيرت).

كان ينظر إلى وجهي بقلق وكأنني كنت أعمل في (سيرت) ولكنني أخفي عنه ذلك فبدأ يحدِّق في وجهي ويتفحصني من جديد.

ـ ألم تكن في مدينة (هقاري)؟

ـ كلا.

وبعد أن تفحصني بدقة. توقف عن قضم أظافر يده اليمنى وسألني:

ـ هل كنت تَضْرب مدافع؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ يعني أثناء خدمتك الإلزامية ألم تكن في سلاح المدفعية؟

ـ كلا.

ـ ها... الآن تذكرت. ألم تكن في سلاح المشاة؟

كان لا يحول نظره عن وجهي أبداً لدرجة أنني بدأت أشعر بالضيق من تلك النظرات حتى أنني كنت سأقول له (لا بأس أيها السيد ولكن هل أنت مضطر لمعرفتي) لكنه سبقني وقال لي:

ـ لقد عرفت إنك تعمل بالسباكة أليس كذلك؟

لم أحر جواباً ولكنه أردف سائلاً بعد أن نظر إلى وجهي:

ـ أنت صائغ أليس كذلك؟

ـ لا.

ـ أكيد لست صائغ؟.

ـ والله لست صائغاً.

ـ ألم تعمل في مهنة الصياغة مسبقاً.

ـ كلا لم أعمل أبداً.

ـ أبداً؟

ـ أبداً؟

كنت أجيبه بالنفي كلما سألني عن عملي لأنني كنت على يقين بأنني بمجرد أن أخبره عن عملي فإنه سوف ينتهزها فرصة ويدخل معي في حديث طويل كذلك فقد كنت أصر على عدم ذكر اسمي أو عملي لدرجة العناد.

بدا عليه الحزن لأنه لم يتمكن من معرفتي فأشفقت عليه وسألته أنا هذه المرة:

ـ أنت ماذا تعمل؟

بدأ بالثرثرة بشكل لا يوصف بمجرد أن طرحت عليه هذا السؤال. وكأنه كان ينتظر إشارة مني لبيدأ الكلام. قال إنه رئيس فوج إطفاء. وهو يأخذ إجازة كل خمسة عشر يوماً. وهو على رأس عمله ليل نهار. وهو ذاهب إلى بيته في إجازة. وإنه يلبس لباسه المدني عندما يكون في إجازة. وأنه سيمضي يومين مع العائلة والأولاد ثم يعود إلى عمله. واستمر في الحديث بدون توقف.

أنا أفهم نفسية مثل هؤلاء الأشخاص جيداً لأنني صادفت الكثيرين منهم. مثل هؤلاء يعيش ليلاً نهاراً ولفترة طويلة معزولاً عن الناس إلا من بعض زملائه في العمل.

وبمجرد أن يخرج من عنق الزجاجة لا يريد أن يتوقف عن الكلام. رئيس فوج إطفاء مثل هذا الرجل يشعر بالضيق كثيراً لأنه لا يرى أثناء عمله أي وجه غريب ولا يتكلم مع أناس آخرين. وهو بالتأكيد لا يعرفني سابقاً وسؤاله لي بأنه (يعرفني سابقاً وشاهدني في مكان ما) ما هو إلا محاولة منه لكي يبدأ بالحديث. ولأنني فهمت مقصده ولكي لا أحرمه من متعة الحديث. قلت له:

ـ في الحقيقة عملكم صعب للغاية.. فأجابني:

ـ أصعب من الصعب.

ـ صحيح أنه صعب بالنسبة لنوعية العمل. ولكنه مريح!

تغيرت سحنته وإحمر وجهه وقطب حاجبيه وأجابني غاضباً:

ـ ماذا تقصد بأن عملنا مريح؟ هل عملنا مريح؟ هل تعرف معنى إطفاء

حريق. نحن نضع أرواحنا على كفوفنا والموت نصب أعيننا عندما نذهب لإطفاء الحريق.

لم أكن أتصور أنه سيغضب لهذه الدرجة فحاولت أن أوضح له ما قصدته بكلام منمق قدر الإمكان فقلت له:

ـ ما قصدته هو التالي. إن عملكم صعب للغاية ولكنه مريح.. فأنتم لا تقومون بأي عمل إذا لم يشب حريق في مكان ما. انظر إلى قاطع التذاكر في هذه الباخرة. هل هو مثلكم. إنه يعمل من الصباح حتى المساء وهو يتأكد من تذاكر الركاب. هل أنتم كذلك؟ أنتم لا يقع على عاتقكم أي عمل إلا عندما يشب الحريق. وهذا يحدث مرة كل أربعين سنة.

اشتد غضبه أكثر لأنني لم أقدر أهمية عمله فأجابني:

ـ قد لا يشب حريق خلال شهر أو خلاله سنة. أما إذا شب حريق؟.. ننتظر ننتظر.. ننتظر.. ولكن إذا شب حريق؟

حاولت تهدئته فقلت له:

ـ هذا ليس كلامي أنا. كل الناس يقولون ما أقوله.

ـ من يقول مثل هذا الكلام فهو.....

أغتاظ كثيراً.

ـ ممكن أن لا يحدث حريق في سنة أو سنتين ولكننا دائماً على أهبة الاستعداد وكأن الحريق الذي سيحدث في أي لحظة.. أما إذا حدث الحريق...

دنت الباخرة من رصيف الميناء.. فقال ونحن نفترق:

ـ لقد كنت مسروراً لمعرفتك.

ـ أنا أيضاً سررت جداً.

الحريق الذي شب في شارعنا كان في اليوم التالي لمعرفتي برئيس فوج

الإطفاء ولم يكن هناك أي علاقة بين الحريق الذي شب في شارعنا وبين رئيس فوج الإطفاء الذي تعرفت عليه لأن مكان عمله كان ينحصر في منطقة بعيدة عن المكان الذي نسكن فيه.

كنت في البيت أقرأ الصحيفة فانتابني شيء من الملل. فقمت لأحدث أحد الأصدقاء هاتفياً كنت أنظر من النافذة وأنا أتحدث بالهاتف وفيما أنا كذلك. شاهدت ألسنة النار تمتد من نافذة أحد المنازل المقابل لمنزلنا. ظننت في بادئ الأمر أن أحدهم قد نسي غطاء مدفأة الغاز مفتوحاً. وأن اللهب يتصاعد من المدفأة. لكن اللهب بدأ يتصاعد أكثر ولم يكن يشبه أبداً اللهب الذي يتصاعد من المدفأة.

ـ أقفلت سماعة الهاتف وأنا أنادي بأعلى صوتي حريق.. ثم فتحت النافذة وبدأت أنادي لأنبه جميع الجيران.

- حريق.. حريق.. ثم قفزت إلى الشارع وكنت أصيح بدون توقف:

- حريق.. حريق..

تجمهر الناس وبدأوا ينظرون إلى النافذة.. كان الحريق يزداد اتساعاً.. قرعنا باب الشقة. لم يكن أحد موجوداً في المنزل، فكسروا الباب ودخلنا المنزل كما هرع بعض الأشخاص إلى قسم الشرطة لتحضر الإطفائية.

كان اللهب والدخان يتصاعدان في كافة أرجاء المنزل.. أمسكنا الأشياء المشتعلة وألقينا بها إلى الشارع.. وحاولنا إطفاء الأشياء التي لا يمكن إخراجها بإلقاء البسط والسجاد عليها. وكان البعض من الناس يجلبون الماء بالجرادل والصفائح ويصبونها فوق الحريق. كافحنا الحريق خلال عشرة أو خمسة عشرة دقيقة. تكسرت بعض الأشياء واحترق بساطان وسجادة وحصيرة (وكنبة) و(قلطقين) لكننا قضينا تماماً على الحريق.

خرجنا من المنزل وتفرق الناس وعدت إلى بيتي. وفي الوقت الذي بدأ

فيه الناس بالانصراف. بدأنا نسمع سيارات الإطفاء وهي تطلق صفارات الإنذار استمرت هذه الأصوات القوية والتي يقشعر لها الأبدان مدة خمسة عشر دقيقة. وبدأت الأصوات تقترب. ثم بدأت سيارات الإطفاء بالظهور.. كانت هناك سيارة ركوب حمراء في المقدمة.. وبعدها السيارات ذات السلالم. ثم السيارات ذات الخراطيم..

بمجيء فوج الإطفاء اكفهر الجو من جديد.. وتجمع في الشارع ثلاثة أو أربعة أضعاف الأشخاص الذين كانوا في الشارع عندما شب الحريق. نزلت أنا أيضاً إلى الشارع ودنوت من أحد الإطفائيين الذي قدرت أن يكون هو الرئيس فقلت له:

ـ لقد أطفأنا الحريق أيها السيد.

كان يعطي أوامره من الشمال إلى اليمين وكأنه لم يسمعني. الآخرون قالوا لرجال الإطفاء الآخرين.

ـ أطفأ الحريق ـ أخمدناه.

ـ لا تتكلفوا أي عناء.

ـ لم يعد هناك لزوم لأي أعمال إطفاء.

ـ لقد كان حريقاً صغيراً ... بالأصل.

ـ حتى لا يمكن أن يوصف بأنه حريق.

ـ أنتم تتكبدون عناء لا لزوم له.

ـ أخمدناه بمجرد أن شب.

ـ كان لا يستحق حتى أن نخبركم بالهاتف.

لم يستمع أحد من رجال الإطفاء إلى أي كلمة من كلام الناس. بعضهم كان يهرول من هنا الى هناك. والبعض يربط حذائه والآخر يرتب جزمته والبعض كان مشغولاً بترتيب قبعته. لا احد يدري كم شهراً

مضى بدون أن يشب فيه أي حريق ولعلهم ملوا كثيراً من الانتظار. لذلك فهم يستعدون بشكل جيد وقد صمموا على إطفاء أي حريق مهما كان السبب. فتحت الخراطيم. وأخرجوا عدداً من البراغي والصامولات وبدأوا يراقبون تشغيل المحركات.

حاول بعض الأشخاص ممن تجمهروا حولهم أن يثنوهم عن هذا العناء الذي يتكبدونه ولكن دون فائدة. أخيراً صاح أحد الجيران في الجماهير المحتشدة قائلاً:

ـ لماذا تحاولون معهم.. دعوهم يطفئون.

قال آخر:

ـ ياهو...ماذا سيطفئون.. لا يوجد حريق.

ـ أنت تظن كذلك. انظر لا زال هناك بعض الدخان. هم يعرفون أكثر منك.

ـ صحيح. قد يذهبون ويستمر الدخان بالتصاعد ومن ثم تشب النار فجأة.

ـ بالضبط.. فقد حدث ذلك كثيراً.

كان رجال الإطفاء مستمرين بتجهيز أمورهم فقال أحد الحاضرين:

ـ الذنب يقع على عاتق من اتصل هاتفياً. يجب أن لا يخبر أحداً رجال الإطفاء بمجرد أن يرى لهباً كلهب عود الكبريت يتصاعد من مكان ما.

أحد الجيران قال:

ـ أنا الذي اتصل هاتفياً. ولكنني اتصلت بهم بعد قليل وأخبرتهم بأن الحريق قد أخمد ولا داعي لمجيئهم.

صمت الجميع وهم يراقبون بفضول رجال الإطفاء ليروا ماذا

سيفعلون؟ علا صوت الإطفائيين الذين لم يكن قد سمع صوتهم حتى هذا الوقت وصاح أحدهم قائلاً:

ـ ألا توجد لديكم مفتاح إنكليزي... أعطونا مفتاح إنكليزي.

نظر كل شخص في وجه الآخر فعاود الإطفائي بصوت أعلى.

ـ أي نوع من الناس أنتم. ألا يوجد مفتاح إنكليزي في كل هذا الحي الكبير؟ لا أستطيع فتح هذه الوصلة.. ياهو.. أعطونا مفتاح إنكليزي.

كان كل شخص يقول للآخر:

ـ مفتاح إنكليزي؟

ـ مفتاح إنكليزي؟

ـ هل لديك أنت؟

فقال أحد الأشخاص وكان يلبس نظارات:

ـ نحن لدينا مفتاح إنكليزي. وهو موجود في بيت إحماي.. والبيت بعيد.

إطفائي آخر بدأ الصياح بجنون:

ـ المحرك.. المحرك.. المحرك.

لم يفهم أحد منا ما هو المطلوب فسأل أحد الأشخاص هذا الرجل الإطفائي.

ـ هل تطلبون منا محركاً؟

صعد أحد رجال الإطفاء إلى ظهر السيارة ذات الخراطيم. وصاح قائلاً كمن يلقي خطاباً:

ـ أيها المواطنون. لماذا تقفون هكذا. أعطوني كماشة.

بعدها بدأ كل شخص يهمس للآخر:

- كماشة. كماشة!..

- كماشة!..

- يا مواطنين ألا يوجد عند أحدكم كماشة؟.

صاح أحدهم من بعيد:

- يا أخي نحن لا يوجد لدينا أي شيء.

فقال الشخص الذي كان يقف جانبه:

- يأخذون الشيء ولا يعيدونه.. كان لدينا. أعطيناها لصديق ولم يعدها. انظر كم نحن بحاجة إليها الآن.

- يجب أن يحتوي البيت على كل شيء.

- ألم يقولوا بالأمثال (خبأ قرشك الأبيض، ليومك الأسود).

- المحرك... المحرك..

- وصلة.. ألا يوجد لديكم وصلة؟

- إذا لم يكن لديكم كماشة.. قدوم ممكن.. حتى مطرقة تكفي.

- الخرطوم... الخرطوم.

- أعطني الخرطوم.

- مدَّه لي.

- لا يكفي.

- اسحب.

- كان عندنا. ولا أحد يعلم أن هو الآن.

- أعطونا صامولة.

لقد نسينا الحريق ونحن نعمل الآن يداً واحدة مع رجال الإطفاء لكي نساعدهم بتأمين جميع متطلباتهم وكلنا حماس. في هذه الأثناء سحب

أحد رجال الإطفاء السلم الحديدي وصعد إلى قمته. كان المنزل الذي شب فيه الحريق يتألف من طابق واحد والسلم الحديدي يكفي للصعود إلى الطابق الأخير في بناء مؤلف من ستة طوابق.

فتح عشرة رجال الإطفاء قماشاً من الخام أسدلوه من الطابق العلوي وبدأوا ينتظرون. كان هذا النوع من الخام يستعمل لنجاة الأشخاص. فقال أحد المحتشدين:

ـ لماذا فتحتم هذا الخام.. من سيلقي بنفسه؟

قال آخر.

ـ ماذا لو سقط أحد الإطفائيين من السلم الحديدي؟

انتهت جميع التحضيرات بعد كثير من الهياج والصياح والنداءات فبدأ بعضهم يضخ الماء في المنزل وبعضهم صعد إلى السطح. وبدأوا بضغط الماء وتحطيم المداخن والجدران.

بعد عشرين دقيقة لم يبق شيء في البيت إلا وتحطم أو تهدم. الزجاج الشبابيك الأبواب. والبيت أصبح كالبحيرة ولكنهم أنقذوا البيت والبيوت المجاورة من الحريق.

جمع الإطفائيون الذين أنهوا مهمتهم. الخراطيم. والسلالم. والعِدد وجميع الأشياء وركبوا سياراتهم. وذهبوا وأصوات الأجراس وصفارات الإنذار تنطلق من الموكب.

* * *

ماذا جرى للإبل

لم أصبح بيطرياً برغبة مني. ومن منا في هذه الدنيا يمارس العمل الذي يرغبه. ولأنني لا أحب البيطرة. لم أكن من الطلاب المجدين في الكلية. ولكنني رغم ذلك أنهيت دراستي دون أي رسوب. وأخيراً أصبحت بيطرياً برغبتي أو بعدم رغبتي. ولأننا ملزمون بخدمة الدولة. فقد قامت الوزارة بتعيين خريجي كلية البيطرة كل خارج محافظته وجاء تعييني مديراً لقسم البيطرة في إحدى المناطق الحدودية. كانت تلك أول مرة في حياتي منذ أن ولدت وترعرعت في مدينة كبيرة أذهب فيها إلى مثل ذلك المكان النائي.

في الوقت الذي كنت أكره فيه البيطرة. تغير إحساسي فجأة وبدأت أحبها عندما علمت بأنني سأكون المدير البيطري لتلك المنطقة. وربما كان السبب في هذا الشعور أنه لم يعد هناك عودة عن البيطرة. أو لأنه لم يعد لي آمال أخرى...

كنت فرحاً جداً وأنا أقوم بالترتيبات اللازمة للسفر إلى تلك المنطقة. وقد قررت أن أكون بيطرياً جيداً وأن أقوم بأداء واجبي الوظيفي على أتم وجه. وأن أستكمل النقص في معلوماتي لقراءة جميع كتبي وأطبقها عملياً في عملي الجديد. لذلك فقد كانت معظم الأشياء التي اصطحبتها معي هي كتباً. ولم تكن هذه الكتب. كتب بيطرة فقط بل كانت تحتوي على قصص كثيرة لم أكن أجد فرصة في السابق لقراءتها، بالإضافة إلى كتب الشعر والتجارب.. ومعجمين كبيرين أحدهما إنكليزي - تركي والآخر تركي - إنكليزي وكنت مقرراً أن أستفيد من وقت فراغي لأقوي لغتي

الإنكليزية حتى أنني اصطحبت بعض كتب البيطرة باللغة الإنكليزية. كما قررت أن أبدأ في كتابة يومياتي منذ وصولي إلى تلك المنطقة. لذلك فقد قمت بشراء دفتر مذكرات سميك من أجل هذه الغاية.

كان من حسن حظي أيضاً وجود (مزرعة الدولة للإكثار) في تلك المنطقة وفي الحقيقة كم كنت أتمنى لو جاء تعيني في تلك المزرعة. لأنني كنت سأفيد العمال الذين يعملون في تلك المزرعة وكنت سأستفيد كثيراً من التطبيقات العملية التي كنت سأشاهدها هناك، هذا علاوة على الأهمية الكبيرة التي تحتلها مثل هذه المزارع.

وصلت مساء إلى تلك المنطقة وأنا بشوق كبير للعمل واكتساب الخبرة ولأن أكون مفيداً للثروة الحيوانية في تلك المنطقة. نزلت في أحد الفنادق ريثما أبحث عن بيت ملائم. وكانت أغراضي تتكون من ثلاث حقائب و(خُرْج) وحقيبة كتف. كانت حقيبتين من تلك الحقائب تحتوي كتبا. وقررت أن لا أقوم بفتح الخرج والحقائب حتى أنتقل إلى البيت الذي سأستأجره.

كان الظلام قد أسدل ستاره عندما دخلت غرفتي في الفندق. وفي الصباح وفي بداية الدوام الرسمي ذهبت إلى مديرية المنطقة. وحيث أنه لا يوجد مديراً للمنطقة منذ ثلاثة أشهر فقد كان معاون المدير هو الذي يقوم بالعمل بدلاً عنه. عَرَّفتُ نفسي لمعاون المدير وبعد أن أبدى سروره بمجيء. قال لي بأن أمر تعييني لم يصل للمنطقة بعد. وأنه يأمل بأن يصل خلال عشرة أو خمسة عشرة يوماً وأبدي دهشته لوصولي قبل وصول أمر التعيين فقلت له أنا أعلم أن على الموظف أن يلتحق في مكان عمله خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ أمر التعيين وإلا فإنه يلاحق قضائياً. لذلك فقد أسرعت بالسفر بمجرد استلام أمر التعيين لكي لا أتأخر عن عملي.

كنا نحتسي القهوة سوية فقال لي:

ـ هذا صحيح ولكننا نحن الموظفون نلجأ في مثل هذه الحال إلى أحد أصدقاؤنا الأطباء ونحصل منهم على تقرير طبي لمدة شهر أو خمسة عشر يوماً. ألا تعرف أحد الأطباء؟

قلت لمعاون المدير هذا الرجل المرح. والقريب من القلب.

ـ أنا أجهل هذا الموضوع. ولم يُعلمني أحد عنه سابقاً.

فأجابني معاون القائمقام وهو يضحك.

ـ عدم المعرفة ليس عيباً. ولكن العيب في عدم التعلم.. لذلك عليك أن تعمل ما قلت لك عليه فيما بعد عندما تريد الذهاب إلى المكان الذي تعينت به.

وقال لي معاون القائمقام بأنني أستطيع البدء في عملي بعد وصول أمر التعيين فسألته عن مكان العمل فأجابني بأنه قريب. وأن الزراعيين والبيطريين هم في الطابق السفلي من البناء. سألته كم موظفاً يعمل في مديرية البيطرة فأجابني بأنه لا يعرف وربما كانوا خمسة أو ستة موظفين. شكرته وذهبت أسأل عن مكان مديرية البيطرة. كانت المديرية في بناء قديم. يحتوي في طابقيه العلويين على بعض الدوائر الرسمية أما القسم الأكبر من الطابق الأرضي فكان فيه مديرية الزراعة وكانت مديرية البيطرة بجوار مديرية الزراعة. كانت هناك ورقة من المقوى عُلقت على إحدى درفتي الباب الخشبي وقد كتب عليها بأسلوب ركيك «الجمهورية التركية ومن ثم اسم المنطقة وبعدها مديرية البيطرة». وقد أُغلقت درفتي الباب بسلك صدئ يعلق عليه قفل كبير وتم تثبيت طرفي السلك بحلقتين ثم تثبيتهما ببراغي رُكبت على درفتي الباب. ولأن الباب كان مغلقاً. فدخلت إلى مديرية الزراعة المجاورة. وعرَّفت نفسي فاستقبلوني استقبالاً حاراً وقلت لهم بأن باب مديرية البيطرة مقفلاً فأخبروني بأن البواب المخصص لمديرية البيطرة هو في المقهى المقابل وأرسلوا في طلبه. بعد قليل

جاء البواب وعرفته على نفسي فهجم فوراً على يدي يريد تقبيلها. سحبت يدى بصعوبة. فقد كان الرجل يبدو أكبر من والدي سناً.

ثم قال لي:

تفضلوا... لأريكم مقامكم...

كان مدير الزراعة قد قال لي تفضل في المساء إلى «الموسم الخامس» حيث ترى جميع الأصدقاء الذين يعملون في هذه المنطقة مجتمعين هناك.

عدنا إلى مديريتنا التي قفل بابها بقفل معلق. كنت انتظر من هذا البواب الساذج أن يفتح هذا القفل بالمفتاح ولكن بدلاً عن ذلك سحب أحد الحلقات المثبتة بالبراغي ففتح الباب وبقي القفل مُعلقاً بالسلك على الدرفة الأخرى. فقلت للبواب لو كنت أعلم بأن الباب سيفتح بمثل هذه السهولة لما انتظرت طويلاً أمام الباب. وسألت لماذا تعلقون إذن مثل هذا القفل ما دمتم تستطيعون فتحه بدون مفتاح فأجابني لا نضع هذا القفل من أجلنا نحن ولكن من أجل المواطنين لأنهم بمجرد أن يروا القفل معلقاً على الباب يعودون أدراجهم بدون أن يتأكدوا فيما إذا كان أحداً في الداخل كما أنهم لا يحاولون فتح الباب وهو مقفل. ونحن بعد أن أضعنا مفتاحي القفل وسّعنا قليلاً مكان البرغي الذي يمسك بالحلقة فأصبح الباب يُفتح بسهولة.

دخلنا إلى المكان الذي سأمارس فيه عملي الوظيفي لأول مرة كان المكان عبارة عن غرفة صغيرة وغرفة أصغر منها متصلتين ببعض وكان في العمق غرفة ثالثة أصغر من الغرفتين كانت تلك الغرفة غرفة مدير البيطرة. أي عرفني. سألت البواب كم عدد العمال والمناظرين والفنيين الذين يعملون في المديرية فأجابني بأن عددهم لا يتجاوز الاثنان. كان أحدهم البواب الذي تكلمت معه والثاني «السيد الكاتب» والثالث أنا. سألته أين «السيد الكاتب» فقال لي: إنه يأتي دوماً بعد الظهر ولكنني سأذهب

لأخبره بقدومك بعد أن أوقد المدفأة فقلت له لا داعي لأن تكلف نفسك هذا العناء.

كان الجو با دا حداً وقد أوضح لي البواب لماذا فتح النافذتين قبل أن يوقد المدفاه .. لأن المدفأة يتصاعد منها دخان كثير في بدء اشتعالها... دس البواب الحطب في المدفأه المصنوعة من الصفح ودس بعض الجرائد بين الحطب ثم أوقد النار في هذه الجرائد. فبدأ الدخان يتصاعد من المدفأة ومن كل أطراف البواري، قلت في نفسي لو أوقد هذا الحطب لا داخل المدفأة بل في وسط الغرفة لما تصاعد الدخان أكثر من ذلك. أغلق البواب النوافذ بعد نصف ساعة من اشعال المدفأة. دخلت إلى غرفتي كان هناك طاولة قديمة بأربع أرجل ليس لها أي أدراج أو رفوف. وكرسيين غير متوازيين لأن إحدى أرجل الكراسي قصيره. وهناك مقعد ضخم من الجلد المهترئ لا أدري كيف استطاعوا إدخاله إلى هذه الغرفة. وهناك خزانة زجاجية ذات درفتين إحدى الدرف ليس لها زجاج والثانية زجاجها مكسور.

وعلى الجدار علق تقويم تاريخه قبل سنتين وهو عبارة عن دعاية إعلانية لأحد أنواع اطارات السيارات. وكان هناك أيضاً بعض قطع الأثاث لا تستحق الذكر.. كانت الدعاية عبارة عن امرأه عارية أدخلت إطار السياره في خصرها وبين فخذيها وبشكل أخفت معه المكان الذي يشد الانتباه.

في الظهيرة جلب لي البواب طعام الغذاء وكان عبارة عن رغيف من الخبز وفي داخله بعض قطع الكباب. وسألني ماذا تريد أن تشرب. قلت له (عيران) فأجابني بأن العيران لا يوجد إلا في البيوت لأنه في السنوات الأخيرة لم يعد العيران مطلوب ولأن (الموضة) الآن هي أن تشرب كوكاكولا موكاكولا فرحت لأن العيران لازال يصنع في البيوت فمعنى ذلك أن الحليب واللبن والعيران كثير... ولكن حسب ما قاله البواب. نعم

في الماضي كان وفيراً أما الآن فقد تناقص كثيراً عدد الأبقار والمواشي وبدأوا يصنعون العيران من حليب البودرة المستورد.

وفيما كنت ألتهم الخبز والكباب أخبرني البواب بأن «السيد الكاتب» لا يأتي إلى الدائرة كل يوم ولا يوجد هاتفاً في بيته. لذلك من الأنسب أن أذهب أنا إلى بيته وأخبره عن قدومك.

ذهب البواب وبدأت أتصور كيف سأكتب دفتر اليوميات عندما سأذهب إلى الفندق مساء عن أول يوم في أول مكان لعمل وظيفي لي وبكل تفاصيله وحقيقته ـ حقيقته المرة. انتهيت من الطعام بعد أن أكلت الكباب كله ونصف رغيف الخبز. رسمت على الطاولة بإصبعي بعض الأشياء. تلك الطاولة التي تعلوها طبقة سميكة من الغبار. كانت أشياء مبهمة لا يستطيع فهمها وتحليلها إلا العلماء النفسانيون. بعد قليل دخل شخصان كان أحدهم البواب أما الآخر فلابد إلا وأن يكون «السيد الكاتب». أظهر الكاتب ترحيبه الحار بي وكأننا كنا قد أمضينا مع بعض أربع وعشرون عاماً كأصدقاء من عمري الأربعين. لم أبدي أي اهتمام بهذا الترحيب الحار ولكنني وجدت نفسي ضمن ذلك الجو رغماً عني. عمر «السيد الكاتب» مجهول ولكنه لا بد وأن يكون أكبر من والدي بكثير. فهو يحب أن يضيف هذا اللفظة العربية «مع الـ» لكل كلمتين ينطق بهما. مثل «مع الأسف» «مع التأسُّف». «مع الممنوية». «مع الشكران». «مع المجبوريه». «مع الاحترام». «مع الافتخار». «مع هذا».

أفهمت الكاتب بأن أمر تعييني لم يصل إلى مديرية المنطقة بعد. وأنني أُعتبر بأنني لم أباشر العمل رسمياً. ولكنني أرغب في معرفة نوعية العمل. وكم هو كادرنا الوظيفي. فبدأ «السيد الكاتب» يشرح لي كل شيء مضيفاً إلى حديثه لفظة «مع الـ» وقال أنه بيطري قديم وأنه فني جيد وأنه

يعمل في هذه المنطقة منذ تسعة عشر عاماً. ورغم أنه يحق له التقاعد إلا أن صعوبة الحياة «مع المجبوريه» ترغمه على أن يستمر في عمله. وقال أيضاً إن أهالي المنطقة منحطين جداً «مع الأسف» وهو «مع التأسف» لا يستطيع أن يترك المنطقة لأنه متزوج من نفس المنطقة وله عدة أولاد وأن له بنت تدرس في المعهد العالي للمعلمين في أنقره. وأنه سيطلب «مع الممنوية» إحالته على التقاعد بعد أن تصبح ابنته مدرسة. أما عن الكادر الوظيفي فجب أن يتألف من ثلاث موظفين وثلاث ناظرين. وشرح لي طويلاً كيف أنه وحده مع هذا البواب يقوم بجميع أعمال هذا المركز.

أحببت أن أعرف نوعية الأعمال. فقلت له ما هو عملنا؟ نعم.. عملنا.. عملنا. عملنا هو تحضير القوائم والجداول فهناك. جداول شهرية، وربع سنوية. ونصف سنوية. وسنوية نحضرها ونرسلها إلى المديرية مباشرة. ولأن هذه الجداول يجب أن ترسل على جناح السرعة فهي لا تمر على مركز المحافظة. بل ترسل مباشرة إلى المديرية العامة. ومنها إلى الوزارة.

سألته عن المواضيع التي تحتويها تلك القوائم والجداول؟. فأخرج من رف الخزانة ذات الزجاج المكسور. مجلدات مهترئة ودفاتر ضخمة وملفات يعلوها الغبار وفتح أحد الملفات وقال لي هذه هي النماذج. وفتح على الطاولة ورقة أكبر من الملف بخمس أو ستة مرات طُبع على هذه الورقة خطوط أفقية وعامودية وقسمت هذه الورقة إلى مربعات كثيرة كان السيد الكاتب يقول عن هذه المربعات «خانات» وفي أعلى هذه المربعات هناك كتابة مطبوعة. تُملأ هذه «الخانات» في أشهر معينة من السنة وترسل إلى المديرية العامة كانت الكتابة المطبوعة في رأس المربعات هي: أمراض الحيوانات السارية في مركز المديرية والقرى المجاورة، التدابير المتخذة. اللقاحات. العلاج. الطيور الداجنة. الحيوانات الكبيرة. حيوانات الحمولة. عددهم وأنواعهم. الأبقار نسبة الزيادة والنقص. الحاجة إلى إسطبلات.

الإلقاح الصناعي. وأشياء أخرى. وأردف السيد الكاتب إنها أعمال شاقة وهو يقوم بها بمفرده عوضاً عن ستة موظفين مطلوبون لملأ شواغر هذا المركز.

لفت نظري في إحدى خانات الجدول وجود عدد كبير من الأبقار في المنطقة فتذكرت كلام البواب الذي قاله قبل قليل عن صنع اللبن من حليب البودرة المستعمل فسألت عن صحة الأبقار والتدابير المتخذة وعما إذا كانت هناك أمراض سارية أم لا. فأجابني: أهل بقي في المنطقة أبقار؟ حتى يكون هناك أمراضاً سارية.. الحمد لله لم نصادف أمراضاً سارية أو غير سارية لأنه لا يوجد حيوانات أصلاً. والسبب: يعود إلى سياسة الحكومة. الزراعية والحيوانية. إذا لم يعد وجوداً للحيوانات. فما هذه الأرقام إذن؟

«السيد الكاتب» غير مجرى الحديث. فقال لي بالنسبة لبيت الإيجار الذي تبحث عنه. من الصعب في الحقيقة أن تجد بيتاً ملائماً في هذه المنطقة. ولكنك إذا كنت تقبل بسكن مثل معظم مساكن الشعب فهذا أمل سهل. فقلت له أقبلْ.

حل الظلام. فضغط البواب على مفتاح الكهرباء وأنار المصباح العادي المليء بالعبار. كان وقت العمل اليومي قد انتهي منذ فترة طويلة، ولكننا غرقنا أنا و«السيد الكاتب» في حديث طويل. وكان الباب يفتح بين الحين والآخر ويسال احدهم «السيد الكاتب» عما إذا كان سيحضر هذا المساء إلى «الموسم الخامس» أم لا؟ وكان «السيد الكاتب» يجيبهم بالتأكيد وسيكون معي ضيفنا السيد مدير البيطرة «يعني أنا». بعد ذلك أفهمني أنه «مع الأسف» لا يوجد في المنطقة سوى أربع أماكن يستطيع فيها الموظفون والتجار وسادة القوم التحدث بحرية وتناول المشروبات الكحولية. وهي «مطعم اللدّة» و«مطعم حسن الطبيعة» و«مطعم عكاش». و«الموسم

الخامس» والمطعم الأخير كان اسمه «الصحن الكبير» فجدده صاحبه وأصبح اسمه الموسم الخامس وهو أرقى المطاعم. فالتجار يذهبون إلى ناديهم الخاص. والمعلمون يذهبون إلى مقر جمعيتهم. باقي المطاعم فيها أماكن للعب القمار وهذا يحدث ضجة كبيرة لذلك «مع الأسف» لا تستطيع أن تتحدث بود و(بجد) في مثل هذه المطاعم. لذلك فإن السادة المثقفين وكبار أهل المنطقة والناس الذين هم فوق الغربال انقسموا إلى أربع مجموعات. كل مجموعة تذهب إلى مطعمها. وأوصاني «السيد الكاتب» بالذهاب إلى الموسم الخامس لأنني لن أجد هناك أناساً من الطبقة الواطية (سُفْلي). لذلك فهناك (مع الممنوية) لا أحد يتدخل لا في السياسة ولا في المياسة والكلام الفارغ.

كنت أحاول أن أصور في مخيلتي كل ما جرى معي من أحاديث وحوادث لأسجلها في دفتر يومياتي.

قال (السيد الكاتب) لقد حان «وقت الراحات» فخرجنا ومشينا في الظلام في طريق مزعج ونحن ندوس مرة في التراب ومرة في الطين إلى أن وصلنا إلى الموسم الخامس.

في تلك الليلة تعرفت في الموسم الخامس على مدير الثانوية ومدير البريد ومدير إكثار الدولة. ومدير الغابات ومدير الصحة. ومدير السجل العقاري. وعلى مدراء آخرون. وعلى المدعى العام والقضاة وقد كان لي مكان من هؤلاء المدراء بصفتي مدير البيطرة في المنطقة. كان الجميع متقدمين في السن وكنت أبدو بينهم كأحد أولادهم. ورغبة مني في ردم هذه الهوة أرغمت نفسي على الشرب مثلهم وأن أتكلم وأفرح وأتصرف مثلهم.

ذهبت إلى غرفتي في الفندق وأنا ثمل لدرجة أنني لم أتمكن من ان أفتح الحقيبة لأخرج دفتر اليوميات. وعندما استيقظت فى الصباح تبين لي

أنني نمت بدون حتى أن أخلع البنطلون. ولكنني اتخذت قراراً بأنين سأكتب يومياتي في المساء التالي.

كانت الأيام التي عشتها في المنطقة لا تختلف كثيراً عن اليوم الأول ولا أعرف كيف مرت الأيام والليالي بعد ذلك. كثيراً من الأيام كنت لا أجد الوقت لقراءة صحيفة. بعد أسبوعين وصل أمر التعيين من الوزارة فاستأجر لي السيد الكاتب بيتاً واشترى لي بعض الأشياء الضرورية. سرير. برادي. كراسي وبعض الأشياء الأخرى وسكنت في البيت. وحتى الآن لم أجد الوقت لفتح حقيبتين من الحقائب الثلاثة التي جلبتها معي كما وضعت الحقيبتين المليئتين بالكتب بالخزانة الجدارية.

وصلنا أول كتاب رسمي من الوزارة بعد مضي ستة أشهر على عملي الوظيفي. وصلنا الكتاب بالبريد. كنت فرحاً جداً وأنا أفتح الظرف فقد كان هذا الكتاب الرسمي الوارد من المديرية العامة يشعرنا بالرهبة والاحترام. كانوا يؤكدون علينا في ذلك الكتاب بالإسراع في إرسال الجدول رقم /٥/ لأننا قد تأخرنا في إرساله كما يؤكدون على عدم تأخير الجدول رقم /٨/ وإرساله في موعده المحدد. قال لي السيد الكاتب لا أريدك أن تهتم بمثل هذه الأعمال الرسمية فأنا أقوم بعملها دائماً وأنت غير مطلوب منك سوى التوقيع فقط. تضايقت كثيراً بسبب التأخير في إرسال الجداول المطلوبة بالإضافة إلى أنه كان يوقعني على جداول وقوائم كثيرة. فسألته بشكل رسمي عن أسباب التأخير. فأجابني الكاتب بهدوئه المعتاد وأعصابه الباردة. لا شيء يدعو للقلق ولا تهتم لهذا الموضوع. فقد تعودنا على استلام مثل هذه الكتب الرسمية والمخيفة والتي تردنا من المديرية العامة. وأحياناً من الوزارة مباشرة. ونحن قد أرسلنا الجدول رقم /٥/ منذ مدة وحتى قبل الموعد المطلوب وهو مزيلاً بتوقيعك. ولما سألته عن سبب التأكيد في طلب الجدول. قال السيد الكاتب لقد دأبت الوزارة على إرسال مثل هذه التأكيدات إلى جميع الوحدات سواء التي أرسلت

الجدول أو التي لم ترسله. لأنها لا تستطيع التأكيد من الذي أرسل ومن الذي لم يرسل. لأن هذا الموضوع صعب ويحتاح إلى وقت طويل لذلك فهي ترسل إلى جميع مديريات البيطرة مثل هذا التأكيد. بعد ذلك أخرج من الملف نسخة عن الجدول رقم /٥/ المرسل من قبل مديريتنا مع كتاب الإرسال المذيل بتوقيعي وأراني إياه، وأضاف بأنه يقوم بعمله بدقة متناهية وبدون أي تأخير. خجلت من نفسي كثيراً فسألته: وماذا عن الجدول رقم /٨/؟ فقال لي: لا زال الوقت مبكراً لإرسال هذا الجدول ولا داعي لأن أكون قلقاً أبداً. فتحضيره لا يستغرق أكثر من نصف ساعة. كان يُسَير جميع أعمال البيطرة في تلك المنطقة وفق هذا الأسلوب.

وفي الحقيقة فقد جهز السيد الكاتب الجدول رقم /٨/ أمامي خلال نصف ساعة كما قال. ولكي لا أبدو غريباً عن جو العمل كنت أتابع السيد الكاتب بمنتهى الدقة. وضع على الطاولة ورقة كبيرة مخططة أفقياً وعمودياً. وبدأ يملأ الخانات الفارغة بالأرقام. وقد وضع أمامه جدول العام الماضي. وكان ينظر إلى ذلك الجدول ويملأ المربعات الفارغة. كانت الكتابة المطبوعة في رأس الجدول «عدد المواشي وحيوانات الحمولة الموجودة في المنطقة... حتى تاريخ...».

فوق إلى اليمين: عدد الأبقار.

إيضاحات: أنواع الأبقار الموجودة.

كان السيد الكاتب يملأ الخانات الفارغة.

عدد الأبقار: /٩٠٧٦/

أدهشني هذا الرقم فسألته عن صحته وهل هذا العدد يشمل أيضاً عدد الأبقار الموجودة في القرى أيضاً؟ فأجابني كلا إنه عدد الأبقار الموجود في مركز المنطقة فقط كيف؟ فعدد سكان المنطقة هو /٧٨٠٠/ نسمة ولو كان لكل شخص بقرة لما تطابق الرقم مع ما كتبته. هل تم عمل إحصاء

للأبقار؟ ثم ألم تقل لي أنه بسبب سياسة الحكومة الزراعية والحيوانية لم يبق أي بقرة والحمد لله في هذه المنطقة.

أجابني السيد الكاتب لم يتم إحصاء الأبقار وباقي الحيوانات. وأنت تعلم حتى أن إحصاء السكان لا يعطيك النتائج المطلوبة. وأنه ينظر إلى عدد الأبقار المسجلة في جدول العام السابق ويسجل العدد في الجدول الجديد على ضوء ذلك. كان عدد الأبقار في الجدول رقم /٨/ للعام السابق هو /٨٩٠٠/ وهو قد أخذ في عين الاعتبار عدد الأبقار التي ذُبحت والتي وُلدت والتي نفقت فتبين له أن الزيادة يجب أن تكون / ١٧٦/ بقرة فسألته وكيف وجدت عدد الأبقار في العام الماضي فأخرج لي جدول العام الذي قبل الماضي. كان عدد الأبقار في تلك السنة المسجل في الجدول هو /٨٢١١/ فسألته لماذا سجلت الزيادة لهذا العام ١٧٦ وليس ١٥٠ أو ١٧٠ فقال لي إن الأرقام المدورة لا تعطي قناعة مثل الأرقام الصغيرة. لأن ذكر الأرقام الصغيرة يعني أنك قد قمت بالفعل بإحصاء عدد الأبقار واحدة بواحدة. فسألته ما دمت تقوم بعمل القوائم والجداول منذ ١٩ عاماً فكيف وجدت عدد الأبقار في أول جدول أرسلته؟ فأجابني نظرت إلى الجداول السابقة. فقد كان عدد الأبقار قبل ١٩ عاماً المسجل في الجدول رقم /٨/ لا يتجاوز ٣٠٥ أبقار وكنت كل عام أضيف الزيادة اللازمة حتى وصل عدد الأبقار في هذا العام إلى / ٩٠٧٦/. معنى ذلك أن عدد الأبقار في العام القادم يجب أن يتجاوز العشرة آلاف. طيب لماذا لا تكف عن كتابة الزيادة في عدد الأبقار وتثبت الرقم الحالي. فأجابني السيد الكاتب. هذه عادة متبعة ليس في هذه المنطقة فقط بل في جميع مديريات البيطرة. لأنه إذا ظهر في أحد الجداول المرسلة من إحدى المناطق أن عدد أي حيوان قد نقص عن جدول العام السابق أو حتى إذا كان مساوياً لعدد العام السابق فإن الوزارة. تقوم فوراً بالسؤال والبحث عن المسؤول عن هذا التقصير. أما إذا كان عدد الحيوانات يزداد

في الجداول المرسلة إليها. فإنها لا تسأل. بل تشعر الوزارة بالفخر والاعتزاز. لأن تناقص عدد الحيوانات من عام إلى آخر يعني أن ثروتنا الحيوانية في تراجع وأن سياسة الوزارة فاشلة في هذا المجال.

أردت أن أكف عن مناقشة موضوع الأبقار مع السيد الكاتب بعد كل هذه التوضيحات التي قدمها لي ولكنني لم أعد أستطيع السكوت عندما رأيت أن عدد البغال قد فاق كل المقاييس. كان السيد الكاتب قد دأب على زيادة البغال منذ تسعة عشر عاماً رغم عدم وجودها في المنطقة أصلاً. ولأنه وجد في الجداول السابقة لحضوره إلى المنطقة ذكراً للبغال فاضطر إلى زيادتها حتى أصبح عدد البغال في الجدول للعام الحالي /٩١٤/ بغلاً. سألته الأبقار تتزايد بالولادات ولكن البغال لا تلد فلماذا إذن يزداد عددها. أجابني صحيح أن البغال لا تلد ولكنها تأتي من أنثى الحصان بعد أن تحمل من الحمار. فقلت له على أقل تقدير يجب أن لا تضيف أي زيادات على عدد البغال في قوائم هذا العام. ويجب أن تنقص العدد قليلاً في كل سنة قادمة، وهكذا حتى تصل إلى أحد السنين ولا يبقى هناك ذكراً للبغال في القوائم المرسلة للوزارة.

كانت أول مناقشة حادة تدور بيني وبين السيد الكاتب. هي عندما رأيت عدد الإبل. كان العدد في جدول العام الماضي /٢٠٨٣/. جملاً فأضاف السيد الكاتب ٢١٩ فأصبح عدد الإبل في جدول هذا العام / ٢٣٠٢/. فإذا كان عدد نفوس المنطقة /٧٨٠٠/ نسمة فمعنى ذلك أن هناك جملاً واحداً لكل ثلاثة وواحد من عشرة من السكان بما في ذلك الأطفال. ولما كنت قد أمضيت في المنطقة عدة شهور لم أرى فيها جملاً واحداً. سألت الكاتب أين كانت هذه الإبل.

جواباً على سؤالي هذا قال السيد الكاتب. حقيقة لا يوجد إبل في هذه المنطقة وهو لم ير أيضاً جملاً منذ أن أتى إليها. قلت له ما دام الوضع

كذلك لماذا إذن تكتب في خانة الإبل كل هذا العدد. أجابني عن تساؤلي هذا بأنه درس هذا الموضوع ووصل إلى هذه النتيجة. في القديم كانت تمر قوافل الإبل في هذه المنطقة. وكانت هذه القوافل تمكث بضعة أيام في هذه الخانات ثم تتابع طريقها. وفي إحدى المرات مرضت ثلاثة جمال تابعة لإحدى القوافل ولما كان أهل المنطقة لا يأكلون لحم الجمل فلم تذبح الجمال وتركتها القافلة في المنطقة ورحلت. في هذا الوقت بالذات كان مسؤولي البيطرة في المنطقة يحضرون مثل هذه الجداول فقاموا بتسجيل عدد ثلاثة جمال في الجدول. وأرسل ذلك الجدول إلى المدرية العامة. ولم يعد بالإمكان ومهما كان السبب ولو ماتت تلك الجمال من ترك خانة الإبل فارغة في العام التالي. وخوفاً من أن تسأل المديرية العامة عن مصير الإبل الثلاثة. كتب في خانة الإبل (خمسة جمال) وبعد ذلك بدأ العدد يزداد في الجداول المرسلة حتى وصل إلى /٢٣٠٢/ جملاً. وقد كان عدد الإبل عندما جاء السيد الكاتب إلى المنطقة تفوق الألف وقد دأب على زيادتها من مائة إلى مائة وخمسون جملاً كل عام حتى وصلت إلى ذلك العدد.

قلت للسيد الكاتب مادام لا يوجد في المنطقة جملاً واحداً منذ عدة سنوات فمن فضلك اترك خانة الإبل فارغة وإلا فإنني سأمتنع عن توقيع هذه الجداول بوصفي مديراً للبيطرة لأنني لا أريد أن أتحمل مسؤولية هذا التزوير. كنت أعلم مسبقاً بأن السيد الكاتب سيطلب مني عدم شطب عدد الإبل مرة واحدة وذلك حفاظاً علي وأنه سيدخل معي في مساومة بأن تذكر مثلاً عدد الإبل الموجودة في جدول العام الماضي بدون أية زيادة. قلت له جيد ولكن ماذا لو زارنا أحد المسؤولين وسألنا أين هذه الإبل؟ فقال السيد الكاتب لم نسمع عن أي مسؤول أنه استفسر عن عدد السكان الذي يتم إحصاؤه بالغش والكذب فهل سيسألون عن عدد الحيوانات وخاصة الإبل. ولنفرض أن أحد المسؤولين قد جاء إلى المنطقة

فلن يسأل عن عدد الإبل وإن مثل هذه السابقة لم تحصل في تاريخنا الوظيفي أبداً. أما إذا ألغينا عدد الإبل المذكور في الجدول السابق وهو / ٢٠٨٣/ مرة واحدة فإن ذلك سيجلب الانتباه. ومن يدري فربما استدعيت إلى المحكمة وطالبوني بدفع قيمة هذه الإبل.

قلت بتصميم هذا لا يجوز. وعلاوة على أنني تركت خانة الإبل فارغة شطبت بالقلم على طول هذه الخانة لكي يفهموا تماماً إنه لا وجود للإبل في منطقتنا.

رغم أن مزارع الدولة للإكثار لم تكن تابعة لمديريتنا إلا أننا كنا نعطي معلومات عن الحيوانات الموجودة في تلك المزرعة في جداولنا. كان في المزرعة خيولاً وأبقاراً ومواشي وحيوانات أخرى. وفيما كنت أدقق في المعلومات المرسلة من المزرعة خلال العشر سنوات الأخيرة. وقعت في حيرة من أمري والسبب هو التالي. كان عدد جميع الحيوانات في المزرعة قبل عشر سنوات أربعة آلاف وثمانمائة وكان عدد الموظفين في تلك السنة أربعين وفي المعلومات المسجلة عن السنة التالية نقص عدد الحيوانات فأصبح أربعة آلاف ومائة. ولكن عدد الأشخاص الذين يشرفون على تلك الحيوانات زاد فأصبح سبعين وهكذا دواليك. فقد كان عدد الحيوانات يتناقص كل عام بينما يزداد الأشخاص المشرفين على تلك الحيوانات. وفي آخر معلومات وصلتنا من المزرعة كان هناك مائة وسبعين موظفاً من أجل ستين بقرة. ففي الوقت الذي فيه عدد الموظفين قبل عشر سنوات هو موظف واحد لكل ٢٨ حيوان أصبح هناك ٢,٩ موظف لكل بقرة. وإذا استمرت هذه النسبة العكسية على هذا المنوال. فإن الأبقار سوف تُستهلك وسوف ينحصر إنتاج مزارع الدولة بالإنسان فقط.

وبما أن مديريتنا ليس لها علاقة بعدد الموظفين أو الحيوانات التي في

مزارع الدولة فقد قمنا بتنزيل المعلومات الواردة من المزرعة كما هي وأرسلنا الجداول إلى المديرية العامة.

مضى تقريباً عاماً. وكنت قد نسيت تماماً حادثة الإبل. وفي أحد الأيام أخبرني مدير المنطقة بالهاتف وقال لي بأن السيد المحافظ يريد رؤيتي على جناح السرعة. وطلب مني أن أقابل المحافظ على جناح السرعة. ما علاقتي أنا بالمحافظ حتى يطلب رؤيتي.. فأنا حتى ذلك الوقت لم أكن قد قابلت أي محافظ. بصراحة لقد كنت خائفاً لأنني كنت أسمع بعض الأحاديث التي شاعت في المنطقة عن صرامة وشدة ذلك المحافظ.

قصدت مركز المحافظة. وشعرت بأن قلبي الصغير سيفر من صدري وأنا أدخل قصر الحكومة من شدة ضرباته. قدمت نفسي لمدير مكتب المحافظ. فدخل إلى غرفة المحافظ وخرج مسرعاً ليقول لي إن المحافظ بانتظارك.

دخلت غرفة المحافظ. كان المحافظ واقفاً وقبل أن أُعرِّف نفسي صاح في وجهي غاضباً.

ـ ماذا حل بالإبل؟

ولأنني نسيت حادثة الإبل منذ زمن طويل سألته بقلب طيب:

ـ أية إبل يا سيدي؟

اغتاظ المحافظ وبدأ يصيح:

ـ أية إبل؟... أتسأل أيضاً... أية إبل... ليس جملاً واحداًولا عشرة ألفان وثلاثة وثمانون جملاً بالتمام.. الوزارة يسال ماذا حل بالإبل؟ ماذا فعلتم بكل هذه الإبل.

فهمت عن أيةِ إبل يسأل المحافظ عندما ذكر العدد. فحاولت وأنا أتلعثم بالكلام بأن أفهم السيد المحافظ بأنه لم يحدث أي شيء للإبل. وأن

الإبل المذكورة في الجداول السابقة غير موجودة أصلاً في المنطقة. ولكنني كنت أحاول عبثاً. كان المحافظ مستمراً بالصياح ولم يسمع أي كلمة مما قلته.

فهمت من صياحه كل شيء. فالمديرية العامة ارتبكت كثيراً عندما وجدت أن /٢٠٨٣/ جملاً قد اختفوا من الوجود فكتبت للوزارة تعلمها بالموضوع فأرسلت الوزارة للسيد المحافظ تسأله عن اختفاء /٢٠٨٣/ جملاً في المنطقة الفلانية.

حاولت تهدئة السيد المحافظ الذي أصبح كالبركان الهائج الذي يقذف حمماً فقلت:

ـ إذا سمحتم لي يا سيدي سوف أبحث عما حل بالإبل وسأعرض عليكم النتيجة في أقرب وقت ممكن.

قذف المحافظ بعض الكلمات لم أفهمها وصاح قائلاً وأنا أخرج من الباب «أريد حساب الإبل».

عدت إلى المنطقة وحدثت الكاتب بما جرى لي مع السيد المحافظ فهز رأسه ونظر إلي وكأنه يقول لقد حذرتك من قضية الشطب. ثم قال:

ـ «مع هذا» سنجد الحل المناسب.

ـ كيف ستجد الحل لألفين وثلاث وثمانون جملاً؟

سنجد الحل لأن هذه الجمال ليس لها وجود إلا في الجداول. وهكذا فقد طير السيد الكاتب برقية مذيلة بتوقيعي إلى المديرية العامة وقد كان مضمونها تقريباً. كما يلي: «نعرض عليكم ما يلي: لم يرد في الجدول رقم /٨/ سهواً عدد الإبل في المنطقة. كان عدد الإبل في منطقتنا ٢٠٨٣ جملاً في العام الماضي ازداد العدد في هذا العام /٢١٩/ جملاً. فأصبح العدد لهذا العام /٢٣٠٢/ جملاً مع وافر الاحترام».

كنت في هاجس فيما إذا كان هذا الكلام سينطلي على الوزارة. ولكن مضت عدة شهور بدون أن نسمع أي شيء. استمرت أيامي في المنطقة على نفس الوتيرة التي تعودت عليها. الحديث والأكل والشرب مع الأصدقاء يومياً في مطعم الموسم الخامس.

كنت على وشك أن أطلب إجازتي السنوية. فجاء قرار تعييني الجديد الذي يتضمن ترفيعي أيضاً. معنى ذلك أن المديرية العامة راضية عن عملي في هذه المنطقة. وثمنت عملي وأمرت بترفيعي. وفي آخر يوم وبسبب سفري قام الأصدقاء بعمل وليمة لي.

وفي الصباح وقبل أن أغادر المنطقة أخرجت الحقيبتين المليئتين بالكتب. كم هي ثقيلة الوزن هذه الحقائب على الفاضي. حتى دفتر يومياتي لم أخرجه من الحقيبة. وأنا أتحدث من نافذة القطار مع السيد الكاتب قلت له:

ـ هل ستكتب لي رسائل؟

ـ فقال لي «مع جزيل الشكر».

* * *

يساري حقيقي

بعد انتخابات ٢٠ تشرين الأول ١٩٩١ نشرت جميع الصحف تقريباً مثل هذا الخبر.

وبعد أن خسر الحزب الحاكم الانتخابات. فإن جميع وزراء هذا الحزب سوف يتركون الحكومة. أما مرشحي المجلس النيابي اللذين لم ينجحوا في الانتخابات فقد تم تعيينهم في الهيئات الاقتصادية العامة حتى غصت بهم تلك الهيئات».

وأيضاً بعد انتخابات ٢٠ تشرين الأول نشرت الصحف هذا الخبر.

«إن من ضمن برنامج الحكومة الائتلافية الجديدة مشروعاً يسمى (الخصخصة) أي بيع المؤسسات والهيئات الاقتصادية العامة للقطاع الخاص».

كنا نتناقش في مشروع مهم سيقدم إلى إحدى مؤسسات الدولة وكنا نشكل فريقاً مؤلفاً من ستة أشخاص بالإضافة إلى أصدقاؤنا الذين قاموا بدراسة هذا المشروع. كان أمام كل واحد منا نسخة عن المشروع ضمن ملف أنيق. إن مجرد نظرة خاطفة إلى هذا الملف تعطيك فكرة عن الوقت الطويل الذي استغرقه هذا المشروع. أما إعداد الجداول والإحصائيات فقد كان واضحاً أنها حصيلة جهد كبير وشاق. ولاشك أن هذه الدراسة تحتاج إلى وقت طويل لقراءتها والإطلاع. وحيث أن فريقنا لا يملك مثل هذا الوقت، فقد طلبنا من الأصدقاء والدارسين. أن يقوموا بشرح المشروع. استغرق الشرح مدة ساعتين وعشرين دقيقة كان يتخللها المداعبات بين الحين والآخر. لكننا فهمنا المشروع بشكل جيد. وحسب ما

شرحه لنا الأصدقاء فإن هذا المشروع هو غير عادي. ولم يكن لدينا أدنى شك بأن هذا المشروع المفيد والمستوفي جميع الشروط سيقبل فوراً من قبل مدير المؤسسة والخبراء العاملين بها. مثل هذا المشروع المهم والمفيد جداً يتطلب من المؤسسة أن تقوم بدفع مبلغ /١٢/ مليار ليرة لكي نتمكن من تنفيذ هذا المشروع. ولكن هذا المبلغ لا يتم دفعه إلا بعد تحقيق المشروع. ولكن هناك مبلغ /٧٠٠/ مليون من أصل المبلغ ستدفع لنا مقدماً مقابل الجهد المبذول من قبلنا. وسيكون هذا المبلغ بمثاب ربحنا من العملية. كان أحد الأصدقاء ممن عملوا معنا لا يفتأ عن القول «إن هذا الموضوع له جوانب أخرى» كلما فتح أمامه أحد المواضيع. ويبدأ بتصور بعض الأمور التي لا تخطر على بال أحد كمن يخلط السم بالدسم.

هذا الصديق قال:

- ربما.... وسكت.

فسأله أحد الأصدقاء الذين درسوا المشروع بكل ثقة.

- ماذا تقصد بكلمة ربما؟

فأجاب هذا الصديق:

- ربما... هناك نقطة مهمة، لقد مر على رأسي مثل هذه الحادثة وقد تعلمت منها الكثير.

قصَّ علينا الحادثة التي مرت على رأسه. هذا الصديق كان يعمل قبل اثني عشر عاماً في إحدى الهيئات الاقتصادية العامة. وقد تم تكليفه بدراسة أحد المشاريع. وقد لاقى هذا المشروع استحساناً وإعجاباً. وتم تكليفه بتنفيذ هذا المشروع وصرفت له المؤسسة مبلغاً قدره /٩٠٠/ مليون ليرة ليخرج هذا المشروع إلى حيز الوجود. وقد كان جميع العاملين في تلك المؤسسة مندهشين لهذه النتائج. لأن هذا المشروع كان سيكلف مبلغاً يتراوح بين ٣ ـ ٥ مليار ليرة فيما نفذ من قبل إحدى الشركات

الخاصة. وحيث أن صديقنا هذا كان موظفاً في تلك الهيئة فلم يتقاضى أي مبلغ علاوة على راتبه لقاء تنفيذ هذا المشروع. لكنه استلم كتاب شكر من رئيس تلك الهيئة... حسناً تعالوا نسمع هذه القصة كما رواها لنا صديقنا:

- سُرِّحتُ من عملي بدون أن أتقاضى أية تأمينات أو تعويضات لأنني لم أكن من الكادر الوظيفي بل كنت أعمل بعقد. كما أنهم لم يبينوا لي أي مبرر لإخراجي من العمل. لكنني فهمت بعد ذلك من أصدقائي. أنني سرحت من العمل لأنني يساري! كان لديَّ هاجساً لأعرف ما الذي ارتكبته حتى أصبحت بنظرهم يسارياً! كنت أسأل وأفتش وأبحث الموضوع مع جميع الأصدقاء. ولكن أحداً لم يقل لي السبب. بدأت بالتفكير من أين يمكن أن تكون قد انتهت حكاية اليسار هذه؟ قبل عدة سنوات عندما كنت طالباً في الكلية قامت الشرطة باقتحام منزلي وتفتيشه بناء على تقرير قدمه أحدهم ضدي. كان سبب اتهامهم لي باليسار هو وجود كتاب في منزلي للكاتب الأمريكي (stein beck) أخذوا الرواية وساقوني إلى المحكمة وعلمت بأنهم سيحكمون علي بتهمة اليسار فيما إذا تبين لهم أن (stein beck) قد أرسل ابنه إلى فيتنام في عداد المتطوعين. وقد اقتنع العالم عندئذ بأن هذا الكاتب ليس يسارياً ونجوت أنا بدوري من تهمة اليسار. والحمد لله ليس لي علاقة لا باليمين ولا باليسار.

بعد خمسة أو ستة أشهر من تسريحي من تلك الهيئة. استدعاني المدير العام لتلك الهيئة بكتاب رسمي. فذهبت مسرعاً وكلي أمل بأنهم سيعيدونني مرة ثانية إلى العمل لكن المدير العام بدلاً من ذلك قال لي: «إننا مسرورين جداً من مشروعك الذي نفذته سابقاً. والآن بين أيدينا مشروعاً أهم. وقد قرر مجلس الإدارة تكليفكم بتنفيذ هذا المشروع وأنا بدوري أقوم بتبليغك بهذا التكليف. وبما أنك لست موظفاً لدى الهيئة

الآن فقد رأينا من المناسب أن نقوم بتنفيذ هذا المشروع من خارج الهيئة كما لو كنت شركة خاصة».

شركة خاصة؟... من أين لي المال حتى يكون لي شركة خاصة. قالوا لي لا تهتم بالأمر وهم سيبذلون جميع المساعدات اللازمة لأقوم بتشكيل الشركة الخاصة. وأنهم سوف يتوسطون لدى أحد البنوك ليفتح لي حساباً جارياً.. وأعطوني إسم أكبر شخص مسؤول في ذلك البنك وطلبوا مني مقابلته في أقرب فرصه.

شيء لا يصدق . شيء كالحلم.. شمرت عن ساعدي وبدأت بتحضير المشروع الذي كُلفت به. أولاً بدأت بجمع الوثائق والمعلومات ومن تم اتصلت هاتفياً بالشخص المسؤول في المصرف المذكور. وبمجرد أن عرفته على أسمي وبدون أن يعطيني فرصة لأفتح الموضوع بدأ يكيل عبارات المديح والإطراء والاحترام لدرجة ادهشتني. وقال لي أنه عرف الموضوع من المدير العام وأنه يهنئني على تكليفي بمثل هذا المشروع وأردف قائلاً إن المشروع سيكون مفيداً جداً ومجدياً لبلدنا وأنه مستعد لتقديم جميع الطلبات اللازمة فوراً وأنه يخدمني وقال لي أيضاً: «تحت أمرك» وهو بانتظار تشريفي إلى المصرف للتباحث في كل هذه الأمور.

كنت فرحاً جداً بعد هذا الحديث الهاتفي. لأنني لم أصادف في حياتي أحداً عاملني بمثل هذا الاحترام. وكنت أتجول ضمن البيت من غرفة إلى أخرى وأنا أتقد فخراً وعجباً بأهميتي وقيمتي وأفكاري.

بعد يومين اتصلت ثانية بالمصرف وأخذت موعداً للاجتماع مع مدير المصرف.

ذهبت إلى مركز المصرف الرئيسي كان في استقبالي على الدرج الرخامي أمام الباب الخارجي للمصرف شخص لا أعرفه. ولأنني لم أتذكر

معرفة هذا الرجل قلت له خجلاً اعذرني فأنا لا أتذكرك. فقال لي وهو يبتسم (نحن نعرفك يا سيدي) صعدت وإياه في المصعد إلى الطابق الأول. وتركني عند باب المصعد حيث كان بانتظاري سيدة قالت لي بوجه ضاحك (تفضل يا سيدي). دخلنا إلى غرفة كبيرة. وقف جميع من في الغرفة عند مشاهدتي وحيوني بحرارة. ومن تلك الغرفة دخلت إلى غرفة المدير العام بعد أن عادت السيدة التي أوصلتني. وبمجرد أن دخلت الغرفة نهض ذلك الشخص المسؤول الذي كان يقبع خلف الطاولة حجمها أكبر من الغرفة التي أسكن بها. وفتح ذراعيه لملاقاتي وهو يقول بعض الألفاظ الترحيبية مثل «أو أو أو ... واي واي». لم أقف كـ(حيال المآته) أمام هذا الترحاب وهذه المقابلة الحارة ففتحت ذراعاي رغماً عني وبدأت أخرج أيضاً نفس الأصوات (أو أو أو ... واي واي) وأصبحنا في وسط الغرفة بطناً لبطن وحضنا بعضنا.

ـ بماذا تأمرون.. شاي.. قهوة.. عصير فواكه؟..

ضغط على الجرس.. فقلت للشخص الذي دخل وكان يشبه الرجل الآلي:

ـ رجاء.. قهوة.

وأصبحنا نتحدث مع بعض وكأننا أصدقاء منذ أربعين سنة حتى لم نعد نتبادل عبارات الاحترام المعهودة. وفيما نحن نتحدث بمختلف المواضيع سألني عن كلفة المشروع الذي أقوم بتحضيره. وكم مليار ليرة يلزم لتنفيذه.

قلت له: لم أقم بعد بدراسة الأسعار الإفرادية والبرنامج الزمني. فقد كان مشروعاً كبيراً ويحتاج إلى وقت طويل لإنجازه.

ـ ليكن.. ألا يوجد في ذهنك أي رقم تقريبي.؟

قلت له لا أستطيع التحدث برقم تقريبي. عندئذ قال لي لا تبخل بأي

شيء فنحن على استعداد لمنح القرض اللازم لهذا المشروع مهما بلغ من مليارات. والبنك سيعمل لك حساباً مفتوحاً لتأخذ منه ما تشاء.

أوصلني حتى الباب وأنا أغادر الغرفة قبلنا بعضنا بحرارة أكثر مما تقابلنا وكأننا أصدقاء منذ أربعين سنة وعندما علم أن ليس لدي سيارة وضع سيارة المصرف حتى أمري وقال لسائقه (السيارة اليوم بأمر هذا السيد).

وهكذا بدأت علاقتي مع أكبر مسؤول في ذلك المصرف. وقد رجاني أن أزوره دائماً. ولكنني لم أذهب إليه مرة ثانية. إلا بعد أن اتصل بي هاتفياً في منزلي وسألني عن إمكانية تناول طعام العشاء سوية فقلت له ممكن. فأرسل سيارته الخاصة إلى بيتي وذهبنا إلى أحد أفخم المطاعم في المدينة وتناولنا الطعام والشراب في جو مفعم بالود. وقد سألني أثناء تناول الطعام عن المرحلة التي وصل إليها المشروع وعن الكلفة التقريبية. فقلت له لا أستطيع التحدث الآن بأي شيء عن هذا المشروع.

بعد ذلك العشاء وذلك الود الذي قابلني به هذا المسؤول المصرفي رأيت من المعيب أن لا أمر عليه. فقصدت البنك في أحد الأيام فقوبلت بحفاوة تفوق المرة الأولى. وعندما غادرت المصرف أوصلوني إلى البيت بسيارة المصرف بعد أن وضع أحد الموظفين في السيارة. طرداً ملفوفاً بورق جميل وعليه شريط حريري وقال لي هذه هي هدية المصرف. وصلت إلى البيت. وفتحت الطرد بفضول شديد فوجدت فيه بعض الكتب القيمة التي لم يوزعها المصرف.

تعودت إلى الذهاب إلى المصرف. والمصرف تعود علي. فقد كنت أذهب إلى المصرف مرة أو مرتين في الشهر. أنتم تعرفونني جيداً لو كنت وجدت أي تأفف من المصرف لما ذهبت إليه. ولكن كل شخص في المصرف كان يقابلني بحرارة وحفاوة بالغة حتى أصبحت معروفاً من جميع العاملين في المصرف وفي بعض الأحيان كان يصلني بالبريد بعض

الهدايا من المصرف ثم دفتر مذكرات، تقويم حائط أو طاولة، دفتر جيب، ألبوم، قلم حبر، ولاعة...

أنهيت المشروع بعد عمل طويل وشاق. وكان كل شيء قد أصبح جاهزاً الأسعار الإفرادية والبرنامج الزمني. وضعت المشروع ضمن ملف كبير وذهبت إلى المدير العام للهيئة الاقتصادية التي كلفتني بالمشروع وسلمتهم الملف. كنت سعيداً جداً وارتاح ضميري بعد أن أنهيت مهمتي وبدأت انتظر الرد من الهيئة.. انتظرت. انتظرت.. شهر.. شهران ثلاثة أشهر ولم أستلم أي رد. ولكي لا يقال علي أنني متهالك على المشروع الذي درسته. لم أمر خلال هذه المدة. لا على المصرف. ولا على المديرية العامة. وبعد أن مضى كل هذا الوقت خطر لي أن أذهب إلى المصرف. عسى أن أفهم أي شيء من مسؤولي المصرف عن المشروع.

دخلت باب المصرف الفخم. آ. آ. آ. لم يهتم بي أحد من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يقابلونني بوجه ضاحك ومهرعون لمصافحتي ويقدمون احترامهم ويسألون عن خاطري. والذين كانوا يرافقونني حتى المصعد وإلى غرفة المسؤول. رغم أن جميعهم كان موجوداً في المصرف ولكنهم تصرفوا وكأنهم لا يعرفونني أبداً. قلت في نفسي لعلهم لم يلاحظوا قدومي فأحدثت ضجة بقدماي. وسعلت مرتين وسلمت على البعض.. ولكن ذلك لم يجد نفعاً.. كانوا يردون السلام كأنهم لا يعرفون الشخص الذي يسلم عليهم. فمنهم من كان يدير رأسه إلى الطرف الآخر ومنهم من كان يتظاهر بأنه لم يراني فلم يرفع رأسه. لعل في الأمر شيء لا أعرفه. صعدت لوحدي في المصعد إلى الطابق الأول. أشاح بعضهم بنظرة عني. وأدار البعض رأسه في الاتجاه الآخر. عبرت الغرفتين المتداخلتين وفيما كنت أهم بقرع غرفة المسؤول. قالت لي تلك السيدة الجميلة والتي كانت تبدي لي كثيراً من الدلع وعبارات الإطراء بصوتها العالي الرفيع وكأنها تراني لأول مرة.

ـ دقيقة من فضلك أيها السيد.

ـ قلت لها ما الأمر؟

ـ سألتني هل لديك موعد؟

ـ قلت لا.

ـ السيد المدير مشغول. تفضل استرح سأخبره عن حضورك دخلت الفتاة ولم تخرج.. أخيراً خرجت. وقالت بصوتها العالي الرفيع وبشيء من التمدن.

ـ السيد المدير العام لديه اجتماع هام. انتظر في الغرفة الجانبية.

من الواضح أنها كانت تقصد: «إذا كنت لا تريد الانتظار... فذلك أحسن»

قلت للفتاة التي لم تفتأ وهي ترد على الهواتف الأربعة بعد أن انتظرت مدة ساعة واحمر وجهي خجلاً قلت وأنا أغادر المكان.

ـ آه.. لأذهب أنا إذن. وسأحضر في وقت آخر بعد أخذ موعد مسبق.

لم أسمع فيما إذا كانت قد قالت مع السلامة! وأنا أهم بالدخول إلى المصعد. وإذ بي أفاجأ بالمدير وجهاً لوجه لم يستطع أن يتجاهلني فسلم علي ببرود شديد وسألني:

ـ هل كان لديك عملاً هنا؟

ـ قلت.. لا.

ذبت خجلاً وتمنيت لو أن الأرض قد انشقت وابتلعتني. وفهمت كم كان جوابي تافهاً. فإذا لم يكن لدي عمل فلماذا أحضر إلى هنا. فهنا ليس حديقة أو مكاناً للنزهة. أحسست بأنني يجب أن أقول شيئاً. تمتمت ببعض الكلمات حول المشروع. والقرض الذي كنت سآخذه فقال لي:

ـ ها... نعم.. ذلك المشروع...

بما أن الهيئة الاقتصادية ذات العلاقة لم تصدر أي قرار بشأن المشروع فمعنى ذلك أنها تخلت عن تنفيذ المشروع، وأضاف:

ـ لعلكم تقدرون هذا الوضع. لذا لم يعد بالإمكان منح أي قرض...

فهمت كل شيء. ولماذا أصبح كل من في المصرف يتجاهلني.. شكرته ونزلت الدرج. لم يوصلني أحد بالسيارة كالسابق. مشيت في الأزقة وأنا هائم على وجهي ثم صعدت الأتوبيس وذهبت إلى البيت. ولم أعد أراجع الهيئة الاقتصادية التي كلفتني بدراسة المشروع لأنهم لو كانوا بحاجة لي. فلابد وأن يسألوا عني.

مرت عدة سنوات. عانيت خلالها الكثير من هموم الحياة. وصعوبة العيش إلى أن عملت أخيراً منضداً في إحدى دور النشر. وفي أحد الأيام صادفت أحد الأشخاص كان يعمل مساعداً لي عندما كنت أعمل في تلك الهيئة. كنت أرغب في أن أسلم عليه على الماشي. لكنه أظهر لي وداً فائقاً وقال لي:

ـ دعنا نتناول طعام العشاء سوية هذا المساء إذا كان لديكم وقت فإن ذلك سيسعدني كثيراً.

الليل يسدل ستار مبكراً في الشتاء وأنا لدي وقت فقلت له ممكن. مشينا حتى المكان الذي تقف فيه سيارته. كانت السيارة فخمة للغاية. ركبنا السيارة وذهبنا إلى أحد فنادق العاصمة الفخمة. صعدنا الدرج إلى السطح. أحاط جميع العاملين والخدم بصديقي فقد كان واضحاً أنه كثير التردد على هذا المكان. كانت المائدة التي جلسنا حولها مزدانة بالزهور والشموع وعامرة بأشهى المقبلات والمأكولات. باشرنا بالمشروب فقال لي صديقي أنه لا ينسى أبداً المساعدات التي قدمتها له ولا ينسى أفضالي عليه أبداً. وهو يذكر ذلك لكل شخص. وأنه مدين لي بما وصل إليه من مركز. وأنه قد تعلم مني الشيء الكثير عندما كان ساعداً لي في تنفيذ

ذلك المشروع. وأنه بفضل ما تعلمه مني استطاع أن يؤمن لنفسه هذا المستوى الجيد من العيش الكريم ثم تابع قائلاً:

ـ لقد حزنت كثيراً لأنهم سرحوك من العمل.

ـ قلت نعم. وعلمت بعد ذلك أنهم سرحوني من العمل لأنني يساري. ولكنني لم أعرف بشكل من الأشكال. ماذا فعلت حتى أصبحت يسارياً. فقال لي:

ـ هل صحيح أنك لا تعرف؟

ـ قلت لا. رغم أنني بحثت كثيراً في الموضوع ولم أتمكن من معرفة أي شيء.

ـ معنى ذلك أن الجميع يعرف إلا أنت.

ـ فسألته حسناً لماذا أنا يساري؟.

شرح لي الموضوع قائلاً:

ـ لأنك قمت بتنفيذ ذلك المشروع بمبلغ /٩٠٠/ مليون ليرة فقط.

ـ لم أفهم.

ـ لأن ذلك العمل لو قامت بتنفيذه شركة خاصة. لبلغت كلفته المليارات وإن تنفيذك للمشروع بمبلغ /٩٠٠/ مليون ليرة فقط كان مبعثاً للريبة. حتى أنك لم تقبض أية أتعاب عن الدراسة. مثل هذا الفعل. عدم المؤاخذة لابد وأن يكون يسارياً. وهذا ما جعل جميع من في الهيئة يرتاب في أمرك. لكنني بشرفي لم أصدق بأنك يساري ولأنهم لم يتمكنوا من وجود أي دليل واضح على يساريتك فقد سرحوك من العمل دون إبداء السبب.

أسقط في يدي ولم أستطع أن أتفوه بأي كلمة سوى صدى صوت صدر مني.

ـ يا....

على كل فلقد فهمت أخيراً.. سبب اتهامي باليسار.. على كل ارتحت لذلك. ولكن الحزن المتراكم في داخلي دفعني إلى احتساء المزيد من المشروب. وحمدت الله على أنه ما زال هناك من لا يصدق بأنني يساري كهذا الصديق.

ـ سألته ماذا تعمل أنت الآن؟

ـ تقدمت باستقالتي بعد فترة من تسريحك من العمل. ودخلت الحياة العملية. وكما تعلم فإنهم الآن يخصخصون الهيئات الاقتصادية العامة. وأنا أنوي شراء تلك الهيئة الاقتصادية التي كنا نعمل بها سوياً.

ـ ماذا تقول هل ستشتريها بمفردك.

ـ ليس بمفردي ولكن باسم الشركة التي أمتلك فيها نسبة واحد وخمسون بالمائة.

ـ هل لديك استثمارات أيضاً؟

ـ طبعاً فقد تغير الحال. الآن كل شخص لديه استثمارات.

معنى ذلك أنني لست كباقي الأشخاص! دهشت كثيراً لما سمعته من ذلك الصديق ولعله فهم سبب دهشتي فحاول أن يشرح لي الأمر.

ـ كنت أعمل ليل نهار بعد استقالتي من الهيئة. وكان أول عمل لي مع تلك الهيئة بعد الاستقالة. هو أنهم أعطوني مشروعاً وسألوني بكم أستطيع تنفيذ هذا المشروع: فكرت في الموضوع. فإذا طلبت سعراً مرتفعاً فإن المشروع لابد وأن يطير من يدي لذلك قلت لهم. أستطيع تنفيذ المشروع بتسعة وعشرون مليار ليرة. قالوا إن هذا السعر مرتفع جداً. أتعرف لماذا؟ لأن هناك أحدهم. حمار بن حمار قد طلب مليارين فقط لتنفيذ هذا المشروع.

ازدادت دهشتي وهو يقوم بشرح المشروع المراد تنفيذه. كان نفس المشروع الذي قمت بدراسته مؤخراً وقدمته للهيئة.

ـ لاشك أنهم وجدوا أن مبلغ الـ٢٩ مليار مبلغاً كبيراً أمام مبلغ المليارين الذي طلبه ذلك الحمار بن الحمار. لذلك فقد اضطررنا إلى تخفيض الأسعار بسبب ذلك الحيوان حتى مبلغ /٢٢/ مليار ليرة. فقبلوا ذلك السعر وكان ذلك أول عمل لي في القطاع الخاص.

ـ حسناً هل لديك رأسمال؟ فأنت كنت تعمل بالأجرة مثلي.

ـ لا لزوم للرأسمال. فقد كانت الهيئة تتوسط للمصرف لمنحنا القروض اللازمة أولاً بأول.

ـ حسناً وكيف كان ذلك الحيوان الحمار بن الحمار الذي تحدثت عنه سيقوم بعمل قيمته ٢٢ مليار ليرة بمليارين فقط.

ـ أصلاً المليارين كافية. ولكنك تعلم أن الهيئة تعج بالموظفين. كل من حصل على (كرت توصية) يعين فوراً في الهيئة. ومنهم من يعين بواسطة هاتف. أو رسالة. لذلك فإن الهيئة ملآى بالوزراء والنواب السابقين ورؤساء الأحزاب. والمدراء العامون ورؤساء البلديات ـ وناس من كل الأجناس. والجميع سيقبض. وعليك الدفع. طبعاً. نحن نسجل هذه المدفوعات كمصاريف وطبعاً كلما ازدادت المصاريف سوف تزيد نسبة أرباحنا. لذلك فإن مبلغ ٢٢ مليار يعتبر مبلغاً قليلاً.

سألني قائلاً بعد أن لاحظ شدة اهتمامي بالموضوع:

ـ لم كل هذا الاهتمام؟

ـ قلت ألم يكن هناك شخصاً قد تعهد بتنفيذ المشروع بمبلغ مليارين من الليرات ذلك الحيوان الحمار بن الحمار.

ـ قال نعم.

ـ ذلك الحمار بن الحمار هو أنا.

لقد انتظرت. أن يقول لي استغفر الله. إنه ليس أنت بل فلان الفلاني ولكن ذلك لم يحدث بل قال كمن بق الحصاة من فمه.

ـ لا... يا.

ـ نعم أنا.

قال لي بعد فترة من الصمت. وقد تخلى فجأة عن إبداء أي احترام في الحديث:

ـ يا أخي. في الحقيقة لم أكن أصدق أنك يساري عندما سرحوك من الوظيفة أما الآن فأنا مقتنع بأنك يساري حقيقي.

فكرت بأن وجود شخص يساري مثلي في هذا المكان الفخم مع شخص ذو أملاك واسعة سوف يشتري قريباً إحدى الهيئات الاقتصادية أمراً غير طبيعي، فشكرت ذلك الصديق واستأذنته بالانصراف. كان يبدو عليه الامتنان من هذا الانصراف. تلطف وصحبني حتى الباب الخارجي للفندق. وقال لي وهو يودعني بصيغة بعيدة عن الاحترام.

ـ سنحتاج إليك فأنت تعلم أن تلك الهيئات تخسر في الوقت الحاضر. ولكن إذا بيعت للقطاع الخاص واشتريناها. وإن شاء الله سوف نشتريها. عندئذ لابد وأن تربح لذلك سوف نحتاجك كثيراً. فهل ستعمل معنا إذا اشترينا الهيئة.

ـ لست أنا الحيوان الوحيد الذي تحدثت عنه في هذا البلد. كما أن هناك الكثيرين من اليساريين. وهم شباباً وليسوا كهولاً مثلي. يمكنك التعامل معهم.

نعم.. هذا ما جرى لصديقنا الذي يقول في أي موضوع يطرح أمامه (هذا الموضوع له جوانب أخرى) ويخلط السم بالدسم. وبعد أن انتهى

من سرد قصته. قال في الحقيقة إن هذا المشروع الذي ستقدمونه للهيئة هو مشروع ممتاز ومتكامل ومفيد للبلد. لكن إذا كان سبب واحد لرفضه. فسيكون هذا السبب هو السعر المنخفض الذي تطلبونه لتنفيذ هذا المشروع. وأضاف قائلاً:

ـ أظن أن هذه الأسعار الرخيصة التي تقدمتهم بها لمثل هذا المشروع الضخم ستكون السبب في رفض عرضكم.

فقال أحد الأصدقاء:

ـ إذن ما العمل؟

فرد عليه آخر:

ـ لنعمل ما ستعمله. ولكننا سوف لن نسمح للحمير أولاد الحمير أن يصفوننا بالحمير أولاد الحمير.

بناء على ذلك فقد تم اتخاذ قرار بإعادة النظر بالأسعار الإفرادية. وبالاجتماع بعد أسبوع. كنت أظن أن سعر تنفيذ المشروع سيرتفع إلى مبلغ ٣٠ ـ ٤٠ مليار بدلاً من مبلغ /١٢/ مليار. ولكن ما حصل كان العكس تماماً. فقد قام الزملاء بتدقيق الأسعار الإفرادية وتبين لهم أن هناك خطأ في الجمع وأن المشروع يمكن تنفيذه بمبلغ ١١ مليار و٣٠٤ ملايين وستمائة وواحد وثمانون ألفاً بدلاً من ١٢ مليار ليرة.

بعد ذلك قال صديقنا الذي يتحدث دائماً عن الجوانب الأخرى الموضوع.

ـ أنا أبرأت ذمتي. وقلت ما عندي. بعد ذلك ستتحملون أنتم ما سوف يقولونه عنكم.

* * *

أكبر كاتبين في العالم

كنت قد تعرفت منذ زمن بعيد على أكبر كاتبين في العالم. كان أحدهم من هنا وأعرفه منذ زمن بعيد. كان قد أقنع نفسه بأنه أكبر كاتب في العالم. وحاول إفهامي أيضاً. وهو يحاول دوماً إقناع الآخرين بأنه أكبر كاتب في العالم. خاصة عندما يكون غاضباً. أو عندما يتعاطى المسكرات. ومن الطبيعي أن يصدقه جميع الناس ما عدا الكُتَّاب. فإقناعهم غير ممكن لأن كل كاتب يعتبر نفسه أعظم كاتب في العالم. وهم لا يقولون ذلك صراحة بل يحاولون تسفيه أكبر كُتاب العالم وبذلك يضعون أنفسهم في المقدمة.

أما عن قناعتي في كاتبنا الذي يعتبر أحد أكبر كاتبين في العالم. فإن كاتبنا ليس أسوأ بكثير من الكتَّاب الذين يعتبرون أنفسهم من أكبر كتَّاب العالم، حتى أنه أفضل من الكثيرين منهم. ومن الطبيعي أن يلاقي مثل هذا الكاتب الكثير من الحسد والغيرة بين أوساط الكتَّاب. ولأنه مقتنع بأنه أكبر كاتب في العالم فإنه يعتقد أن جميع الكتَّاب يغارون منه.

أما الكاتب الثاني فهو يعيش في بلد آخر. ومن الصدف السعيدة أنه من بلد آخر لأنه من الصعب جداً أن يتعايش أكبر كاتبين في العالم في نفس الزمان والمكان ويفترض أن يكون أحدهم أكبر من الآخر.

دُعينا نحن ثلاثة كتَّاب أحدنا كان أكبر كاتب في العالم. إلى بلاد الكاتب الكبير الآخر كان هناك اجتماعاً دولياً لكتَّاب يضم كُتَّاباً من دول مختلفة. حتى ذلك الوقت لم أكن قد شاهدت أكبر كتَّاب العالم مجتمعين في آن واحد. فقد كان هذا المؤتمر الدولي لكتَّاب. هو أول مؤتمر أحضره أنا وصديقي. فنحن لا زلنا كاتبين شابين ومع ذلك فقد كنا نعتقد

كباقي الكتّاب أننا أكبر كتّاب العالم. ولكننا لم نكن نفصح عن هذا الاعتقاد حتى لأنفسنا. لا أعرف إن كان صديقي يتابع مثلي تصرفات أكبر كتّاب العالم. لكنني أنا كنت أتابع تصرفاتهم بشكل مستمر وأحاول التعلم منهم. لكي أجيد التصرف مثلهم مستقبلاً.

وحتى لو لم أفصح عن نفسي أليس من الطبيعي أن أعتبر نفسي ومنذ الآن بأنني أكبر كاتب في العالم. دعوكم مني الآن ولنر صديقنا الثالث الذي حضر معنا ذلك الاجتماع الدولي للكتّاب...

هذا الكاتب هو كباقي الكتّاب الحاضرين أقل كتّاب العالم كفاءة ومقدرة رغم اعتقاده أنه أفضل كاتب في العالم. لم نكن نحاول أنا وصديقي أن نقف في الصفوف الأمامية وربما كان هذا بسبب تواضعنا أو بسبب خجل الشباب الذي كان يعترينا.

أما كاتبنا الكبير فقد كان همه أن يبقى دائماً في الصفوف الأمامية. وكنا نساعده لكي يتقدم إلى الأمام أكثر. ففي المدارس والجيش أو في المسيرات والعرض العسكري يقف طوال القامة في المقدمة لأنهم يحملون الأعلام والرايات ويقف خلفهم الآخرين حسب تسلسل الطول أم الصغار وقصار القامة فيقفون في المؤخرة. ولا أحد يعترض على ذلك حتى إعلان حقوق الإنسان أو معاهدة باريس التي تنص على أن الناس متساوون في الحقوق منذ ولادتهم. إن هذا الإعلان وتلك المعاهدة لا يمكن تطبيقه على النظام المتبع في تلك الطوابير وهم لا يمكنهم أن يخلطوا طوال القامة مع القصار بشكل عشوائي لأن الناس متساوون في الحقوق. المساواة هنا هي في الطول فقط. حتى أن موضوع مساواة الناس في حقوقهم منذ ولادتهم أمر يدعو للمناقشة. إذ كيف يتساوى طفل وزنه ٥ ـ ٦ كيلو غرام وطوله ٦٠ ـ ٧٠ سم عند ولادته مع طفل آخر وزنه ٧٠٠ غرام وطوله ٣٠ ـ ٤٠ سم.

أنا أؤمن بالمثل القديم الذي يقول (كل طويل أحمق) و(كل قصير لا

يخلو من الفتنة). فأنت تستطيع أن تتأكد من أن طوال القامة حمقى لأنهم يقفون في الصفوف الأمامية ولأنهم في المقدمة فهم معرضون للمخاطر قبل غيرهم. وهم بدون أي تفكير في هذا الموضوع يسيرون في المقدمة وبحماس شديد. أما قصار القامة فلأنهم يسيرون في المؤخرة فهم لا يشاهدون سوى من يقف أمامهم وهم مضطرون لأن يتفرجوا عليهم ويدققوا في تصرفاتهم ويتهامسون ويكثرون من اللغو فيهم. أي أنهم مضطرون للفتنة. أما طوال القامة فلا أحد أمامهم لكي يفتنوا عليه.

أما متوسطي القامة فهم يأخذون نصيبهم من الحمقى والفتنة.

حسناً. ولكن أليس الطول والقصر شيء نسبي. بالنسبة لماذا يقال هذا طويل وذاك قصير. فلو أخذنا مثلاً نموذجاً من الـ (pigme) فإن أطول واحد فيهم يعتبر قزماً بالنسبة للسنغاليين.

وعلى كل حال فإن كاتبنا لا يعتبر أكبر كاتب في العالم من أجل كتابته فقط فهو كبير حتى بالنسبة لطوله وجسمه ووزنه. وصوته الأجش وصرعاته الكبيرة. ونحن الاثنين الآخران وإن كنا نغار منه لكننا نفتخر به أيضاً. ولو كان الكتَّاب سوف يسيرون حسب الطول أثناء استعراض الكتَّاب. لكان كاتبنا العالمي في المقدمة وخلفه كاتبنا الذي لا يمتاز بالكفاءة. وفي المؤخرة كان لزاماً أن أكون أنا.

علمنا ونحن ذاهبون إلى عاصمة البلاد التي دعينا إليها أن لديهم مثلنا أكبر كاتب في العالم. وحسب ما علمنا أن ذلك الكاتب الكبير قد أنتج أهم أعماله بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وهذا يعني أنه أكبر سناً من كاتبنا الكبير لكنا كنا نجهل أيهما أكبر بغض النظر عن السن.

قبل يوم واحد من الاجتماع الدولي علمنا أن هناك لقاء سوف يتم بين الكاتبين الكبيرين فبدأنا ننتظر هذا الاجتماع باهتمام وقلق كبيرين لأن هذا اللقاء سيحسم من هو أكبر كاتب في العالم. تم اجتماع هذين الكاتبين

أمام أعيننا وكان الاجتماع كما توقعنا تماماً. ولم يكن هذا اللقاء يشبه اجتماع أكبر كاتبين في العالم. بل كان أشبه ما يكون بلقاء ملاكمين من الوزن الثقيل على حلبة الملاكمة أو كبهلوانين يتصارعان في ميدان المصارعة. نعم هذا ما حدث تماماً.

تم اللقاء في صالون الطابق الثاني من البناء الذي تحتله جمعية الكتَّاب للبلد المضيف. وقد انتصب في منتصف الصالون حاجزاً زجاجياً من الأرض إلى السقف. وقد جلس خلف هذا الحاجز أكبر كاتب في العالم على أريكة من الجلد بانتظار كاتبنا الكبير وهو يدخن لفافة من التبغ كان باقي الكتَّاب يجلسون في الطرف من الحاجز ويتحدثون أحاديثاً مختلفة أما نحن الاثنين بالإضافة إلى السيدة المترجمة المرافقة لنا فقد كنا نتابع لقاء الكاتبين الكبيرين باهتمام بالغ.

سررنا لتأخر كاتبنا في الوصول ولاضطرار الكاتب الآخر للانتظار واعتبرنا أنها بداية طيبة ونقطة لصالحنا، كان ذلك الكاتب الكبير يجلس كأنه في زاوية الحلبة كملاكم ينتظر خصمه.

بعد قليل اهتزت أرضيةّ الصالة الخشبية واهتز معها الكراسي والطاولات التي نجلس حولها وكل ما فوق الطاولات وفهمنا أن كاتبنا الكبير قد دخل الصالة. دخل من الباب وسعل وبسعاله اهتز زجاج الصالة، هو لم يسعل لأنه يعاني من السعال بل لكي يلفت الأنظار إلى وجوده. ودخل إلى حيث الكاتب الآخر ولم يكن برفقته أي مترجم. سألت السيدة المرافقة لنا عن اللغات التي يعرفها كاتبهم فقالت إنه لا يعرف سوى لغته الأصلية. وأنها لا تحب هذا الكاتب لأنك إذا نظرت إلى رواياته الغليظة التي يكتبها سوف تكتشف أنه لا يتقن حتى لغته الأصلية. لقد ربح كاتبنا إذن النقطة الثانية فبالرغم من عدم معرفته لغة أخرى إلا أنه يتقن لغته الأصلية كتابة وحديثاً.

كنت قلقاً حول الكيفية التي سيتفاهم فيها هذان الكاتبان. إذا لم يكن

بينهما لغة مشتركة لكنني أدركت بعد قليل أن قلقي هذا لا لزوم له.

ولكن كيف تم التفاهم بين أكبر كاتبين في العالم بغياب لغة مشتركة؟ سأشرح لكم ذلك من خلال مراقبتي لهذين الكاتبين من وراء الحاجز الزجاجي.

فكاتبنا الذي اهتزت أرضية الصالة لدخوله فتح الباب الموجود عند الحاجز الزجاجي ودخل بسرعة العاصفة إلى وسط الغرفة. وفتح زراعيه حتى آخر مدى وبدأ بقول (أو... أو... أو...) كان هذا الصوت يشبه صوت التأثير الذي يغطى بصوت العاصفة أثناء التمثيليات التي تبث من الإذاعة. كان الكاتب الكبير الآخر يجلس وظهره إلى الباب. دهش أولاً عندما فتح الباب وسماع صوت أو... أو... أو.. ولكنه بعد فترة صمت التفت وعندما رأى كاتبنا الكبير فاتحاً ذراعيه. وقف ينظر إليه لفترة قصيرة ولعله كان يفكر عما يجب عليه فعله. ولعله اتخذ القرار فهب واقفاً وفتح زراعيه مثلما فعل كاتبنا الكبير وبدأ يقول أو... أو... أو.. ومكثا فترة وكل منهم يتبادل الـ أو... أو.. مع الآخر وكنا ننتظر باهتمام بالغ كم ستدوم هذه الفترة؟

في الحقيقة كان المشهد يثير الاهتمام فلقد احتضن كاتبنا الكاتب الآخر بذراعيه المشرعتين كالأجنحة: فشعر الكاتب الآخر أنه يجب أن يفعل ما فعله كاتبنا في فاحتضنه بذراعيه أيضاً. ولوقوف كل منهما أمام الآخر استطعت أن أقارن بين هذين الكاتبين فقد بدا على الكاتب الآخر وكأنه أخشن وأوزن من كاتبنا نظراً لكرشه الكبير ورقبته العريضة. مقابل ذلك فقد كان كاتبنا أطول قامة بإصبعين أو ثلاثة.

سمعنا صوتاً فإذا بهما يقبلان بعض من هذا الخد وذاك الخد ولكي لا يكون الكاتب الآخر وهو المضيف أقل وداً من كاتبنا. راح يخرج صوتاً عالياً وهو يقبل كاتبنا الكبير.

حتى الآن لا يعتبر ما شاهدناه منظراً غير مألوفاً. لكن المنظر قد تغير بعد ذلك وأصبح غير مألوفاً بالمرة.

أنزل كاتبنا الكبير زراعيه التي طوق بها الكاتب الآخر حتى ظهره ثم إلى خصره وبعد أن طوقه رفع ذلك الرجل الضخم عدة مرات في الهواء ثم أنزله على الأرض بعد أن أطلق قهقهة عالية اهتز منها زجاج المكان. وقف الكاتب الآخر مشدوهاً. وهو يفكر كيف يجب أن يتصرف. أما كاتبنا الكبير فوقف منتظراً ولسان حاله يقول (الكرة في سلتك الآن). ولعل الكاتب الآخر قد ظن أن التعارف الودي في بلاد كاتبنا الكبير لابد وأن يكون كما فعل كاتبنا. وبوصفه من الدولة المضيفة فمن العيب أن لا يقابله بنفس الود والحرارة. لذلك طوق خصر كاتبنا بذراعيه الطويلتين ورفعه عدة مرات في الهواء ثم أنزله نحو الأرض. ولكن بدا عليه الإعياء جداً من هذه التحية وبدأ العرق يصبب منه لأنه أكبر سناً من كاتبنا ولكنه رغم ذلك لم يتأخر عن القيام بالمثل حتى أ،ه أطلق قهقهة عالية تماماً كما فعل كاتبنا.

بعدها قام كاتبنا وضغط بذراعيه على كتفي الكاتب الآخر وأرغمه على الجلوس وفعل الكاتب الآخر نفس الشيء وجلس الاثنان متقابلان.

حتى الآن جرى كل شيء في جو ودي وتصورت أن الأمور ستكون مثيرة بعد الآن فكيف سيتفاهم هذان الكاتبان بدون أن يستعملوا لسانهم. كنا سابع ذلك باهتمام من خلف الحاجز الزجاجي تماماً كما لو كنا نتفرج على الأسماك وهي تسبح في حوضها الزجاجي.

بوجه ضاحك نظر كل منهما إلى الآخر نظرة متفحصة بعدها أطلق كاتبنا قهقهة متوسطة وقرص خد الكاتب الآخر بطريقة ودية. ففعل الكاتب الآخر ما فعله كاتبنا. في الحقيقة كانت المبادرة الأولى تأتي دوماً من قبل كاتبنا. وكان الكاتب الآخر. يحاول أن يؤدي تماماً جميع ما يفعله كاتبنا. وهكذا ورغم عدم وجود لغة مشتركة بينهما فقد أوجدا طريقة للتفاهم وكانت علائم السرور تبدو على محياهما. وبعد تبادل القرصات من كاتبنا مد كاتبنا الكبير يده على الخد الأيمن للكاتب الآخر وداعبه. ثم ضربه بكفه

على قفاه. تعكر مزاج الكاتب الثاني من هذا الكف لأن كاتبنا الكبير قد تجاوز كل المقاييس بذلك الكف الذي أنزله على رقبته من يده الضخمة التي تشبه المهدَّة وكاد أن يرميه أرضاً. مسكين ذلك الكاتب لم يستطع أن ينبس ببنت شفه سوى لفظة (هه). ولكن الكاتب الآخر على ما يبدو فقد إغتاظ كثيراً ونسي حب الضيف وأنه صاحب البيت فنهض وأنزل بكل ما يملك من قوة صفعة على رقبة كاتبنا ولعله شعر بأنه لم يأخذ بثأره تماماً فضرب كاتبنا كفاً على خده سمعنا صوته من الجانب الآخر.

هذا الحديث الذي تم بين الكاتبين بدون كلام تحول إلى ساجلة غليظة، حتى أن ذلك الكاتب كان ينهال بكلتا يديه ضرباً على كاتبنا ويكيل له اللكمات أيضاً. قال لي صديقي الكاتب الذي يجلس بجانبي:

ـ دعنا نذهب.

ـ قلت له لماذا نذهب؟ كاتبان متحضران يتناقشان.

في الحقيقة لقد حصل ما توقعته، فقد قام كاتبنا الكبير بهدوء واتزان وربت على ظهر الكاتب الآخر بيده عدة مرات جعلت الكاتب الآخر يلين فقام بدوره وربت على ظهر كاتبنا عدة مرات أيضاً، بعد ذلك جلس كاتبنا على مقعده ووضع رجلاً على رجل فانزلق الكاتب الآخر على مقعده ووضع رجلاً على رجل أيضاً. مدَّ كاتبنا كفه وضرب الكاتب الآخر على ركبته فرد الكاتب لآخر بالمثل، بعد ذلك لا ندري ما الذي جعل كاتبنا الكبير يهب واقفاً على قدميه فهب نظيره كذلك واقفاً على أهبة الاستعداد ليكون جاهزاً للرد على كل الطوارئ المحتملة. ولكي لا يفاجأ بأي عدوان ودي جديد لقد تسارعت تصرفاتهما بعد أن وقفا على أقدامهما. ولم أتبين ممن جاءت المبادرة الأولى؟ فقد لمس كل واحد منهما بطن الآخر ومن البطن إلى الصدر ومن الصدر حتى أسفل الإبط. لابد أنهما كانا يتدغدغان لأنهما استمرا بالضحك طويلاً. وتعمق الود بينهما وأظن أن كاتبنا قال له (يكفي) لا

تدغدغني فأنا لا أحب مثل هذه الميوعة لأنه رفع كفه وصفع الكاتب الثاني على رقبته ورغم اهتزازه لهذه الصفعة إلا أنه تمالك نفسه ولم يقع أرضاً. ولكنه غضب كثيراً فهجم على كاتبنا كأنه فارس من فرسان الحروب الصليبية. وانهال عليه ضرباً دون هواده فقال كاتبنا الكبير بعد الهجوم مثلما فعل حضرة الإمام علي في صد هجوم الكفار: توتر الجو تماماً فقد اشتبك أكبر كاتبين في العالم وبدأ كل واحد يضرب الآخر بقبضته أو كفه أو رجله. وكان أحدهما يهوي على الأرض. وينهض ليبدأ العراك ثانية. بعد ذلك تصاعدت الأمور أكثر. وبدءا يتناطحان برأسيهما.

بدأنا نفكر كيف ستكون النهاية؟.. كان الكاتب الآخر مستلقياً على الأرض فجاء كاتبنا الكبير وبتصرف فيه الكثير من اللطف والذوق رفعه من على الأرض وقبله، فقبل الكاتب الآخر كاتبنا وبدءا يضحكان بصوت عال، في هذه الأثناء فُتح الباب ودخل رجل يحمل صينية عليها فناجين قهوة وكوباً من الماء. كان الكاتبان لا يزالان يتضاحكان وهم يحتسيان القهوة وكل قد جلس على أريكته. وخلال ذلك كانا يتبادلان اللمسات الخفيفة. كل على ركبة الآخر أو على خده. وعندما انتهيا من شرب القهوة هب كاتبنا واقفاً فوقف الكاتب الآخر على قدميه أيضاً.

ما العمل؟ قد يبدأ هجوم جديد وبالفعل هذا ما جرى فقد بدأت الجولة الثانية ولكنها لم تكن طويلة بل انتهت بسرعة.

لولا أن العروض الفنية التي قدمها الكاتبان كانت خلالها أساريرهما منفرجة وضحكاتهما عالية لظن المشاهد البعيد الذي لا يعرفهما أنهما كانا يتشاجران!

تابعنا هذا العرض الغير عادي لمدة ثمانية وعشرون دقيقة. ونحن خلف الحاجز الزجاجي بينما كان قد خصص مدة ثمانية ساعات للقاء هذين الكاتبين الكبيرين.

بدأ كاتبنا يلوح بيده اليسرى، وهو يتراجع إلى الخلف باتجاه الباب. فرفع الكاتب الآخر بيده ولوح له بها أيضاً ولكن بدون أن يتحرك من مكانه، كانا يحاولان إخفاء لوعة الفراق بابتسامة علت وجههما وفيما خرج كاتبنا من الباب بقي الكاتب الآخر متهالكاً على مقعده.

حتى الآن لا يعتبر القسم الذي مر معنا من الحادثة غريباً جداً. لأن ما جرى بعد ذلك كان بالنسبة لي أكثر غرابة فبعد مضي عشر سنوات ذهبت بمفردي إلى تلك البلاد. كان في برنامج زيارتي عقد لقاء وإجراء حديث مع ذلك الكاتب الكبير، تحدثنا بواسطة مترجم فسألني أثناء الحديث عن أحوال كاتبنا الكبير فأخبرته أنه بخير، لكنه لم يكتف بهذا السؤال بل أضاف أنه صديق حميم لذلك الكاتب وأنهما متفاهمان على كل شيء وبأنه لا ينسى ذلك اللقاء الحميم الذي جرى بينه وبين كاتبنا الكبير قبل عشر سنوات، وأضاف بأنه يشعر بالفخر والاعتزاز لصداقته وقال أنه قد عرف مقامه جيداً. فهو «كاتب كبير جداً».

بعد مضي بضعة أشهر على هذا الحديث توفي ذلك الكاتب الكبير وعندما علم كاتبنا الكبير بخبر الوفاة أدلى بحديث أمام جميع الصحفيين قال فيه: إن المتوفى صديق عزيز وأنه كان على تفاهم تام مع هذا الكاتب وأن العالم قد فقد بوفاته كاتباً ذو قيمة عظيمة، أما أعماله فستبقى خالدة على مر الأيام وستظل أعماله في الشعر والرواية والقصة القصيرة وفي المسرح حية إلى الأبد وأنه سوف لن ينسى ذلك الحديث المشوق الذي جرى بينهما، بعد ذلك أحس كاتبنا بأن عليه أن يذكر اسم ذلك الكاتب أمام الصحفيين، فالتفت إلى كاتب آخر كان يجلس بجانبه وهمس في إذنه:

ـ يا هو ما هو اسم ذلك الرجل؟.

* * *

الفهرس

آلة سريعة العطب

إذا كنتم تريدون وجع الرأس ، عليكم أن تأخذوا دروساً ممن لهم تجارب في هذه الحياة .

جاء حظي من مواليد برج الحمل : «ساعد أصدقاءك قدر المستطاع ، إذا طلب أحدهم منك ديناً ، فلا تردُه خائباً ، لأن الله سيرزقك أكثر كلما ساعدت أصدقاءك . .» . قدّمت لصديقي مبلغاً من المال ليردّه بعد أسبوع ، وفي يوم الاستحقاق قرأت في برج الحمل : «لاتضغط على صديقٍ استدان منك ، لأن أبواب الرزق ستفيض عليك ، وتقبض مالاً كثيراً . .» . لكن أبراجي ذهبت أدراج الرياح .

كن مطمئن البال ولاتغضب ياصديقي ، إذا لم يصبح ابنك رجلاً كما تريد ، اضربه بالعصا أولاً ، وإذا لم تنفع العصا أرسله للجيش ، وإذا لم ينفع الجيش زوّجه ، وإذا لم يصبح رجلاً بعد زواجه اضربه على قفاه بالعصا واطرده إلى قرية أخرى وسيصبح هناك رجلاً .

توجّهت إلى محلات بيع الملابس الجاهزة ، سألت عن نوع قماش البنطال ، أجاب البائع إنها بضاعة أجنبية ممتازة ، قلّما تجد مثلها . . اشتريت بنطالاً وارتديته عند البائع ، وماإن وصلت البيت حتى تمزّق مثل أكياس الخيش .

أخيراً ، هل قرأتم طرائف جديدة مضحكة ، حاولوا أن تضحكوا مع جمعية عش البلابل ، ومع أكبر كاتبين في العالم . ولاتنسوا قراءة قصة الخمسة قروش في نهاية هذا الكتاب .

الناشر

السعر ٢٠٠ ل.س